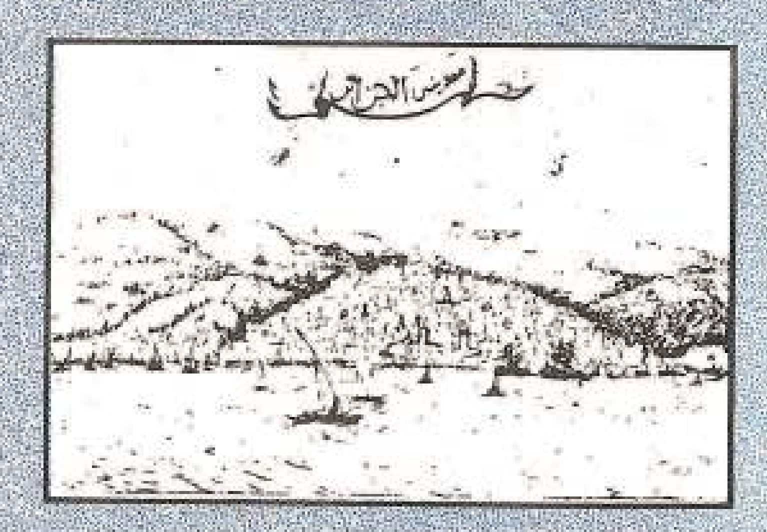
وزارة التعليم العالي جامعة الجزائر

معهد التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ ـ بجامعة الجزائر



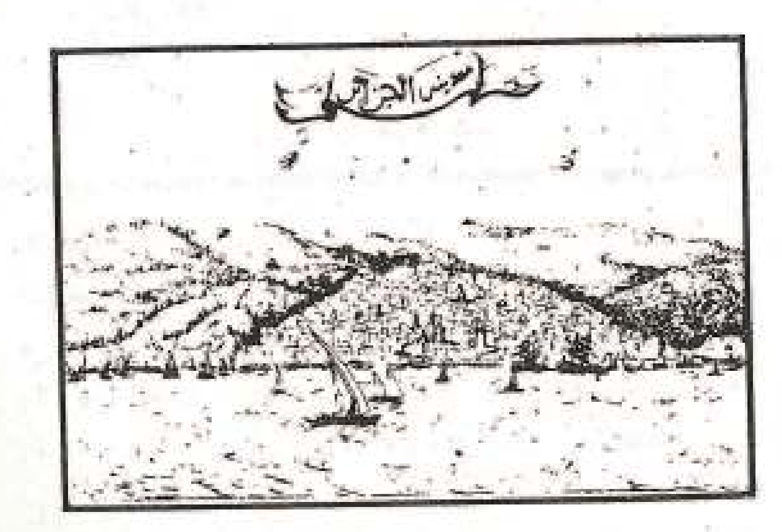
العدد الخامس السنة 1408 هـ ـ 1988

وزارة التعليم العالي جامعة الجزائر

معهد التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - بجامعة الجزائر



العدد الخامس السنة 1408 هـ - 1988

العدد 5

السنة الثالثة 1408 هـ ـ 1988 م

مدير المجلة : ناصر الدين سعيدوني

الأمانة العامة : عمر بن خروف وعائشة غطاس

ملاحظة:

لقد تأخر صدور العددين الرابع والخامس من هذه المجلة لظروف خارجة عن نطاقنا، وقد تفضل السيد رئيس جامعة الجزائر الدكتور عمر صخري ونائبه المكلف بالبحث العلمي الدكتور عبد الرحمن عزي بتقديم يد العون والمساعدة على اصدارهما فلها الشكر الجزيل والتحية الخالصة.

مع الأمل في متابعة اصدار أعداد أخرى من هذه المجلة في القريب العاجل.

عن هيئة التحرير، الدكتور نصر الدين سعيدوني

المحتويـــات

تقديم

بصدور هذا العدد الخامس الخاص بأعمال الملتقى الوطني الأول لمعهد التاريخ المنعقد بتاريخ (10 ـ 12 مارس 1987) تحت موضوع المدرسة الغربية وقضايا التاريخ الجزائري، تكون مجلة الدراسات التاريخية قد اثبتت ذاتها، وأكدت وجودها. وخدمت اختصاصها باعتبارها المحك العملي، والميدان التطبيقي الذي يمكن أساتذة التاريخ وطلابه من تطوير قدراتهم وتنمية مداركهم. وشحذ مواهبهم في ميدان البحث التاريخي.

ولعلنا لا نبتعد عن جادة الصواب إذا قلنا إن موضوع الملتقى يعتبر على غاية من الاهمية بالنسبة للمرحلة الحالية من التنمية الثقافية عامة. والمعرفة التاريخية خاصة. آملين أن تكون البحوث المنشورة تعكس ذلك. لا سيا ونحن نأمل أن يكون هذا الملتقى بمثابة الحافز القوي لتكوين مدرسة جزائرية في التاريخ، وطنية الاتجاه علمية الاسلوب والمنهج، موضوعية الأحكام لاترفض المساهمات السابقة لكنها لا تتبنى أحكامها ولا تقر مواقفها. بل هي تطمح الى أكثر من ذلك. بأن تكون خير صلة بتراث السلف. وخير أداة لخدمة الحاضر. ورسم آفاق المستقبل في ميدان من أخطر الميادين ألا وهو التاريخ الذي هو بلا شك ذاكرة الشعوب ووعاء شخصيتها ومذكرها بمآثرها وأمجادها.

الأستاذ الدكتور نصر الدين سعيدوني

تقـــديـــم

إن هذا العدد من مجلة معهد التاريخ هو صورة من صور أنشطة جامعة الجزائر العلمية. هذه الأنشطة المتعددة التي تقوم بها جامعتنا لمتابعة التطورات العلمية وتطوير مناهج الدراسة الجامعية.

إن الندوات والمحاضرات والمجلات العلمية والثقافية التي توليها جامعة الجزائر أهمية خاصة وعناية فائقة تفتح آفاقاً فكرية خصبة الجوانب متعددة الاتجاهات والمناحي. وهي تحقق جواً من الألفة والتبادل الفكري بين جيل المستقبل والمفكرين والباحثين من طلبة الجامعة وأعضاء هيئة التدريس فيها من ناحية أخرى.

وهذا العدد من مجلة معهد التاريخ ما هو إلا دليل قاطع على حرص هذا المعهد، وبالتالي الجامعة، من خلال مشاركة النخبة الطيبة المتميزة من أساتذته، على تحقيق أهدافه.

واني إذ أقدم هذا العدد لأشكر العاملين الذين هم وراءه وأشكر كل الجهود المخلصة الخيرة التي حققت أهداف الجامعة في هذا المجال. وأرجو أن تتضافر كل الجهود الطيبة لتحقيق رسالتنا.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾

والله ولي التوفيق

الأستاذ د. عمر صخري
رئيس جامعة الجزائر

تقديم

يشرفنا أن نساهم في تقديم هذا العدد من مجلة الدراسات التاريخية التي يصدرها معهد التاريخ ـ جامعة الجزائر ـ وما تأمل في هذه الوثيقة التاريخية عن التاريخ أن تتطور إلى مؤسسة قارة تتواصل في استظهار المعالم التاريخية والبنيات التراكمية التراثية والحضارية التي بلورت المسار التاريخي والتوجهات الحضارية في هذا المجتمع وترابطه مع المحيط العربي الإسلامي عامة.

ولا يسعنا بهذه المناسبة إلا أن ننوه بالجهد المتميز الذي يقوم به أساتذة معهد التاريخ وإدارته وطلبته من أجل إعطاء المكانة التي ينبغي أن يحتلها تخصص التاريخ بجامعة الجزائر، هذا الجهد المعتبر الذي يتضمن إصدار هذه المجلة، إنجاز عدد من مشاريع البحث في هذا السياق، وتنظيم ملتقيات عن «المدارس الغربية وكتابة التاريخ الجزائري»، و«مكانة المؤرخ في المجتمع الجزائري». ولا شك في أن هذا التوجه هو الذي يشكل نقطة قوة معهد التاريخ الذي نعتز به ومن ثم أحد الأركان البارزة في جامعة الجزائر.

قال تعالى:

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾.

والله ولي التوفيق

د. عزي عبد الرحمن

نائب رئيس الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

الملتقى الوطني لمعهد التاريخ
حول المدرسة الغربية
وقضايا التاريخ الجزائري
المنعقد أيام 10 ـ 11 ـ 12 مارس 1987

شارك في هذا المؤتمر الذي يعتبر أهم تظاهرة علمية لمعهد التاريخ للسنة الجامعية 86ـ87، نخبة من أساتذة معهد التاريخ بجامعة الجزائر ودائرتي التاريخ بجامعتي قسنطينة ووهران. وقد تميز الملتقى بتقديم أبحاث ودراسات قيمة تناولت بالبحث والدراسة القضايا التاريخية التي تتصل بالمدرسة الغربية في مجال التاريخ ونظرتها لماضي الجزائر والحكم عليه.

ونظرا للمستوى العلمي للعروض والتدخلات فإنه يمكن القول بأن هذا الملتقى حقق نجاحا معتبرا لا سيما وانه استقطب جمهورا كبيرا من الأساتذة والباحثين والطلبة والصحافيين. وأثار مناقشات معمقة برز جانب منها على أعمدة الصحافة التي حرصت على نشر العديد من الدراسات التي ألقيت في الملتقى وبث بعض المداخلات عبر قنوات الاذاعة. وتعميما للفائدة ارتأت هيئة تحرير المجلة نشر أهم البحوث والعروض التي تضمنها الملتقى في هذا العدد الخاص.

ومما يلاحظ ان الهدف من هذا الملتقى يتلخص في النقاط التالية:

1 ـ كشف ما أمكن من مواطن الزيف والتعامل في كتابات المدرسة الغربية التي تناولت مختلف جوانب التاريخ الجزائري ومراحله. وذلك بنقدها وتمحيصها، ودراستها دراسة موضوعية، بروح علمية وبطريقة منهجية، غير متأثرة بالمدارس والاتجاهات الأجنبية السائدة. وفي ذلك أحسن تمهيد لإعادة صياغة التاريخ الجزائري.

2 ـ تلمس مدى أهمية الأرشيفات والوثائق التاريخية في إعادة النظر في كتابة التاريخ الجزائري، من وجهة نظر جزائرية بحتة، ومحاولة، تكوين طريقة جزائرية في التعامل مع الوثيقة الأرشيفية، ولا سيا مما وجد منها بالأرشيفات الأوروبية.

3 ـ التعريف بالوثائق الجزائرية المتوفرة بمختلف أنواعها، والتي طالما اغفلت المدرسة الغربية استعمالها، بل كثيرا ما حاولت التشكيك في فائدتها وقبول ما جاء فيها.

هذا وقد انتهى الملتقى الى اقرار توصيات منها:

1) استمرار عقد الملتقى دوريا على المستوى الوطني والعمل على جعله مغربيا ثم دوليا في مستقبل الأيام كلما توفرت الامكانيات.

2) فتح مجال البحث أمام المؤرخين وإتاحة الفرصة أمامهم لنشر أبحاثهم وحماية أفكارهم ونتائج أبحاثهم.

3) إعادة تنظيم وتنشيط المركز الوطني للدراسات التاريخية تحت اشراف وتسيير المؤرخين الجامعيين حتى يقوم بدوره.

4) تسهيل مشاركة المؤرخين في المؤتمرات التاريخية الاقليمية منها والدولية لتظل مساهمة الجزائر ثابتة وحاضرة دائما.

5) تسهيل عملية جلب الوثائق الجزائرية من الخارج عن طريق تسهيل السفر والتصوير..الخ).

6) ضرورة تبادل كتب التاريخ الجزائرية والمجلات مع الخارج.

7) تسهيل الاطلاع على ما ينشر حول الجزائر في الخارج (اشتراك، شراء، الخ..).

8) نشر وإعادة نشر أمهات الكتب التاريخية المتعلقة بالجزائر.

9) ترجمة أمهات المؤلفات الغربية والعثمانية عن الجزائر الى اللغة العربية.

10) إعادة النظر في كتب التاريخ المخصصة للتعليم الأساسي والثانوي بحيث تصفى من المصطلحات والمحتويات الموروثة عن المدرسة الغربية.

11) توضيح وابراز الرؤيا الوطنية والعربية ـ الاسلامية في التاريخ الجزائري في جميع المجالات والمناسبات.

12) متابعة التفسير الغربي للتاريخ الجزائري فيما يكتب الآن ايضا عن الجزائر في المحافل العالمية.

13) عند مناقشة النظرية الغربية في التاريخ الجزائري يجب عدم الاكتفاء بردود الفعل فقط بل يجب تجاوز ذلك الى الفعل نفسه، وذلك بتوجيه البحث وجهة علمية موضوعية.

14) ضرورة اشراف المؤسسات التاريخية الجامعية على اختصاصات التاريخ في سائر المعاهد الجامعية الأخرى، بحيث يكون لمادة التاريخ نفس الاهتمام الذي لسائر الاختصاص.

15) عقد ملتقيات مشتركة مع معاهد العلوم الاجتماعية (علم النفس، الاجتماع، التربية، الآثار، الفلسفة..الخ).

16) ضرورة احترام المقاييس العلمية في كتابة التاريخ، وخصوصا مراعاة المنهجية التاريخية والاعتماد على المصادر.

17) المطالبة بإجبارية التاريخ في البكالوريا وفي جميع الامتحانات المماثلة ورفع المعامل في مادة التاريخ.

18) امكانية عقد ملتقى بيداغوجي بالاشتراك مع أساتذة الجامعات والثانويات لمناقشة طرق التدريس والتأليف التاريخي.

19) منح معهد التاريخ مقرا يتناسب مع توسع نشاطه وأعماله العلمية.

20) احداث مصلحة نشر جامعية متخصصة في نشر البحوث التاريخية.

21) احداث مصلحة نشر للتبادل العلمي مع الجامعات العربية والأجنبية.

22) اعادة تأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية كهيئة لها شخصيتها-العلمية مشتركة بين أساتذة الجامعات الجزائرية.

23) اعطاء الصبغة القانونية لمؤسسات التاريخ في جامعتي وهران وقسنطينة والعمل على ترقية دائرتي التاريخ في وهران وقسنطينة الى مستوى المعاهد الجامعية الأخرى.

24) تمكين الباحثين من الاطلاع على المخطوطات المحلية المتوفرة في المكتبات الخاصة والاستفادة منها.

25) تكثيف الجهود لتنظيم المكتبات العامة وصيانة محتوياتها تسهيلا لمهمة الباحثين في التاريخ.

26) ضرورة اشراك المؤرخين المتخصصين في كل الملتقيات والمؤتمرات المتعلقة بالتاريخ الوطني.



قائمة بأسماء المحاضرين وعناوين بحوثهم التي ألقيت في الملتقى

أ ـ فترة التاريخ القديم:

- محمد البشير شنيتي : **قضية السيادة النوميدية من خلال المصادر القديمة ووجهة نظر المؤرخين الفرنسيين حولها.**
- محمد الطاهر عدواني : **اشكالية التواجد الفينيقي على السواحل النوميدية.**
- حارش محمد الهادي : **سالوستيوس وحرب يوغرطة «دراسة تحليلية نقدية».**

ب ـ فترة التاريخ الوسيط:

- عبد الحميد حاجيات : **الحياة الفكرية والدينية في المغرب العربي من خلال مؤلفات الفريد بيل.**
- أحمد السليماني : **دراسة لستيفانقزال حوْل تاريخ الجزائر القديمة.**
- فخار ابراهيم : **دراسة نقدية لمواقف المدرسة الغربية والمستشرقين من تاريخ الجزائر في العصر الوسيط نموذج: فرنسا ـ المانيا ـ بولونيا.**
- ابراهيم بحاز : **ثورات الخوارج في بداية القرن الثاني الهجري في المصادر العربية القديمة ومصادر المستشرقين. محاولة في فهمها ودراستها ونقدها.**

- محمد بن عميرة : حول منهج كتابة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الفتح الاسلامي لبلاد المغرب.

- فترة التاريخ الحديث :

- مولاي بلحميسي : ملاحظات حول ما كتب في الفترة العثمانية عند الغربيين.
- ناصر الدين سعيدوني : الأرشيفات العربية التركية، والأرشيفات الفرنسية الغربية، دراسة مقارنة.
- عمر بن خروف : نظرة بعض المصادر الغربية لالتحاق الجزائر بالدولة العثمانية.
- فاطمة الزهرة قشي : سجلات العدول مصدر لدراسة التاريخ الاجتماعي في العهد العثماني.
- عائشة غطاس : تقييم بعض المصادر الفرنسية لسياسة الجزائر الخارجية (في العهد العثماني)

- فترة التاريخ المعاصر :

- جمال قنان : مدرسة التاريخ الاستعماري بين الايديولوجية والموضوعية
- سعد الله أبو القاسم : وثائق عن الجزائر في مكتبة جامعة منيسوتا (أمريكا
- يحيى بو عزيز : مزاعم الكتابات الفرنسية تجاه المقاومة الجزائرية.
- محمد العربي معريش : مقارنة بين المصادر الفرنسية في كتابات تاريخ الجزائر والمغرب.
- يوسف مناصرية : مصادر تاريخ الجزائر الحديث في نظر الكاتب الفرنسي فاتان.

- ابراهيم مياسي : دور الأرشيفات والوثائق التاريخية في كتابة تاريخ المقاومة الجزائرية «النصف الثاني من القرن 19».
- سليمان مظهر: حاجة علم النفس الاجتماعي للبحوث التاريخية: ضغط المدرسة الاستعمارية.
- محمد غالم : الوثائق الفرنسية وحركة الهجرة الى الديار الاسلامية. (1890 ـ 1891) دراسة ونقد.
- مصطفى حداد : خوالدية صالح بن عمر أو قضية الانتلجانسيا الجزائرية في بداية القرن الحالي.
- عاشور عبد الصمد : دراسة نقدية للبيبليوغرافيا الاستعمارية عن الأوراس.
- الطيب شنتوف : الدراسات الاستشراقية والمجتمع الجزائري في القرن التاسع عشر.

اشكالية التواجد الفينيقي في المغرب القديم

محمد الطاهر العدواني

تصدير :

في البداية لا بد من تحديد المقصود من اشكالية التواجد، حيث أننا سنتناول من خلاله ـ تحديدا ـ اشكالية تأريخ التواجد وليس التواجد نفسه فتلك مهمة شاقة فنحن هنا نعالج فقط أساليب أو طرق معالجة التواجد معالجة تاريخية على يد المدرسة الكولونيالية.

لقد درجت الدراسات التاريخية سواء منها القديمة أو الحديثة، على استعمال مصطلح التوسع الفينيقي، عندما تتحدث عن تلك الظاهرة التاريخية التي عرفتها منطقة المتوسط الغربية والشرقية أيضا، وهي ظاهرة يمكن أن نطلق عليها «الفينقة» أو «الفينقة» حسب القراءات، أي على وزن الرومنة المستعملة عندنا.

هذه الظاهرة التي نرصدها تاريخيا بانتشار بعض عناصر التجارة وبعض الملامح الثقافية والحضارية الخليطة، والتي يمكن أن نقول عنها والى حد بعيد أنها ملامح حضارية وثقافية مكوّنة أساسا من مجمل العناصر الثقافية لشعوب البحر الأبيض المتوسط وأنها اذا كانت قد أخذت السمة الثقافية الفينيقية فلأن هذه المجموعة الثقافية الفينيقية ـ ولا أقول المجموعة البشرية الفينيقية ـ هي أحسن من استطاع التعبير عنها أو بمعنى آخر : لقد استطاعت هذه المجموعة الثقافية الفينيقية أن

تكون الخلاصة الوسيطة بين مجمل ثقافات المتوسط [1]. علما بأن هذه الوساطة قد امتدت لتشمل مجمل أوجه النشاط المتوسطي الأخرى. ومن ثمة فقد باتت المجموعة الثقافية الفينيقية تشبه الى حد بعيد مجموعة الثقافة الهلينية في المتوسط ذاته والتي حلت محلها شرقي هذا المتوسط في العصور اللاحقة. في التأريخ لهذه المرحلة وفي معالجة هذه الظاهرة استعملت المدرسة الكولونيالية عدة مصطلحات تحمل كل منها دلالة خاصة، سنتناولها بمفردها: أول هذه المصطلحات كان مصطلح التوسع الفينيقي، وسوف نحاول هنا أن نراجع معا صحة استعمال هذا المصطلح ومصداقية انطباقه علميا على هذه الظاهرة التاريخية الحضارية فنراقب معا ما إذا كان هذا المصطلح «التوسع» قد استعمل وما يزال يستعمل في محله أو في غير محله وفيما اذا كان هناك توسع حقيقي أم غير ذلك.

التوسع والتوسعية:

إن مصطلح التوسع مصطلح يحمل دلالة استعمارية لا شك فيها وهو يعني توسع جسم أو هوية ثقافية اقتصادية سياسية محددة المعالم على حساب جسم أو أجسام أو هوية أو هويات ثقافية اقتصادية سياسية أخرى مختلفة ومغايرة للأولى. وان هذا المصطلح وبهذا المدلول لم يُعرف ولم يُستعمل الا منذ القرن الثالث الميلادي في فترة حكم الامبراطور الروماني كلوديوس [2]. ولكن مصطلح التوسع الاستعماري بالدقة لم يبدأ في الانتشار بالفعل الا ابان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. أما مصطلح التوسعية (Expansionisme) فهو لم يستعمل الا في سنة 1922 م)، أي خلال فترة ما بين الحربين العالميتين الأخيرتين أي في قمة تصعيد الصراع الكولونيالي والامبريالي العالمي.

ومن خلال هذه المعطيات التاريخية يتضح الى أي حد يكون اطلاق مصطلح التوسع على هذه الظاهرة الفينيقية وفي هذه المرحلة التاريخية الموغلة في القدم ـ أواخر الألف الثانية وأوائل الألف الأولى ق.م. أمرا غير مناسب من الناحية العلمية، ومن ثمة فهو استعمال في غير محله.

بالاضافة الى ذلك ـ وكما سبق أن بيّنا ـ فان التوسع ضمنا لا بد وأن يكون

عملية تتم إن سلما أو حربا ولكنها في الحالين تكون لحساب المتوسع على حساب المتوسع عليه ونلاحظ في الحالة الفينيقية أن ليس هناك ثمة شيء من هذا القبيل، لانه ليست هناك ثمة هوية ثقافية سياسية فينيقية توسعت على حساب قومية بربرية في حالتنا نحن هنا ان جازت التسمية، حيث يقابلنا في التاريخ وعلى الساحل الفينيقي مدن مستقلة يحكم ذاتها هي ما عرفت في التاريخ بمدن الدولة. وهي مدن ذات هويات ثقافية وسياسية متمايزة عن بعضها البعض خرج منها تجار بحارة يعكس تمايزهم ـ ولا شك ـ تمايز وتباين ثقافات وسياسات مدنهم وكل ما هنالك هو أن هؤلاء البحارة التجار جمعت فيما بينهم ـ في أحسن الأحوال ـ المصالح المشتركة. وعلى الساحل الافريقي كما هي الحال على سواحل المتوسط عموما استقبلتهم هويات ثقافية وسياسية متمايزة هي الأخرى عن بعضها البعض فيما بينها، فما هي متمايزة أيضا في مجموعها معهم، ولكن ربطت بينها وبينهم الرابطة المصلحية المشتركة[1].

في هذه الحال ليس هناك اذن الشروط الاساسية الموضوعية التي تقوم عليها فرضية التوسع لان التوسع المفروض فيه أن يُحدد لحساب من؟ وعلى حساب من؟ وهي الحلقة المفقودة هنا أو الفرضية الغائبة كما يقولون.

اشكالية التواجد الفينيقي:

نأتي هنا الى الشق الثاني من التساؤل أو من الاشكالية المطروحة: هل هناك توسع فينيقي لاستعماري اي ما يمكن أن يكون انتشارا فينيقيا أو بالمعنى الذي طرحناه نحن به تواجد فينيقي؟

تلك هي الاشكالية التي تحتاج الى دراسة وبحث في عمق التاريخ والتي تبدأ من السؤال الأساسي الأول من هم الفينيقيون أولا؟

والسؤال عن الفينيقيين يقودنا حتما الى التعرض لموضوع المصادر التاريخية التي يمكن أن تستقى من خلالها عناصر الإجابة على هذا السؤال من هم الفينيقيون؟

هناك ولا شك ثمة مصادر هامة بالنسبة للدارس والباحث المعاصر، وهي مصادر منها ما لم يستنفذ بعد بالكامل ولا يزال بامكانه أن يقدم الجديد في مجال المعطيات التاريخية وخاصة ما يتمثل في التركة الأثرية للحضارة الفينيقوبونيقية.

ولكن وقبل هذا وذاك لا بد من التعرف أولا على المسرح الجغرافي للمنطقة التي تعاقبت عليها مجريات الأحداث، وسوف نحاول أن ننحو منحى خاصا في التعرف والتعريف بهذه المنطقة (الشرق أوسطية).

مسرح الأحداث شرقي المتوسط بين الجغرافيا والتاريخ:

عادة عندما يتحدث المؤرخون عن فينيقيا والفينيقيين يربطون هذا الشعب بالوطن الذي هو الساحل الفينيقي، ويأخذونه مدخلا جغرافيا لازما للدراسة، غير أننا هنا نريد أن نخرج قليلا عن هذا التقليد، فالساحل الفينيقي لم يعرف قط الاستقلالية عن الرقعة الجغرافية العامة لخريطة الشرق الأدنى القديم، لذلك فأنه من الخطأ فصل هذا الساحل جغرافيا عن محيطه الطبيعي الذي شكّل معه شخصيته الحضارية والتاريخية. فالشرق الأدنى القديم كتلة واحدة من الصعب بل من التجني فصلها عن بعضها البعض كاطار طبيعي احتوى الأحداث.

ولقد كانت بلاد الشرق الأدنى القديم وفي حدودها الممتدة من بلاد النيل الى بلاد الرافدين عبر بلاد الشام محط أنظار الشعوب المجاورة لها من مختلف الأرجاء المحيطة سواء كانت هذه الأرجاء هي جزر البحر المتوسط وسواحله الأوروبية بل وعمق القارة الأوروبية شمالا أم أطراف الصحاري المحاذية لبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين وبلاد النيل جنوبا الى القارة السمراء عبر النوبة والسودان وغربا عبر الصحاري الليبية وحتى جبال الأطلس والمحيط غربا. وكان الدافع الرئيسي في شد أنظار مجمل هذه الشعوب الى بلاد الشرق الأدنى التطلع الى ثرواته وخيراته الوفيرة ومدى ما بلغته شعوبه من رقي حضاري وازدهار ثقافي واستقرار سياسي. ولا شك أن شعوب تلك البلاد المجاورة كانت معذورة اذ جذبتها اشراقات الحضارات الكبرى في المنطقة، كما تجذبنا نحن اليوم اشراقاتها بل وتبهرنا أنوارها في عواصم الدنيا الكبرى. لذلك نرى تلك الشعوب والقوميات المجاورة والبعيدة عن مراكز الحضارة في الشرق قد اندفعت وتدافعت لاحتلال مساحات متفاوتة في الضيق والسعة من رقعة الشرق الأدنى القديم.

من هذه الشعوب والقوميات: السومريون الذين جاءوا في الألف الرابعة ق.م

وما زالت مسألة مجيئهم تطرح التساؤلات العديدة ، وعلى رأس هذه التساؤلات من أين جاءوا؟ ولقد جاءت فيما بعد شعوب وقوميات توزعت فيما بين بلاد النهرين والشام وبلاد النيل، جاءت على شكل موجات هجرة وعلى شكل غزو مسلح وهي هجرات مشهورة في التاريخ معروفة لدى الجميع، منها هجرات العموريين والكنعانيين والحثيين والهكسوس، وهجرات الشعوب الليبية من الصحراء الكبرى وبلاد المغرب واستقرارها غربي الدلتا في وادي النيل، وشعوب البحر التي جاءت على موجات يجدر بنا في هذا المقام أن نتوقف عندها قليلا والتي لم تتوقف بها أمواج الهجرات والغزوات على الشرق الأدنى القديم بل استمرت عبر عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث والمعاصر.

شعوب البحر؟ أم شعوب المتوسط؟

في الربع الأول من القرن الثالث عشر ق.م حدثت هجرات جماعية لبعض الشعوب الشمالية القادمة من البلقان ومن السهول الواقعة شمال البحر الأسود باتجاه شطئان المتوسط. وهي الهجرات التي لا تزال مجهولة الأسباب. ولقد سببت هذه الهجرات الجماعية لهذه الشعوب الهمجية المتبربرة كوارث ونكبات حضارية لا تحصى بمجمل بلاد الجزء الشرقي من المتوسط.

فبعد أن دمر الآخيون في طريقهم مدن بلاد الاغريق نزلت القبائل الدورية المسلحة بالحراب الحديدية الى جزيرة كريت التي كانت قد عرفت ازدهارا ورقيا حضاريا، اقتبست العديد من عناصره ومقوماته من الحضارات الشرقية الآفروعربية (مصر وبلاد الهلال الخصيب ودلتا الرافدين). ولكن بعد أن مرت بها هذه الشعوب الشمالية المتوحشة دمرتها وخربت ما عرف في التاريخ بالحضارة المسينية التي لم تبق منها سوى أطلال قصر كنسوس الشهير. وفرت فلول المنهزمين من شعوب المتوسط شمالا الى الجزر والشطئان المتوسطية جنوبا وخاصة في اتجاه السواحل الجنوبية الغربية للمتوسط، حيث نجدهم وقد شكلوا حلفا عسكريا مع قبائل التمحو والتحنو والليبو وغيرهم من قبائل المغرب القديم وذلك بدءا من السنة الثانية لحكم رمسيس الثاني عام 1297 ق.م. وباتوا يخططون لغزو مصر عسكريا من الغرب. وقد ضم هذا

الحلف المتوسطي الأول الى جانب التحنو والتمحو والليبو والمشواش الذين من المحتمل أن يكونوا هم الأمازيغ فيما بعد، ضم الشكلش الذين يكونون ـ ربما ـ الصقليين والشردن وهي القبائل التي أعطت اسمها الى سردينيا فيما بعد والمكسيس وهم من الاغريق [ه].

ومعلوم أن هذا التحالف العسكري الذي دخل الحرب ضد رمسيس الثاني قد مني بهزيمة منكرة على يد فرعون مصر، ولكن ليس ذلك بالأمر الهام، فالمهم هنا هو استشفاف صور وصيغ التعامل والعلاقات التي كانت قائمة بين مجموع هذه الشعوب بعضها البعض شعوب شمال المتوسط وجنوب المتوسط وجزره. اننا نلاحظ هنا أنه كان يوجد بينها ثمة ترابط اجتماعي بشري وثقافي وحضاري بل سياسي وعسكري متوسطي الى حد ما أو تلك كانت النبضات الأولى لما يمكن أن نسميه مجتمعا متوسطيا، والملفت للنظر حقا في هذه الأحداث هو أن السلطة الفرعونية المنتصرة على هذا الحلف العسكري المتوسطي ضدها نجدها لا تتعامل معه كما لو كان حلفا لأعداء قوميين. فبعد ثلاث سنوات فقط من تلك الأحداث كان هؤلاء المهاجمون لمصر جنودا في جيش الفرعون [د] يحاربون الى جانبه في معركة قادش الشهيرة التي انتصر فيها رمسيس الثاني نفسه على جيش الامبراطورية الحثية التي كانت تنازعه السيادة على منطقة الشام وذلك سنة 1294 ق.م. وخصوصا على ما عرف فيما بعد بالساحل الفينيقي. هذا الساحل ضم خمس مدن اشتهرت عبر الثلاثة آلاف سنة السابقة للميلاد وازدهرت بتعاطيها لأعمال التجارة وبأنها عرفت كيف توظف لعبة التوازن بين الامبراطوريات التي تتنازع السيادة على مجالها الحيوي . وهو الأمر الذي لم يسمح لها قط بالظهور على مسرح الأحداث الدولية كقوة قائمة بذاتها. وقد اشتهر من هذه المدن بطبيعة الحال جبيل وأوغاريت وصور وصيدا على وجه الخصوص.

غير أن هجمات شعوب البحر المتوسط التي توالت بعد معركة قادش. هذه المعركة التي وان هي أنهت الى الأبد السيطرة الحيثية على المنطقة. فهي مع ذلك لم تمنح السيادة المطلقة أيضا لمصر. وعلى العموم فقد توالت كما قلنا بعد ذلك هجمات شعوب البحر ولكن في هذه المرة على الجناح الشرقي للامبراطورية المصرية. وبالذات على الساحل الفينيقي الذي كان تحت سيادتها. فأتت في البداية على الامبراطورية

الحيثية نفسها فأنهتها وذلك سنة 1200 ق.م وأنهت السيادة المصرية في عموم منطقة الشام ابان الهجمة الثالثة والأخيرة عام 1190 ق.م.

هذه الهجات هي التي وضعت حدا لسيطرة الامبراطوريات الكبرى من جهة ومن جهة ثانية هي التي حررت الى حد بعيد المدن الفينيقية واعطتها الدفع الرئيسي للانطلاق نحو الآفاق المتوسطية البعيدة المدى والتي سوف تعرف التطور والازدهار الذي عرفته خلال الألف الأولى ق.م. وهو ما حفظه لها التاريخ لانه هو الذي نقلها من مستوى المحلية الى مستوى العالمية.

وانه لمن المجدي جدا بالنسبة للمؤرخ المعاصر أن يتوقف قليلا عند مغزى ومعنى مثل هذه الأحداث التي شكلت تاريخ البشرية اللاحق، اذ لا شك أن هذا الاختلاط وذلك الانصهار الذي عرفته مجموع شعوب المتوسط منذ الأزمنة الغابرة وفي هذه المرحلة بالذات التي وعتها ذاكرة التاريخ البشري أقول أن هذه الأحداث إنما هي في الواقع تكشف النقاب عن احتمالية حدوث أحداث مماثلة لها في الماضي، أنها تدل على أنه يمكن أن يكون قد حدث هناك ما يشبهها وعلى أنه كانت هناك سابقات لها.

من المؤكد ان ثمة علاقات متوسطية سابقة بين هذه الشعوب هي التي جعلتها تتلاقى وتتفاهم بل تتحالف في أحلاف هجومية عسكرية على مصر وعلى بلاد الشام. وان الطبقات الأثرية لحضارات الشرق الأدنى القديم المتراكمة فوق بعضها البعض منذ أقدم العصور ما قبل التاريخية لتجعلنا نقف أحيانا حيارى مندهشين لشدة ما تبرز من أنماط حضارية غاية في التنوع الثقافي والحضاري وغاية في التباين والتمايز الجوهري والشكلي. ومن ثمة التباين والتمايز في الوحدات والنُسُق الاجتماعية والبشرية يصل الى حد التمايز السلالي الذي يبرز بوضوح من خلال التمايز في السمات والملامح الخلقية الباليونتولوجية، التي تؤكدها الدلالات البنيوية في الهياكل العظمية للأفراد والتي كثيرا ما تحفل بها المواقع الأثرية في تلك الأصقاع الشرق أوسطية. مما يجعلنا نتصور بأن هذه المنطقة من العالم كانت احدى المناطق الأولى التي شكلت البوتقة التي انصهرت فيها الشعوب والقوميات والثقافات المختلفة. التي تميزت بها شعوب المتوسط الشمالية والجنوبية على حد سواء وذلك منذ اقدم العصور في ليل ما قبل التاريخ الطويل[٥].

ولكل ذلك فان هذا الواقع التاريخي للمنطقة وشعوبها يجعل الكلام عن شعب أو عنصر قومي نقي سواء كان ذلك فينيقيا أو عموريا أو كنعانيا أو غير ذلك أمرا يكاد بالكاد أن يكون مستحيلا حتى في تلك العصور الباكرة من فجر تاريخ البشرية.

في ارتباك المؤرخين الأوائل:

لذلك يقابلنا منذ البداية نوع من الارتباك والضبابية في محاولات المؤرخين الأوائل استشفاف أصل الفينيقيين. ويقول هيرودوت (النص): «الفينيقيون ليسوا من أهل البلاد الأصليين، وقد نزحوا اليها من البحر الأرتيري.» ـ انتهى النص. ولكن هيرودوت لا يحدد من أي الضفتين في البحر الأريتري[٦] أي البحر الأحمر، هل هم من الضفة الافريقية أم من الضفة العربية؟

أما سترابون فهو يحاول بطريقة غير مباشرة بأن يقول لنا بأنهم من منطقة الخليج العربي، حيث يورد كلاما يفهم منه ذلك. فحواه أنه لما سئل سكان الخليج عن أصولهم أكدوا بأنهم يسمون أسماء مثل صيدا وصور وآراد، وان المعابد عندهم تشبه معابد الفينيقيين.

أما جوستان فهو عندما يحاول أن يعرفنا بأصل الفينيقيين يذكر بأنهم شعب نزح من بلاده الأصلية، دون أن يسمي هذه البلاد الأصلية. ويقول بأن سبب نزوحهم عن بلادهم هو الزلزال[٥] الذي أفزعهم. ويضيف بأنهم أول ما حطّوا الرحال حطوها على ضفاف دجلة والفرات في بلاد أشور ثم أنهم في مرحلة لاحقة انتقلوا الى شواطئ المتوسط، حيث أقاموا مدينة صيدا.

ولعل القدر الذي أسهمت به مجمل هذه النصوص القديمة في التعتيم والتضبيب أكبر من القدر الذي أسهمت به في التنوير والتوضيح، وهي نصوص ما زالت تثير الكثير من الجدل بين المؤرخين[٥].

والجدير بالذكر أنه من خلال قراءة النصوص التاريخية القديمة اغريقية ولاتينية يتضح أنها قليلة الإفادة بالنسبة لمعرفة أصول الفينيقيين وكذلك بالنسبة لمعرفة مسار الانتشار الفينيقي على شطئان المتوسط. ويوصي معظم المؤرخين المحدثين بضرورة اتخاذ

الحيطة والتزام جانب الحذر لدى استعمالنا لهذه المصادر التاريخية التي خلفها لنا المؤرخون والجغرافيون وحتى الشعراء الاغريق والرومان. ذلك أن الاغريق والرومان كانوا قد دخلوا في منافسة تجارية كبرى ضد الفينيقيين، في شرقي المتوسط بالنسبة للاغريق وفي غربيه بالنسبة للرومان. ولقد تحولت المنافسة بين قرطاج وروما كما هو معلوم الى حرب دموية لم تنته الا بتدمير قرطاج [10].

بالإضافة الى الكتاب الكلاسيكيين[11] هناك مصدر هام في هذا الموضوع اعتمده الكثير من الباحثين الغربيين والمتمثل في الكتاب المقدس، غير أنه من المعلوم أن الكتاب المقدس وان كان يحتوي على العديد من النصوص التاريخية التي قد تفيد البحث في هذا الموضوع وخاصة تاريخ الفينيقيين في الساحل الفينيقي شرقي المتوسط وبالذات تلك المعلومات الغزيرة التي يحفل بها كتاب الملوك وحزقيال، ومع ذلك فانه لا بد من توخي الحيطة والحذر في هذا الشأن. فاستعمال الكتاب المقدس كمصدر تاريخي لا يخلو من المآخذ والمغالطات، لان هذا الكتاب يظهر تحيزه الكامل لبني اسرائيل على حساب شعوب الأرض قاطبة ويظهر مشاعر العداء ضد مدينة صور بالذات. ولا غرابة في ذلك حيث أن أحبار اليهود، عندما أعادوا كتابة نصوص الكتاب المقدس من الذاكرة وهم في الأسر بعد السبي البابلي الذي كانوا عرضة له على يد نبوخذ نصر سنة 587 ق.م. أعادوا الكتابة بطريقة قصدوا من ورائها تكريس روح العداء والكراهية والحقد، فوضعوا ما وضعوا من نبوءات وافتراءات ضد مدينة صور بالذات لذلك فانه من الصعب الاعتماد عليه كمصدر تاريخي. هذا من جهة ومن جهة أخرى فان المؤرخين الغربيين المحدثين أساؤوا استعمال الكتاب المقدس كمصدر تاريخي فبدلا من السعي وراء الكشف عن الحقائق التاريخية بالاستعانة بنصوص هذا الكتاب أصبحوا يبحثون عما يؤكد الروايات التي جاء بها الكتاب ولذا يمكن القول بأن دراساتهم اتجهت اتجاهات دينية أكثر منها تاريخية [12].

وأمام هذا الوضع العام للمصادر تعتبر التركة الأثرية الفينيقوبونيقية من أهم المصادر التاريخية لهذه المرحلة من تاريخ الحضارة في حوض المتوسط. حيث وجدت عدة نصب تذكارية لا يزال البعض منها قائما حتى اليوم وعلى هذه النصب والمعالم الجنائزية وجدت العديد من الكتابات المنقوشة والمحفورة، كما وجدت عدة تدوينات

على التوابيت الحجرية مثل غطاء تابوت الملك حيرام ملك صور وقد نقش عليه نص كتابي يتكون من سطرين.

ولقد حرص العلماء ورجال الآثار على جمع هذه التركة من النصوص الكتابية واستنساخها وحفظها وهي تقارب اليوم الـ 7000 نص مدون تخص مختلف مجالات وجوانب الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها من خصائص الحياة، سواء على المستوى العام أو على المستوى الشخصي الخاص، وبالنسبة لمختلف مناطق وجهات العالم الفينيقوبونيقي.

ويهتم العديد من العلماء حاليا بقراءة هذه النصوص وفك رموزها، نذكر من بينهم على سبيل التخصص بلوخ وسزنيسر. غير أنه يجب القول بأن هذه الدراسات ما تزال في بدايتها أو كما يقول فنطر «ما زلنا في مرحلة فجر تاريخ الدراسات الفينيقوبونيقية»، وهذا صحيح طالما أننا لم نوظف كل الامكانيات المصدرية التي تحتوي عليها التركة الأثرية في جميع جوانبها[13].

ومن خلال هذا العرض الموجز للوضع المعرفي الراهن حول هذه النقطة الهامة التي اعتبرناها أساسية في البحث وهي من هم الفينيقيون أولا؟ حتى نستطيع أن نجزم أو ننفي فكرة التوسع الفينيقي والذي أصبح اليوم على يد المؤرخين الغربيين المعاصرين يسمى الامبريالية الفينيقية، وهو المصطلح الذي سوف نتعرض له في حينه[14].

من خلال ما تقدم اذن نميل الى الترجيح بأنه لم يكن هناك ثمة توسع استعماري أو غير استعماري فينيقي. وأن الهوية الفينيقية وخاصة في بعدها السياسي وكذلك الثقافي، وهذا هو المهم، تعتبر هوية غير محددة المعالم وفي هذا الصدد يقول ج. مازل الذي تتبع رحلة الفينيقيين على طول سواحل المتوسط بحثا ودراسة وتنقيبا وذلك في معرض تساؤله عن الفنون الفينيقية ما نصه: «إذا كان الفينيقيون قد انتجوا قلة قليلة من الأعمال الفنية الخالدة التي كان من الممكن أن تكون تعبيرا صريحا عن الوحدة القومية فاننا لا يجب أن نستغرب ذلك لانه لم يكن هناك بالمعنى الدقيق أمة فينيقية. لقد كانت هناك مدن مستقلة بذاتها بدرجات متفاوتة[15]».

بماذا يمكن أذن، وفي مثل هذا الوضع المعرفي، أن نصف وكيف نصنف ونحدد تاريخيا هذه الحركة وهذه الفعالية الفينيقية في الانتشار عبر شطئان المتوسط؟ من المرجح أننا ما زلنا نجهل الكثير عن كيفيات هذا الانتشار الفينيقي وذلك التسرب

الاستيطاني كيف تم وتحت أية دوافع حقيقية بالرغم من كثرة وجهات النظر في هذا الشأن، كما أننا لا نزال نجهل الكثير عن الفينيقيين أنفسهم.

ولكن يمكننا الركون من الناحية الموضوعية البحتة الى بعض الحقائق والمعطيات التاريخية بخصوص تواجد الفينيقيين على جزر وسواحل المتوسط وخاصة سواحلنا المغربية بدءا من الألف الأولى ق.م. هذا التواجد الفينيقي الذي يثير هو بحد ذاته اشكالية تاريخية جديرة بالدراسة والبحث وتسليط الأضواء. والاشكالية تتمثل في كيفية التواجد هل هو تواجد الفاتحين أم تواجد الخاضعين؟ التواجد في حد ذاته أمر مسلم به ولكن كيفيته هي التي تثير التساؤلات.

ونحن في المغرب العربي تدور في أذهاننا تساؤلات علمية في باب التاريخ وفي هذا الفصل من فصوله على وجه الدقة، تساؤلات وهموم لم يعتن أحد ممن سبقونا بمحاولة الإجابة عليها أو معالجتها. وهذا في نظري أمر طبيعي لان كل مجتمع أو حضارة لا يمكن أن يهتم بقضايا لا تعنيه مباشرة. وان كل معالجة لقضايا معينة لا بد وأن نعالجها من الجوانب التي تهمنا نحن أولا. لذلك فلا لوم على كل المدارس التي سبقتنا في محاولاتها لمعالجة هذا الموضوع من وجهة نظرها، فنحن لا نستطيع أن نكون الا نحن.

ونحن شغلتنا ولا زالت تشغلنا ظاهرة التواجد الفينيقي على شواطئنا، والسؤال الأول الذي يتبادر الى الذهن هو هل يعقل أن نكون نحن في بلادنا وعلى طول سواحلها وشواطئها مغيبين بالكامل الى أن يأتي هؤلاء البحارة التجار لكي يؤسسوا هذه المدن التي ننسبها اليوم اليهم دون أن يكون لنا نحن أي دور في العطاء الحضاري؟ وان كل دور لنا هو دور الاستقبال الحضاري وحتى ذلك الاستقبال أو هذه الاستقبالية أو الاستهلاكية محدودة ومفروضة علينا، هل يمكن أن تكون هذه حقائق تاريخية أم أنها مجرد تصورات تعبر عن أفكار كولونيالية تريد أن توصل فينا الروح الانعزالي والقصور الطبيعي عن التجاوب والعطاء الحضاري؟؟

إن هذه الانشغالات والهموم المطروحة اليوم على الساحة العلمية التاريخية ما تزال محاولات الإجابة عليها متعثرة الى حد بعيد. يقول المؤرخ التونسي محمد فنطر في كتابه (بوغرطة) النص: «ومهما يكن من أمر فالمصادر القديمة يونانية كانت أو رومانية

لا تكفي لدراسة ماضي الأفارقة وحضارتهم في فجر التاريخ؟ فكيف كانوا قبل حلول الفينيقيين بينهم؟» انتهى النص. وذلك هو السؤال الحائر الذي لم يحاول مؤرخونا الإجابة عليه بعد[١٥].

إن هذا الوضع العلمي في تجاهل الحقائق المغربية ليس قديما وحسب في المصادر اليونانية والرومانية بل انه وضع لا يزال قائما حتى اليوم بل والى الغد. ففي أعمال المؤتمر الدولي الثاني لدراسة ثقافات غربي المتوسط والذي عقد في مالطا في مطلع السبعينات أثيرت هذه النقطة بالذات من طرف مجمل الباحثين المهتمين والمختصين. نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: بول البير فيفري، الذي قال في احدى مداخلاته ما معناه: يوجد هنا بالنسبة لتاريخ المنطقة، ويقصد غربي المتوسط، ثمة عائق يوني ـ ان صح التعبير ـ يعمل على اخفاء الحقائق التاريخية للأهالي أي أن انكباب المؤرخين والباحثين على التاريخ القرطاجي والفينيقي جعلهم لا يلتفتون الى تاريخ الشعوب المحلية ـ الأهالي. وانه هو (أي فيفري) يرجح أن تلك الموانئ التي تأسست في العهد الفينيقي انما هي في الواقع موانئ في أساس التجمعات السكانية للأهالي[١٦].

ولقد كانت على العموم اللغة العامة التي تكلم بها مجمل المشاركين في هذا المؤتمر الدولي لغة مماثلة لهذه ان لم تقل مطابقة تماما، دارت كلها حول القواعد البنيوية البربرية للمدن والموانئ والحضارة التي من المرجح أن يكون الوجود الفينيقي قد تأسس فوقها.

وهذا التوجه بالرغم من بريقه ولمعانه فهو لا يعدو أن يكون افتراضات وليس اثباتات علمية أو حتى ما يمكن أن نسميه فرضيات علمية. ولعل هذا التوجه الجديد في نهاية المطاف يحتاج الى أن يؤخذ بشيء من الحذر والحيطة حيث أنه ربما يحمل في طياته بعض الظلال والألوان الخاصة. هنا يجدر بنا التساؤل ما الذي حدث في المدرسة الكولونيالية؟ هل أخذتها الشفقة على تاريخنا فجأة؟ فبدأت ترى بأن التاريخ الفينيقي قد غيبه أم هي تريد أن تراعي المشاعر القومية البربرية فتنسب لها قواعد وبنيات حضارية سابقة للوجود الفينيقي؟ أم هي تتحدث عن حقائق تعرف اين توجد أسرارها؟ أم ان الأمر لا يحمل في طياته أي عنصر للتغيير أو التجديد، وانه متابعة للعزف على النغم القديم بتوزيع جديد كما يقول الموسيقيون؟!

المدرسة الغربية عموما توزعت الأدوار في الواقع منذ نشأتها بل لعلنا نستطيع أن نقول أكثر من ذلك هي لم توزع الأدوار حسب المؤلفين والكتاب بل في الشخصية الواحدة للمؤلف الواحد، وليكن قزال – مثلا – او غوتييه أو كامبس أو حتى فيفري وغيرهم، نجد لديهم اختلاف الألوان والظلال. فعند القراءة المتمعنة لأعمالهم لا نجد حقا من هو ضدنا على طول الخط ومن هو معنا على طول الخط، هناك نوع من التراوح بين الضدية وبين المعية، وهذا ما يوحي للبعض بأن هناك ثمة موضوعية للعمل بل ذلك ما يعطيه مصداقيته وفاعليته وذلك أمر طبيعي لانه في التاريخ مثل ما هو الحال في السياسة ليس هناك أسود وأبيض فالألوان تتدرج بينهما.

ولكن بالرغم من كل ذلك فان المدرسة الغربية الفرنسية خصوصا وفي مرحلة تصاعد المد الاستعماري كانت أعجز من أن تخفض من حدة مشاعرها المعادية لتاريخنا القومي، فعزفت على نغمة الفراغ والقصور الطبيعي عن بناء الحضارة وعن إقامة السلطة المركزية. ودرّست وكرّست مفاهيم التمزق والتشرذم والتبعية للقوى الخارجية كما لو كانت قدرا بالنسبة لنا وحتى لو اقتضى الأمر اختراع هذه القوى الخارجية مثلما هي عليه الحال بالنسبة للفينيقيين وفرض وجودهم تاريخيا كقوة حضارية فاعلة انتشرت في فراغ وخواء حضاري.

وفي مرحلة ما بعد الاستقلالات الوطنية للمغاربة أبقينا نحن المغاربة على نفس المفاهيم الكولونيالية في التاريخ، ومن هنا فنحن في الواقع امتداد لهذه المدرسة، ولكن عدلنا قليلا في بعض التفاصيل عندما اعتبرنا التوسع الفينيقي توسعا غير استعماري لا امبريالي. ما دام قد جاء وقام على فراغ وما دام قد جاء وقام بالتراضي وأخيرا ما دام قد جاء من الشرق مع كل ما يربطنا بالشرق قديما وحديثا من أواصر الأخوة والقرابة[18].

أمام هذا الوضع الذي لم يكن في الحسبان بالنسبة للمدرسة الغربية في التاريخ تغير التوزيع الموسيقي للنغم القديم لكن المعزوفة ظلت كما هي. فإذا كان التوسع الفينيقي بالنسبة اليها قديما قد جاء على فراغ فحمل في مساره اشعاعا حضاريا ورسالة انسانية حيث أنه قام باعباء تمديننا وإقامة المدن والموانئ في عوالم كانت تجهل المدن والموانئ، وأرسى قواعد التجارة ونشر معها عبر موانئه التي أسسها أنوار المعرفة والثقافة. أو ليس الفينيقيون هم الذين نشروا الحروف الهجائية الأولى في العالم؟

كانت هذه بالدقة ادعاءات الاستعمار الفرنسي عندما جاء الى مغاربنا. لقد كان يصور للعالم ولنفسه ولنا نحن بأنه يحمل رسالة التمدين والتحضير أو ما سمي في ذلك الوقت بأعباء الرجل الأبيض. ولكن لما صدم الاستعمار بحقيقته وفجع في شعاراته وادعاءاته عندما تيقن بأنه قام في طريقه تلك بتدمير أجمل المعالم وأرق القيم الحضارية، وانه لم يأت على فراغ مثلما كان يتصور، وقف وجها لوجه أمام جريمته وأمام الادانة الانسانية.

من داخل هذه الجدلية الاستعمارية الحديثة تهتدي المدرسة الغربية للتاريخ أو المدرسة الكولونيالية كما اسميها، الى المنطق الجديد: الفينيقيون أيضا لكي يكونوا توسعيين وامبرياليين لا بد أن يكونوا قد جاؤوا على بنى وقواعد حضارية وثقافية وسياسية، لا بد أن يكونوا قد جاؤوا على حساب هوية قائمة وقومية كائنة ومن ثم يتحملون قدر الادانة، وتتحمل نحن وصمة عار الاستعمار، هم يريدون أن يثبتوا علينا تهمة القصور والعجز الطبيعي، فيقولون لنا كلا لم يأت الفينيقيون على فراغ لم يأتوا كممدنين، أنما جاؤوا على حساب مقومات وجودكم وأنكم استكنتم لهم بالأمس كما كنتم معنا البارحة.

وقبل أن أختم هذه المداخلة التي لا تختم الموضوع، أريد فقط أن أنبه الى أننا هنا لا نريد ولا نهدف بأي حال من الأحوال الى محاكمة المدرسة الغربية أو الكولونيالية في التاريخ أو مهاجمتها والتعدي عليها، فنحن – وأنا أعتقد – أننا جميعا أنا وزملائي المشاركون في هذا الملتقى العلمي لا نحمل أية مشاعر عداء أو كراهية أو حقد على هذه المدرسة مهما كانت اتجاهاتها بل ومهما كانت اتجاهاتها متطرفة ضدنا، فلكل حقه المقدس في ابداء رأيه كما لنا حقنا المقدس في ابداء آرائنا حول تاريخنا وحول تاريخهم أيضا. ولكننا نحن في هذا العمل المتواضع كان همنا وشغلنا الشاغل منذ البداية هو تصحيح مسار التاريخ وتصحيح مناهجه والعمل على تصفيتها وتنقيتها من شوائب الفكر الاستعماري.

المؤرخ الغربي ليس وحده المسؤول كل المسؤولية عن ما يكتب وما يبث من أفكار استعمارية في ما يكتب فهو يكتب بلغة عصره ومشاعر عصره وتطلعات عصره الكولونيالي بالكامل. وهو مسؤول مسؤولية محدودة وليست مطلقة، مسؤول عن

تغييب ذاته وتغييب وعيه بالكامل، ونحن أيضا مسؤولون معه بقدر مسؤوليته، مسؤولون عن ضعفنا وعن خورنا وعن عجزنا وعن سلبيتنا، مسؤولون عن تغيبنا.

وكما نرى فالمسؤولية عن هذا الوضع اللامتكافئ هو مسؤوليتنا جميعا، ومن هذا المنطلق الموضوعي كانت بدايتنا والتي نأمل أن تستمر موضوعية، تتطلع الى آفاق انسانية جديدة ورحبة تتسع لجميع الأمم وجميع الشعوب دون تمييز وبدون تعصب وبدون أحقاد.

الهوامش

(1) الفينيقيون مصطلح اصطلاحي تعارف عليه المؤرخون القدامى والمحدثين. وان هذه الجماعات البشرية (الفينيقية) لم تكن تطلق على نفسها هذا الاسم وانما كانت تعرف بأسماء مدنها: جبيل، صور، صيدا، ارواد، أوغاريت...الخ.

(2) انظر في ذلك قاموس الايتيمولوجي، مادة (Expansion)

Nouveau Dictionnaire etymologique et historique A. Dauzat, J. Dubois, H. Mitterand, 3e édit., Larousse Paris, 1964.

(3) ان موقف المدن الفينيقية لم يكن مستقلا ازاء بعضها البعض بل كان يتميز بالعداء. ففي أثناء الصراع الذي دارت رحاه ما بين المصريين والحيثيين من أجل السيادة وبسط النفوذ على بلاد الشام. كانت المدن تقف مواقف متميزة الواحدة عن الأخرى، بل متواجهة. فمدينة جبيل وقفت مع المصريين ضد الحيثيين بينما وقفت المدن الأخرى مع الحيثيين وكذلك كان الحال مع الآشوريين ومع المقدونيين حيث ان صور مثلا قاومت جيش الاسكندر حتى آخر قطرة من دم آخر رجل منها. أما مدينة صيدا فقد فتحت أبوابها على مصراعيها مرحبة بالفاتح الكبير الاسكندر المقدوني، وأكثر من ذلك قدمت له أسطولها الحربي من سلاح ومراكب ورجال لمهاجمة صور وتدميرها، ثم ان مدينة صيدا نفسها هي التي قادت مقاومة عنيفة فيما بعد ضد الغزو الفارسي وظلت تقاوم حتى آخر قطرة دم من آخر رجل فيها. بينما فضلت صور السلام أو الاستسلام للفرس. لمزيد من التفاصيل أنظر:

Mazel, J.: Avec les phiniciens, Robert Laffont, Paris 1968, p. 66.

أنظر الفصل حول فينيقية في كتاب:

Histoire de l'antiquité sous la direction de Diakov et Kovalev, édt. de progres Mouscou, pp. 190-197.

وكذلك كتاب: Justin, Trogue pompée, T.II Libre XVIII-III. ص 197. L'antiquité

وتاريخ الحضارات العام، جـ 1: الشرق واليونان القديمة. تأليف أندريه ايمار عويدات، بيروت - باريس ط. 1987/2.

(4) محمد الطاهر العدواني، الجزائر في التاريخ، جـ 1: نشأة الحضارة، ص

(5) نقيشة رمسيس الثاني. وهي عبارة عن لوحة ثبتت في جدار معبد ابيدوس وتضمنت قائمة بأسماء الفرق العسكرية، منهم الليبو والشلكش والشرحن وغيرهم.

(6) محمد الطاهر العدواني أنظر في هذا الخصوص الفصل الخاص بالباليونتولوجيا البشرية في كتاب الجزائر في التاريخ، جـ 1 - سبق ذكره.

(7) الزلزال المعروف ربما كان زلزال جزيرة كريت التي حدث في هذه الحدود الزمنية، غير ان كونهم حطوا الرحال بدجلة والفرات يعني أنهم جاؤوا من الجنوب أي بلاد اليمن.

(8) هيرودوت، سترابون، جوستان، ماسبيرو.

(9) مصادفات غريبة تجري في عروق التاريخ ان ما حدث بالأمس في أوج عصور ازدهار الحضارة في الشرق القديم أيام قدماء المصريين ودول بلاد الرافدين وبلاد الشام والساحل الفينيقي القديم، يكاد يكون بالكاد هو ما أعاده التاريخ مرة أخرى في دورة غريبة هي مطلع الألف الثانية بعد الميلاد، إعادة نفس السيناريو باختلافات العصور لما حدث في نهاية الألف الثانية ق.م. أي من 1250 ق.م. فما دون ومن ألف م فما فوق حملات شعوب البحر فيما ق.م، وحملات صليبية فيما بعد الميلاد، ونتائجها تكاد تكون متشابهة بغض النظر عن التدمير والتقتيل والخراب التي تخلفه والحروب، الا أن التلاقح الحضاري والثقافي ونقل الحضارة والثقافة والرقي من مناطق الشرق الأدنى القديم الى آفاق جغرافية وبشرية أخرى في المرة الأولى بالاتجاه لجزر البحر المتوسط وسواحله وشطآنه الغربية والشمالية، وفي المرة الثانية باتجاه عمق القارة الأوروبية ومنها الى العالم الجديد. أنظر بيلوس مازل ص 43.

(10) يقول بلوتارك في معرض حديثه عن الفينيقيين: «انهم شعب تملأه روح التسلط وهو بكل تأكيد خنوع أمام المنتصرين جبار أمام المقهورين. وضيع في حالة الخوف.» لا شك ان كلاما مثل هذا لا يمكن أن نعتد به ولا يمكن أن يعتبر مصدرا تاريخيا نزيها أو موضوعيا. أنظر ج. مازل.

(11) أنظر أعمال الملتقى الدولي الثاني: ثقافات غربي المتوسط، تدخل كل من م. زفرافي، موسكاتي، سزنير، ص 16.

Actes du Deuxième congré International d'études des cultures de la Méditerrannéen Occidentale, T. II, publié par M. Galley, SNED., Alger 1978.

(12) لقد قامت الكتابات الحديثة والمعاصرة على الدراسات التاريخية، واستعملت مناهج النقد والمقارنة والمقابلة والمعارضة من جهة، كما استعملت مجمل التركة الأثرية بما فيها من شواهد وقرائن ونصوص وذلك منذ أوائل القرن العشرين وفي هذا الصدد نكتفي بالاشارة الى فلندرز بتري الذي كان من أوائل الذين قاموا بالحفريات الأثرية 1905. واوليرايت وجيمس هنري برستد والأمير موريس شهاب ودونالد هاردن وموريس دونالد وكلود شيفر وجيلبار شارل بيكار والمؤرخ التونسي محمد فنطر، ومن الجزائريين محمد الصغير غانم، دون أن ننسى بطبيعة الحال سباتينو موسكاتي، الذي يعتبر مرجعا في تاريخ هذه المرحلة الهامة من تاريخ المتوسط.

(13) أعمال المؤتمر الدولي (2) - سبق ذكره، تدخل لوفاك ص 19.

(14) نص مازل.

(15) من الأمور المستغربة في الدراسات الفينيقية هو ان معظم الدارسين الذين اختصوا في هذا الموضوع يبدون اعجابا شديدا بالتجارة والتجار الفينيقيين الذين جابوا معظم أنحاء البلاد في العالم القديم، وخاصة غرب المتوسط وبطروا لهم على أنهم الرواد والمعمرين الأوائل الذين أسسوا المدن والموانئ على شطآن المتوسط وشطآن المحيط

الأطلسي، وليسوا الرواد الأوائل الحقيقيين الذين يبدو لمتبع خطوات الفينيقيين التوسعية خلال الثلث الأخير من الألف الثانية والألف الأولى ق.م. بأنهم تبعوا بشيء من الدقة خطوات شعوب متوسطية سبقتهم في الريادة لهذه المناطق والتي لا نعلم عنها الكثير، هذه الشعوب تركت بصماتها ورموزها الدينية والدنيوية أيضا ونقصد بها المنهير والدولمن والحلوين وغيرها من الشواهد الأثرية التي لا تزال قائمة حتى اليوم على طول شطآن المتوسط وشطآن الأطلسي الأوروبية والأفريقية من السينغال جنوبا وحتى الجزر البريطانية شمالا (مازل ص 95).

(16) قنطر، يوغرطة. أنظر مداخلة مولود معمري، المتوسط، ص 18.

(17) بول الببر فيفري، مداخلته، ص 17. أنظر أيضا مداخلة بيير لوفاك، ص 19.



قضيّة السيادة النوميدية من خلال المصادر القديمة

محمد البشير شنيتي

يحدث أحيانا أن تتحول كتابات بسيطة غير موضوعية مفعمة بالذاتية والتحيز في زمانها الى مستندات وحيدة في موضوع تاريخي حساس، ان سلمت من التلف وبقيت وحيدة في ميدان المعرفة التاريخية. وهذا شأن كتابات بعض من وصفوا بالمؤرخين من أوائل الكتاب الرومان أمثال صلوستيوس وكذا حال بعض كتابات الرواد الأوائل من الأوروبيين في شمال افريقيا، فهي رغم الاتفاق على ضعفها وتحيزها أحيانا، وعدم تخصصها، فأنها أصبحت مستندات فيما بعد. وهنا يكمن وجه الخطورة ويبرز احتمال التزييف والبعد عن الحقائق التاريخية والتحكم في توجيه اهتمام القارئ وتصوره للأحداث وبالتالي تعتيم الرؤيا التاريخية لديه. وهي أمور تدعونا الى أعمال الفكر والتأمل عسى أن نجد سبيلا لرفع الزيف وتوضيح المسلك.

ومما يثير الانتباه بخصوص مملكة نوميديا أن كل ما نعرفه عن هذه الدولة الجزائرية القديمة، مصدره كتابات كلاسيكية يونانية لاتينية، تتركز عند بوليبيوس وأبيانوس اليونانيين، وصلوستيوس وليفيوس الرومانيين. وأن كثيرا من هذه المعارف مختلف فيها بين اليونانيين والرومان، فضلا عن اتصاف الاخباريين اليونان ازاءها بالحياد النسبي والاعتدال في الحكم على قضايا تاريخية هامة فيها، بينما يبرز انحياز الكتاب الرومان وتطرف آرائهم في نفس القضايا.

إن المتمعن في كتابات صلوستيوس وليفيوس مثلا حول مملكة نوميديا وكذا السكان المغاربة بصفة عامة، يدرك أنها لا تختلف كثيرا عن كتابات الفرنسيين حول الفترة السابقة للاحتلال من تاريخ الجزائر أو عن دولة الأمير عبد القادر والمقاومة بصفة عامة. كما يلتمس أن تلك الكتابات (خاصة كتابات صلوستيوس) نابعة من مواقف سياسية لأصحابها، وتعبر بصدق عن انتماءاتهم وتحزباتهم.

إن مملكة نوميديا كيان سياسي قام على أرض الجزائر منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وقد تطورت هذه المملكة خلال القرن الثاني ق.م.، واتسعت رقعتها الجغرافية فشملت معظم بلاد المغرب آنذاك. حيث بسطت نفوذها على البلاد الواقعة بين نهر الملوية وخليج السيرت الكبير شرقا. انها أول دولة في تاريخ الجزائر خاصة والمغرب عامة بلغت ذلك المستوى الرفيع من القوة والازدهار وحازت اعجاب وإشادة المؤرخين المعاصرين لها أمثال بوليبيوس اليوناني غير أن نظرة المؤرخين الرومان لسيادة هذه المملكة وشرعية ملوكها تختلف عن نظرة المؤرخين اليونان وترتب عن هذا الاختلاف الذي لا يستند إلى وثائق ان برزت اشكالية تاريخية حول مدى استقلال المملكة عن الجمهورية الرومانية ابتداء من عام 203 ق.م. وهي السنة التي آلت فيها مقاليد نوميديا إلى يدي مسينيسا عقب هزيمة الملك صفك (سيفاكس) ووقوعه في الأسر.

معروف لدى المهتمين بتاريخ الجزائر القديمة أنه خلال الحرب المعروفة بالبونية وفي جولتها الثانية (218 ـ 202 ق.م.) ان صح التعبير اتخذت دول المغرب من الطرفين المتحاربين (أي القرطاجيين والرومان) مواقف متباينة ومتقلبة أحيانا تبعا لتطورات الحرب ومراعاة لمصالحها وصونا لسيادتها.

وكان لتلك التقلبات أثرها على علاقاتها فيما بينها وعلى أوضاعها الداخلية عموما. كما سعى الطرفان المتحاربان كل من جهته للحصول على أحلاف وخلق جبهة داخلية ضد خصمه. وقد فشلت محاولات الرومان لكسب أعظم ملك وهو صفك الذي انضم الى جانب القرطاجيين بعد فشل مساعيه لإيقاف الحرب بالطرق السلمية (لقاء سيقا بين صدربعل وسيبيون)، فالتجأ الرومان إلى الأمير مسينيسا الذي كان يبحث عن دعم يمكنه من استرجاع مملكة أبيه من أيدي بني عمه المغتصبين.

ولما انتصر مسنيسا على صفك بمساعدة فصيلة من الجيش الروماني قادها ليليوس Laelius وهزم حسبعل بفضل فعالية الفرسان النوميديين بقيادة مسنيسا وتربع هذا ملكا على عرش مملكة أبائه وضم اليها أراضي مملكة صفك ومنحه الرومان تاج النصر مهنئين اياه على النجاح الباهر واعترفوا به ملكا وحيدا على نوميديا، وأجبروا القرطاجيين على التنازل له على ممتلكات أبيه من مدن وأراضي وغير ذلك. ونصصوا على ذلك في معاهدة السلم التي أملوها عليهم عام 202 ق.م.

أما مضمون الاشكالية (أي القضية) فما ذهب إليه كل من صلوستيوس وليفيوس من أن مملكة نوميديا آلت أمورها شرعياً إلى حوزة الرومان بعد هزم صفك وموته في الأسر بروما وأن مسنيسا لا حق له في العرش وأنه لم يكن سوى وكيل لمجلس الشيوخ على هذه المملكة. وأن أبناءه وأحفاده كانوا كذلك أيضاً، ولم يورد هذان المؤرخان مستندات تدعم ما ذهبا إليه في حين أن بوليبيوس وأبيانوس اليونانيين لهما طرح آخر للقضية مفاده أن العلاقة بين مملكة نوميديا وجمهورية روما علاقة حلف وصداقة ولا مجال للتبعية فيها.

وباختصار يقتضيه ضيق الوقت المخصص لهذا العرض أوجز رأي صلوستيوس (86ـ34 ق.م) حول الموضع وهو أول من ادعى تبعية المملكة واختلق حولها ما شاء من روايات وحكايات.

جاء في كتابه المعروف بحرب يوغرطة (Bell. Yujurth) أن نوميديا لم تكن مملكة سوى بالمجاملة وأن وجودها كان وهميا وأن اسمها مدين للشعب الروماني الذي دفعت به الضرورة الى تكليف شيخ قبيلة بتسييرها باسمه فسلمه الحلة الارجوانية وداعيه بلقب ملك، ثم أورد تصريحا نسبه لأذربعل أحد أحفاد مسنيسا قال بأنه ألقاه أمام مجلس الشيوخ بروما جاء فيه:

(أوصاني أبي (مكيبا) وهو في فراش الموت بأنني لا أملك سوى وكالة تسيير المملكة النوميدية، وأن السلطة الشرعية (Jus) في قيادتها تعود اليكم (يقصد مجلس الشيوخ الذي كان يخاطبه أذربعل).

ويعلق صلوستيوس بأن أذربعل لم يكن يمارس سوى سلطة عسكرية وأن السلطة الملكية Regnum هي حق للشعب الروماني وهذا ما يفهم من العبارة التي

نسبها لأذربعل وهي «ان مملكة نوميديا ملك لكم Regnum numidiae quod vostrum est » ومن ثم فان حالة الحرب التي قامت بنوميديا على يد يوغرطة هي تمرد في نظر صلوستيوس وليست نزاعا بين طرفين (نوميديا وروما).

أما ليفيوس (59 ق.م. ـ 17 م) الذي ألف كتابه «تاريخ الرومان» حوالي سنة 20 ق.م. أي بعد صلوستيوس بعشرين سنة تقريبا، فانه لم يخرج عن الاطار الذي رسمه سلفه صلوسايوس بشأن تبعية المملكة النوميدية للرومان وحاول أن يستشف أدلة على ما ذهب اليه من امتناع مملكة نوميديا عن قبول تعويضات بعثت بها روما اليها عن حبوب تلقتها منها اثناء حروبها في اليونان، وأورد ليفيوس تصريحا لابن مسنيسا الذي أوصل هذه المساعدات الى روما جاء فيه بأن أباه (أي مسنيسا) مدين للشعب الروماني ولا يحق له قبول هذه التعويضات (XLV, 13).

وكما تلاحظون فان كلا من صلوستيوس وليفيوس روي خبرا ونسب كلاما لأمير نوميدي أمام مجلس الشيوخ مضمونه اعتراف بالتبعية دون سند تاريخي.

ويظهر أن رأيهما نابع من اعتقاد قائم على فكرة تشريعية رومانية قديمة (القرن الرابع ق.م) مفادها أن البلاد التي هزم فيها الرومان أعداءهم تدخل ضمن مكتسبات الشعب الروماني سواء مارس هذا الشعب حقه عليها بصفة عملية أو أكتفى به نظريا.

وهذا الأعتقاد قد طوره الديمقراطيون المعتمدون على طبقة العوام وممثليها الترابنة (نواب العوام) أواخر العهد الجمهوري، وهي الفترة التي ظهر فيها صلوستيوس، وأصبح يمثل قضية سياسية في أوساط مجلس الشيوخ تمسك بأهدابها المنتمون الى التيار الشعبي (الديمقراطي) المناهض للنبلاء (الارستقراطية) الذين كانوا يرون القضية على وجه آخر وهو حق مسنيسا في وراثة مملكة نوميديا وسيادته عليها بصفة مستقلة عن الجمهورية الرومانية مع الاحتفاظ بالصداقة والتحالف مع روما.

ويدعى صلوستيوس المعبر عن وجهة نظر الديمقراطيين أن مملكة صفك (سيفاكس) أي نوميديا الغربية (مازيصولا) قد أصبحت ملكا للشعب الروماني نتيجة لهزم وأسر ملكها عام 203 ق.م. على يد مسنيسا بمساعدة ليليوس. ذلك أنه بمجرد مشاركة رمزية لجنود رومان في تلك المعركة الفاصلة أكسب الشعب الروماني

حق الانتفاع بأرض المهزومين حسب المفهوم المشار اليه آنفا. لكن ادعاء صلوستيوس هذا الذي بني عليه القول بأن نوميديا كلها وضعت تحت حكم مسنيسا بالوكالة أغفل جانبا هاما، وهو أن سقوط صفك عام 203 ق.م.، حدث ونوميديا مجزأة الى مملكتين كبيرتين: مصولة (نوميديا الشرقية) ومزيصولة (نوميديا الغربية) أولا هما ملك وراثي لمسنيسا والثانية أصبحت في وضع غنيمة حرب له ولحلفائه الرومان، هذا ان أخذنا بمفهوم صلوستيوس.

وساد اعتقاد أكثر تطرفا في أوساط الديمقراطيين بروما روّج له نواب العامة وبعض أعضاء مجلس الشيوخ قلل كثير من دور مسنيسا في الحرب البونية الثانية الى حد القول بأنه لم يفعل أكثر من أنه ساعد الرومان في فتوحاتهم بنوميديا الغربية (مزيصولة) وبذل بعض الجهد في معركة زاما (202 ق.م) ومن ثم استحق عطاء محدودا تمثل في تنصيبه وكيلا على نوميديا يسيرها باسم الجمهورية الرومانية تحت صفة Procuratio.

وفي هذا السياق أورد ليفيوس فقرة من خطبة نسبها لأومين Euméne أحد أعضاء السيناتو قالها عام 189 ق.م.، جاء فيها: «ان مسنيسا قبل أن يكون حليفا لكم كان عدوكم. انه عندما التجأ الى معسكركم لم يصحب معه جيشا تابعا لمملكة قائمة، ولكنه أقبل عليكم كرجل حكم عليه بالنفي والأبعاد... فلم يكفكم أنه انتصب على مملكة آبائه ولكنه أضاف الى هذه المملكة القسم الأكثر غنى من مملكة سيفاكس (صفك)، لقد جعلتم منه الملك الأكثر قوة بين ملوك افريقيا» (Livius, XXXVII, 53,22).

أما رواية بوليبيوس المستندة الى أومين Euméne نفسه، ولبوليبيوس الفضل في تدوينها وقد نقلها عنه ليفيوس بتحريف، فتختلف في صياغة بعض الجمل منها عبارة «جعلتم منه ملكا» الواردة عند ليفيوس التي جاءت عند بوليبيوس «اعترفتم به ملكا» والفرق واضح بين معني «جعلتم منه» واعترفتم به» كما أنه لم يفرق بين مملكة نوميديا الشرقية التي افتكها مسنيسا من أيدي خصومه في البيت المالك وبين نوميديا الغربية التي ضمها الى حكمه بعد قضائه على ملكها صفك (سيفاكس).

ونقل ليفيوس عن بوليبيوس فقرة تضمنت الاشارة الى اعتراف مجلس الشيوخ

الروماني بمملكة نوميديا جاء فيها: «أرسل السناتو بعثة لتهنئة مسنيسا ليس فقط لكونه سيطر على مملكة آبائه ولكن لانه وسعها بضم القسم الأكثر غنى من مملكة صفك».

وبخصوص هذه الشرعية أورد بوليبيوس أن «أهل الماسيل وضعوا بين يدي مسينيسا مملكة آبائه وهم سعداء بأنه سيكون ذلك الملك المرتقب منذ أمد بعيد». ان هذا النص يعبر عن اخلاص النوميديين لمرشحهم وثقتهم في الملك الذي سيعتليه دون اكتراث برأي روما في الموضوع.

ويفهم من بوليبيوس أن مسنيسا ملك حرّ ولكنه صديق للرومان شأنه في ذلك شأن معاصريه من الملوك المتاخمين لحدود الامبراطورية الرومانية، ومن ثم فلا مجال لفكرة العطاء Donatio (أي منحه المملكة من قبل الرومان) التي روج لها صلوستيوس وليفيوس. وفي هذا الشأن جاء عند بوليبيوس أن معاهدة السلم المبرمة بين روما وقرطاجة عقب معركة زاما (202 ق.م.)، تضمنت مصالح المملكة النوميدية كطرف ثالث في النزاع ومنها: ان الممتلكات والحقول والمدن وجميع ما هو بحوزة مسنيسا أو كان تابعا لمملكة آبائه يجب اعادته اليه (XV, 18, 1).

أما أبيانوس فروايته حول الموضوع تجعلنا نستخلص أن مسنيسا دخل الحرب الافريقية (البونية الثانية) كملك نوميدي قوي الجانب، وأنه دخلها الى جانب حليفه سيبيون مخيّرا على رأس جيش من رعايا مملكة أجداده الماسيل. جيش متمرس على فنون وأساليب القتال التي تقتضيها الأرض الافريقية، وأنه دخلها بعبقريته العسكرية واقدامه (الجريء) دون أن يهمل نصائح حليفه سيبيون عندما يكون محتاجا اليها ويعرف كيف يتخلص منها ان كانت تعوقه. وفي هذا السياق يدخل هجومه الانفرادي على خصمه صفك ودخوله مدينة كيرتا وقبضه على سوفونزبة أرملة الملك الأسير صفك وتزوجه منها ثم قتله اياها بدل تسليمها لحليفه سيبيون الذي جد في طلبها. وقد كان هذا الأخير يخشى على مسنيسا من تلك السيدة القرطاجية القوية التأثير فينقلب ضده ويفسد خططه العسكرية في افريقيا التي تضمنها هجومه المعاكس ضد القرطاجيين.

ويقول أبيانوس موضحا تصرفات مسنيسا بأن الجنود الرومان المصاحبين لجيش مسنيسا لم يلعبوا دورا يذكر في المعارك التي دارت ضد صفك. وأن مسنيسا

هو الذي تمكن من الانتصار على عدوه وأسره وأنه قرر ارساله الى حليفه سيبيون بمحض ارادته وليس قائد الجنود الرومان ليليوس Laelius هو الذي أجبره على ذلك، وأن رفضه لتسليم سوفونزبة نابع من كونه اعتبر نفسه صاحب الحق الأول في غنائم المعركة التي انتصر فيها. ولما اصر حليفه على المطالبة بها جرّعها السم بدل وضعها غنيمة بيد سيبيون الذ تفهم تصرف مسنيسا ولم يعاتبه عنه. وأشار ابيانوس الى أن دوافعه للتحالف مع سيبيون لم يكن سوى طموح في الحصول على امبراطورية واسعة الأرجاء ومما يؤكد ذلك أنه كون نوميديا المستقلة حسب تصوره ووفق رغبته. ويبدو أن أبيانوس استخدم وثائق كان بوليبيوس قد استفاد منها قبله ولم يصلنا من ما كتبه حول هذا الموضوع اعتمادا عليها بسبب ضياع أجزاء هامة من كتابه.

هل مارس الرومان حقهم المزعوم في مملكة نوميديا؟

قضية خلافة مسنيسا ومن بعده

ان اختلاف الرأي بين المؤرخين القدامى حول موضوع استقلالية المملكة أو تبعيتها لروما ترك الباب مفتوحا لاجتهادات المؤرخين الحدثين فحاول بعضهم دراسة هذه الاشكالية على ضوء النصوص القديمة واستقراء الأحداث المتعلقة بالعلاقات النوميدية الرومانية، ومنها موقف الرومان من انتقال العرش من ملك هالك الى خلفه، وهل كان لروما دخل في ترتيب أمور الخلافة عند وفاة الملك أم أنها كانت تكتفي بالاعتراف بالوريث مهما كانت مواصفاته؟

الواقع أنه عندما حضر مسنيسا الموت أرسل في طلب القنصل الروماني سيبيون اميليانوس، وكان آنذاك يحاصر قرطاجة (148 ق.م.) ولكن الموت عاجله قبل وصول هذا الممثل الروماني فترك مقاليد المملكة موزعة في الظاهر بين ثلاثة من أكبر أبنائه وهم مكبسا وغلوسا ومستنبعل كما هو معروف، ولما وصل سيبيون المذكور حضر مراسيم توزيع المهام بينهم، ففهم من ذلك أنه وزع السلطة بينهم مما يؤكد مقولة صلوستيوس وليفيوس بتبعية المملكة للرومان.

وهذه الملابسات الناجمة عن سكوت المصادر خاصة المحايدة منها، يجعلنا نبحث عن معطيات أخرى لمزيد من الوضوح. من ذلك أن مسنيسا وضع في اصبع ابنه الأكبر مكبسا خاتم الملك (Gsell. Han., III, 365) إشارة الى أولويته في الخلافة شرعا. لكنه فضل أن يبقي الاعلان عن ذلك الى حين حضور ممثل روما ليشهد الأمر ويعبر عن اعتراف مجلس الشيوخ الروماني بذلك.

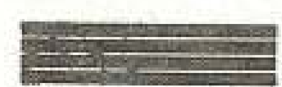
ولا يستبعد أن مسنيسا قد أوصى أبناءه الثلاثة بتقاسم مهام المملكة كل حسب كفاءته واختصاصه. وهو ما وقع فعلا بحضور سيبيون المذكور. حيث استلم أكبرهم المحرز على خاتم الملك من أبيه الأمور الادارية وكلف آخر بالجيش بينما اسندت الشؤون القضائية وغيرها لثالثهم. واذا استرشدنا بالمعلومات المتعلقة بالمهام التي كان يقوم بها كل واحد منهم في حياة والدهم فاننا نجد المهام المسندة اليهم بعد وفاته لا تغاير تلك التي كانوا يمارسونها من قبل. اذ كان مكيبسا يساعد آباه في شؤون السياسة والادارة ويقود غلوسا الجيش ويشرف على الشؤون العسكرية بينما يقوم مستنبعل بالأمور ذات الطابع الاجتماعي والقضائي المتناسب وتكوينه. وهكذا فسواء أوصاهم أبوهم بالاحتفاظ بمهامهم مع طاعة كبيرهم المسلم خاتم الملك أو أنه أبلغ وصيته لممثل حلفائه الرومان لأمر في نفس مسنيسا، فأن شؤون المملكة لم يحدث فيها تغيير بعد وفاته. ثم أن مكيبسا ما لبث أن بقي وحيدا بعد وفاة أخويه ولم يتدخل الرومان في إضافة شخص أو أكثر شريكا له في قيادة المملكة مما يزكي القول باستقلاليتها وبكون القيادة العليا فيها كانت لمكيبسا ولم يكن أخواه سوى مساعدين له.

وإذا رجعنا الى المعطيات الأثرية وعلى رأسها مسكوكات المملكة النوميدية فأننا لم نعثر حتى الآن على قطع تنسب الى غلوسا أو مستنبعل. في حين توجد قطع نسبها المختصون لمكبسا، وهو ما يدل على أنه تمتع بلقب الملك من دون أخويه ، ثم ان النقود الملكية وغير الملكية المنسوبة للمدن العائدة الى تلك الفترة، لا تحمل اشارات يفهم منها أي وجه من أوجه التبعية أو الارتباط بالرومان.

وحاصل القول أن ادعاء صلوستيوس وليفيوس بتبعية المملكة النوميدية لروما مستخلص من رأي عام تكون لدى طائفة من دعاة ضم أراضي الشعوب المجاورة

للمقاطعات الرومانية وهو رأي ساد الأوساط السياسية والشعبية في روما أثناء حرب يوغرطة واستغله بعض أعضاء السيناتو من ذوي الاتجاه المعادي للارستقراطية المسيطرة على هذا المجلس فأوهموا الناس أنه كان على أرباب السلطة في روما ألا يتركوا الفرصة للنوميديين حتى يصبحوا في مستوى الخطر الذي ظهر به يوغرطة على روما وأنه كان يجب على الارستقراطية الحاكمة أن تتصرف بطريقة أخرى تجعل من مملكة نوميديا اقليما رومانيا منذ انتصار الجيش الروماني في افريقيا استنادا الى العرف الروماني القديم.

ولما انتصر الديمقراطيون بزعامة يوليوس قيصر صديق صلوستيوس الحميم كان يجب أن يزيل المملكة النوميدية من الخريطة السياسية بالمغرب وكان على صديقه المنتفع بنعمته (عيّن صلوستيوس حاكما على المقاطعة الرومانية المنشأة على أنقاض مملكة نوميديا عام 46 ق.م.،) أن يبحث عن مبررات لهذا المصير المشؤوم متخذا من ادعاءات أفراد تسوقهم أهواء سياسية وضغائن شخصية مستندات تاريخية لتبرير قرار قيصر باسقاط العرش النوميدي نهائيا بدعوى حق الشعب الروماني في هذه المملكة منذ القدم.



تاريخنا القديم من مرآة الغرب

— عرض ونقـــد —

أحمد السليماني

ان الحديث عن تاريخ الجزائر القديم حديث ذو شجون، ويعاني هذا التاريخ من النقص الملحوظ من ناحية الكتابات الوطنية، مما جعله مرتعا خصبا للأقلام الأجنبية، لتكتب فيه حتى أصبحت أعمالهم وبحوثهم كمراجع يقتدى بها، والواقع المعاش يشهد أنه لا ما فر لنا من العودة الى المؤرخين الأجانب ، لأنهم سخروا كل جهودهم لتدوين تاريخ الحضارة القديمة في افريقيا الشمالية وأثمرت جهودهم [1] عن مؤلفات هامة ذات قيمة نذكر منها على سبيل المثال أعمال ستيفان قزال فقد ألف تاريخ افريقية الشمالية في ثماني مجلدات. وهناك أعمال بالو Balont ، حول الحقبة البونية ثم الحقبة المغربية ثم هناك أعمال قوتية وموسكاتي وستناس الذي خص الحضارة القرطاجنية بدراسات هامة تخص الفخاريات، وكامبس، وبيكار، وشارل أندري جوليان وكل هؤلاء ألفوا كتبا تاريخية وآثارية نفيسة وقد خصص جبريل كامبس Camps كتابا حول الحضارة التي ظهرت في ما قبل التاريخ بافريقية الشمالية والصحراء، ونشر هذا الكتاب بباريس عام 1974؛ ويحتوي على 374 صفحة.

G. Camps, Les civilisations prehistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara, ed. 1976.

وألف ميكوالي وهو مؤلف أنجلو ساكسوني كتابا حول العلاقات ما بين الصحراء المصرية والصحراء الليبية ومنطقة وادي النيل.

Mikwally (M.), History of the relations between the Egyptiagn and the Libyben desert and the Nile valley.

واعتمد المؤرخون الغربيون في كتاباتهم التاريخية عن أفريقية الشمالية والصحراء الجزائرية ولو أن هذه الأخيرة أهتم بها المبشرون والمكتشفون والمغامرون أكثر من المؤرخين والآثاريين المختصين على ما كتبه القدماء من المختصين في التاريخ كالاغريق واللاتين، فوجد الفرنسيون والانجليز والألمان الطريق معبدا نحو كتابة تاريخ افريقية الشمالية بفضل أعمال اليونان والرومان.

فالروايات التاريخية التي تخص ملوك الجزائر القدماء مثل غايسا وماسينيسا ويوغرطة ويوبا الثاني، وحنبعل وتلكفريناس لم تكن هذه الرواية التي ذكرها ستيفان قزال وشارل أندري جوليان من ابداعهم واكتشافاتهم التاريخية بل الفضل يعود الى من سبقوهم، مثل سالوست وتيت ليف وبوليبيوس وأبيان الذين وافوها باخبار تخص حياتهم وأحوالهم وحروبهم وعلاقاتهم الجهوية والدولية.

ولكن تطور علم الآثار قد ساعد المدرسة التاريخية الفرنسية في مهامها ، فنشطت أعمالها بعد احتلال الجزائر عام 1830، وكانت باكورة جهودها المجلة الافريقية التي ركزت على التاريخ الروماني والليبي والبوني والاسلامي وشارك فيها بجانب المؤرخين الفرنسيين المشهورين مؤرخون جزائريون مثل محمد بن شنب عميد كلية الآداب، والحاج الصادوق وبن رحال وغيرهم.

أجل لقد ساعد هذا العلم الجديد (أي علم الآثار في تسليط الأضواء وإزالة الغموض على بعض المراحل التاريخية القديمة بافريقية الشمالية لم تكن لنا معلومات واضحة عنها من قبل. كالعصور الباليوتيكية ، والنيوليتيكية، وبفضل علم الآثار استطعنا أن نتعرف على العصور الحجرية التي ظهرت أثناءها الحضارة الحجرية التي اعتمد ت على الحجارة كأدوات استعملها الانسان في حياته اليومية وتعرض ستيفان قزال الى هذه الحضارة اعتمادا على الحفريات الأثرية في كتابة تاريخ افريقية الشمالية القديم.

وعندما نتحدث عما كتبه المؤرخون الأجانب عن تاريخ الجزائر القديم بل تاريخ افريقية الشمالية القديم بصفة عامة فهذا لا يعني أن الجزائريين لم يساهموا في هذه الكتابة لأن الواقع يشهد أن هناك جزائريون كتبوا في التاريخ الجزائري[3]، ولكن تبقى أعمالهم متواضعة ومحدودة وتفتقر الى العمق «والغزارة» والكشف عن الجوانب التي لم يتعرض لها المؤرخون من قبل.

على كل حال[2] هناك آمال معقودة على النخبة الجديدة من المؤرخين الجزائريين من تغيير الوضع هذا، لأن واقع الكتابة التاريخية في القديم يشكو فقرا كبيرا، ولا غرابة بل ليس من باب السرية أن أذكر ما قاله لي خبير عالمي من منظمة اليونسكو زار الجزائر بمناسبة ملتقى له طابع عالمي، حيث قال: ان الجزائريين لم يكتبوا بما يشفي الغليل عن تاريخهم القديم، فهذه الشهادة لخبير له من الاحصائيات والمعلومات حول ثقافتنا التاريخية في الجزائر يكفينا لتدارك الأمر، فنشمر عن سواعدنا ونهب لكتابة تاريخنا القديم بكل جدية وأمانة وموضوعية. وقد أبلى الجزائريون في علم الآثار والبحث الميداني الآثاري، ولكنهم لم يكتبوا كثيرا في تاريخ الجزائر القديم (كما سلف ذكره. فكما هو معلوم ان الحفريات الآثارية تعد كعلم مساعد للمؤرخ في كشف خفايا بعض الحقب التاريخية لاكمال الرؤيا وتدوين التاريخ وتفسيره كاملا.

ولا أدري ما هو السبب الذي أدى بالجزائريين أن يبرهنوا على حيوية ونشاط وقابلية للحفريات الآثارية التي تعود للعهود الرومانية على الخصوص، بينما يعزفون عن الكتابة التاريخية للجزائر في القديم؟ وتتمثل الحفريات التي قام بها الجزائريون ما بعد الاستقلال في مدة زمانية تتراوح ما بين 1962 و 1977، واكتشفت أثناءها آثار هامة وأنيطت بمصلحة الآثار القديمة بحديقة الحرية بمدينة الجزائر مهمة ضبط وحصر كل الأعمال والأبحاث الآثارية التي جرت في الجزائر، القطر لا المدينة).

أما المركز الوطني للبحث فيما قبل التاريخ والانثربولوجية فاهتم بأعمال التنقيب الخاصة بما قبل التاريخ، ولهذا المركز مجلة ليبيكا التي نشرت فيها نتائج الأعمال والأبحاث الاثارية، وهي مجلة اثارية سنوية، صدر منها حتى الآن ست مجلدات، وهناك مجلة أخرى عنوانها ليبيكا أيضا وهي تختص بالأركيولوجية والايبكرافيا رغم أنها تحمل نفس العنوان والجزائريون المهتمون بالآثار وأعمال التنقيب والمشاركون عمليا في الحفريات، يمثلون نسبة قليلة إذا ما قارناها بمصر، أو سورية، أو تونس، أو

فرنسا، أو الولايات المتحدة الأمريكية. وهؤلاء الجزائريون (باستثناء البعض) ليست لهم تجربة أو تجارب عميقة في البحث العلمي الأثري مع الأسف، ولكن في أواخر الستينات عرف علم الآثار في الجزائر تطورا ملموسا، ففي سنة 1968 و 1969 أشرف جزائريون مختصون على اعمال التنقيب الاثاري بتعاون مع خبراء أجانب لهم صيت على المستوى العالمي، واستفاد الجزائريون كثيرا من الباحثين الغربيين من أجل التعرف على آخر ما وصل اليه العلم الحديث في تقنيات البحث الأثري.

وانصبت أعمال البحث الأثري ما بين 1962 و 1977 أي على مدى 15 سنة حول مواقع أثرية موجودة في تبسة، وسطيف، ولامبيز، وتيديس وتيبازة والناضور، وشرشال، وفرندة (والمقصود بهذه المدينة الأخيرة منطقة مملكة لجدار التي تبعد بضع كيلومترات عن مدينة فرندة)، وسيكا وتميزت البحوث الأثرية بأنواع ثلاثة هي كالآتي:

أولا: بحث أثري أشرفت عليه مصلح الآثار القديمة.

ثانيا: بحوث أثرية أجريت في إطار اتفاقيات بين الجزائر ودول غربية مثل ايطاليا وألمانيا الغربية.

ثالثا: تنقيبات كان الهدف منها إنقاذ آثار بعد اكتشافات تمت عن طريق الصدفة.

ومن الملاحظ أن المؤرخين الغربيين اهتموا كثيرا بهيرودوت، مع العلم أن المؤرخين والعلماء والانجليز سبقوا قزال في دراسة أعمال هيرودوت ونضرب مثلا على ذلك، الألماني بوهر Boher الذي ألف دراسة جادة عن المؤرخين الاغريقيين نشرت في ليبزيغ عام 1856، وهناك دراسة أخرى بقلم ستاين نشرت ببرلين عام 1896، وتوجد دراسة أخرى بقلم المختص الألماني أبيشت Abicht نشرت بليبزيغ عام 1886 م.

وألف الأنجليز دراسة عن هيرودورت في القرن الماضي أشهرها ما كتبه العالي راوليسون وعنوانها تاريخ هيرودورت نشرت عام 1858 ثم في 1860. هذا ويظل المؤرخ ستيفان قزال في طليعة هؤلاء المؤرخين نظرا لأهمية كتاباته وغزارة المادة التي اعتمد عليها. الا أنه لا يخلو في نظرنا من نواقص، فعلى سبيل المثال: طبيعة النظام

السياسي للدولة القرطاجية. فأورده في كتابه تاريخ افريقيا الشمالية القديم أن قرطاج أي قرطحدشت ، أي المدينة باللغة البونية كانت عبارة عن جمهورية ارستقراطية وتجارية كانت تشبه من ناحية نظام حكمها كجمهورية فينيسيا بإيطاليا في عصر النهضة، بينما البحوث أثبتت عكس ما كان يتصوره ستيفان قزال ويتجلى ذلك في نظرية المؤرخ الألماني بيلوش **Beloch** التي يتقبلها المؤرخون المعاصرون بارتياح، وهو يعتقد أن نظام الحكم في قرطاجنة مر بمراحل تاريخية وسياسية حسب أطوار تاريخية واضحة، وهي أول مرحلة للحكم المقدس أو الحكم الملكي، ثم مرحلة الحكم الارستقراطي، وأخيرا مرحلة الحكم الديمقراطي.

وقام ستيفان قزال بمجهود جبار في تعميق وعي المغاربة بتاريخهم القديم واعتمد كما سلف ذكره على أعمال المؤرخين الاغريق الذين كتبوا عن ماضي افريقيا الشمالية في اطار التاريخ الروماني العام ، أي من خلال علاقات الرومان بالليبيين في فترات الاستعمار الروماني لارض المغرب القديم ، أو في اطار دراسة تاريخ العالمي المعروف آنذاك.

وهناك بعض العيوب في كتابات المؤرخين الغربيين حول تاريخ المغرب القديم يمكن أن نجملها فيما يلي:

1 ـ استعمل المؤرخون الغربيون تعابير ومصطلحات لا علاقة لها بالنزاهة العلمية والموضوعية التي يجب أن يتسم بها المؤرخ وكلفظة (بربر) والغزو العربي افريقيا الشمالية.

2 ـ اعتبار أهل المغرب بأنه شعب لم يكن له في القديم أي كيان ووحدة سياسية تجمعه وهذا يعود حسب اعتقادهم الى العوامل الجغرافية والطبيعية التي تحول نحو تحقيق وحدة سياسية واجتماعية بينما الواقع حسب المعطيات التاريخية فان الوحدة السياسية والثقافية تحققت في القديم في عهد ماسينيسا وفي عهد يوغرطة، ثم في العهد الاسلامي أثناء حكم المرابطين ثم الموحدين ، وهذه ظاهرة ايجابية وحدوية تدحض النظرة الغربية حول تاريخ افريقيا الشمالية.

3 ـ تبنى المؤرخون الغربيون ومنهم قزال ستيفان نظريات لها أسس واهية تخص القيم والعادات التي كان عليها المغاربة القدماء التي حسب اعتقادهم لها دور في التاريخ المغربي حتى في العصر الاسلامي ، وقد تبناها بعض الباحثين بدون مراعاة

صدقها أو وجودها فعلا. وقد ذهب في هذا الاتجاه المؤرخ دوتي صاحب السحر والديانة في افريقيا المالية، الى أبعد الحدود، حيث قام بدراسة اجتماعية ودينية للتقاليد المغربية وبنى عليها أفكار لا علاقة لها بأخلاق المغاربة مع العلم أنه كان يخدم بأفكاره هذه الاتجاهات الاستعمارية التي تنفي وجود أي شخصية وطنية للجزائري أو المغربي على العموم.

4 ـ من عيوب الدراسات أنها لم تستطع أن تسبر أغوار تاريخنا من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والحضارية ، والا كيف نفسر عدم تخصيص ولو فصل واحد لتاريخ الجزائر القديم، بل المغرب القديم في تاريخ الحضارات العام الذي يتكون من ثماني أجزاء حول تاريخ العالم وحضارات العالم. وقام بتأليف المجلد الأول أندري إيمار وجانين أبوايه وهو يخص حضارات الشرق القديم وآسيا الصغرى وغير ذلك.

وهذا يدل على روح الاستعلاء الفكري والعرقي المتأصلة عند الفرنسي والأوروبي على العموم، علاوة على روح التعصب للحضارة الغربية والثقافة الغربية ونفس الخطأ وقع فيه ويل ديورانت، وأرنولد توينبي ، الأول صاحب المجلدات ـ قصة الحضارة والثاني صاحب كتاب مختصر دراسة التاريخ في أربعة أجزاء. حيث لم يتطرقوا في مؤلفاتهم لتاريخ وحضارة بلاد المغرب القديم، وكأنها نكرة ولا وجود لها في التاريخ أي الأرض المغربية.

وهناك جانب آخر وهو وجود تفاهم كبير بين المؤرخين الغربيين القدماء والمعاصرين من ناحية نظرتهم الى المغاربة القدماء أي الليبيين، وهذه النظرة لها صبغة احتقارية. فمثلا الثورة التي قام بها المغاربة القدماء في صقلية ضد الاستقراطية القرطاجنية التي تماطلت من تأدية أجور النوميديين ، فقد تم نعت هؤلاء المغاربة بالمرتزقة بكل بساطة وبجرة قلم، واستعمل هذا المصطلح ستيفان قزال وشارل اندري جوليان وغيرهما.

على كل حال فإن النظرة الاستعمارية لتاريخنا القديم في حاجة ماسة الى إعادة نظر وتصحيح وغربلة ، ان صح التعبير، لان هناك مآخذ كثيرة يضيق المقام عن ذكرها بالتفصيل.

هذا ونلاحظ في ختام هذا العرض أنه لا يمكن نكران الأعمال الكبيرة التي قام

بها المؤرخون الغربيون في كتابة تاريخ المغرب القديم وتاريخ الجزائر على الخصوص، ومنهم الفرنسيون مثل قزال وبيكار، وستناس، وفيفري، وأنشائهم مجلات تاريخية علمية لها صيغة حدية مثل المجلة الافريقية وليبيكا وغيرهم.

ولعبت هذه المجلات التاريخية أدورا كبيرة في الكشف عن بعض العصور الماضية من تاريخنا كان يكتنفها الغموض والابهام فأصبحت هذه العصور بعد الدراسات الغربية فيا يسودها شيء من الوضوح وأصبح المؤرخ الجزائري لا غنى عنه للرجوع الى أعمال المؤرخين هؤلاء أي كتبهم ومجلاتهم الصادرة في العهد الاستعماري كوثائق ومراجع ضرورية رغم المظاهر السلبية التي تطبعها أحيانا.

ولا بد أن يتم سد النقص الملحوظ عن طريق تأليف دراسات بأقلام وطنية عن تاريخ المغرب القديم وتاريخ الجزائر القديم، لكي يتم ملء الفراغ الحاصل نتيجة الافتقار الكبير للدراسات التاريخية المعمقة عن تاريخ افريقيا الشمالية قديما وهناك شروط ضرورية لتحقيق هذه الأمنية ويتجلى في فتح قسم خاص باللغات الشرقية القديمة كاللغة الفينيقية واللغة العبرية وكذا دراسة اللغة الليبية القديمة التي لم يتم حتى الآن فك رموزها. ثم لا ننسى أهمية دراسة اللغتين الاغريقية واللاتينية نظرا الى أهميتها في تاريخ المغرب القديم. وقد تم الغاء اللغة اللاتينية من معهد التاريخ أخيرا، ونتمنى أن يتم إعادة النظر في هذا القرار في اطار اصلاح برنامج التاريخ لان الطالب المتخصص في تاريخ المغرب القديم لا بد أن يكون على المام باللاتينية والاغريقية، وحتى اللغات الشرقية لكي يستطيع أن يتعمق في هذا التاريخ.

الهوامش:

(1) لقد وضع الفرنسيون جرداً عاماً لما ألفوه عن الجزائر، فكان نصيب التاريخ القديم 252، وتاريخ الوسيط والحديث 198، والتاريخ المعاصر 369، والمونوغرافيا 129، والبيليوغرافيا 119. وفي عالم الأدب كتب الفرنسيون 241 رواية وقصة و43 مسرحية و100 مقالة نقدية و224 قصيدة شعر و25 بحثاً في الجغرافية و44 دليلاً سياحياً حول عادات الجزائريين، و58 دراسة حول منطقة القبائل، و184 دراسة عن الصحراء.

(2) بدأت تتشكل في الاونة الأخيرة نواة لمدرسة تاريخية تهتم أساسا بما قبل التاريخ والتاريخ القديم (العهود الفينيقية والقرطاجية والرومانية) في مقدمة من ساهموا بكتاباتهم في هذا المجال نذكر: الأساتذة: محمد البشير شنيتي، محمد الصغير غانم، محمد الطاهر العدواني، ميرير شاق، مليكة حشيد، مصطفى فلاح، كلثوم دحو، تومية روبي وغيرهم.

سالوستيوس وحرب يوغرطة
(دراسة تحليلية نقديـة)

محمد الهادي حارش

موضوع ملتقانا هذا ـ المدرسة الغربية وقضايا التاريخ الجزائري ـ ومصطلح المدرسة الغربية مصطلح حديث. وأنا أتناول بالدراسة موضوع «حرب يوغرطة» من وجهة نظر مؤرخ روماني، وبالتالي ربما يتبادر الى الأذهان من الوهلة الأولى أنه خارج موضوع المدرسة الغربية، لكن لو تمعنا جيدا فيا كتبه المؤرخون الاغريق والرومان لا حول المغرب القديم فحسب، بل حول الشرق كلـه، لوجدنا أن المدرسة الغربية حديثة كمصطلح ، وقديمة قدم التاريخ كفكر، وتكفينا نظرة على كتاب بلوتارخوس[1] (الاخلاقيات **Moralia** ، الذي يحتوي على جزء سماه : تحيز هيرودوت (**De malignitate Hērodotis**) اتهم فيه أبا التاريخ بالميل والتحيز الى البرابرة (الشرق) وأتهمه بالاجحاف ، ذلك لانه لم يكن متحاملا على الشرق، بل نقول أنه لم يظهر تحامله على الشرق، وتبجحه في شعوره القومي[2] ، مثله مثل غالبية المؤرخين الاغريق والرومان، خاصة الذين يستهدفون وراء كتاباتهم تمجيد الأمة الرومانية، واظهار قوتها وفضلها، وبالمقابل اعتبار كل الشعوب والأمم الأخرى همجا، لا دين ولا ملة لهم، جبلوا على المكر والخديعة، ونذكر من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال لا الحصر تيتوس ليفيوس وسالوستيوس. وربما كان هذا هو السبب وراء اختياري لكتاب سالوستيوس كموضوع بحث لهذا الملتقى.

والسبب الثاني ان هذا الكتاب، يعد المصدر الأساسي لهذه الحرب، نهلت منه المدرسة الغربية بدون تبصر أو تحليل – عن قصد – في أحيان كثيرة، أو لأنها لم تجد البديل في أحيان أخرى.

أما عن محتوى الكتاب فسالوستيوس يبدأه بمقدمة فلسفية مطولة، تحدث فيها عن الأخلاق والفضيلة والطبيعة البشرية والخير والشر والشهرة والعظمة والمجد والخلود ، والعفة والشرف والاستقامة، ثم عن أسباب اختياره لحرب يوغرطة، ومكانة هذا الأخير ضمن العائلة الماسيلية ، وعن ظروف تبنيه من طرف مكيبسا (مكوسن) ، ثم صراعه مع شقيقيه (بالتبني) اذربعل وهيمبصال، واستيلائه على السلطة ، ثم أطوار هذه الحرب ، ونظرا لسعة الموضوع سأكتفي في هذه الدراسة بتسليط الأضواء على ثلاث نقاط في الكتاب هي:

1 – المقدمة وعلاقتها بموضوع حرب يوغرطة.

2 – فكرة التبني.

3 – فكرة الرشوة، وبسبب تشعب هذه الفكرة وكونها ربما المحور الذي يرتكز عليه الكتاب، اكتفي بمناقشتها في خمس مواضع فقط على أن أعود الى الموضوع في دراسة لاحقة أوسع وأشمل.

1 – علاقة المقدمة بموضوع «حرب يوغرطة»:

يمكننا القول وبدون تردد أن المقدمة التي وضعها سالوستيوس لكتابة «حرب يوغرطة» لا صلة لها بموضوع الحرب ، وأن صلتها بحياة سالوستيوس أوثق وأكبر من صلتها بموضوع الحرب وهو ما سنعمل على تبيانه في الصفحات الموالية ، وذلك بالتعرض الى بعض الجوانب من حياة سالوستيوس والظروف النفسية التي كان يعيشها عندما بدأ في تأليف هذا الكتاب، بعد أن تجاوز الأربعينات من حياة مليئة بالطموحات والانتكاسات.

ينحدر سالوستيوس (كايوس كريسبوس 86ـ35 ق.م.) من عائلة ثرية لكنها تنتمي الى الطبقة العامة، توجه الى روما بحثا عن الشهرة والمجد، وعمل في نفس الوقت على تخليد اسمه[د].

Tous les efforts des hommes doivent tendre à ne pas traversée la vie sans faire parles d'eux»(3).

لكن قبل كل شيء المجد الذي كان يتمناه هو المجد الذي يتمتع به، وهو على قيد الحياة:

«tout homme qui s'ingénie à être superieur aux autres êtres doi faire un suprême effort afin de ne point passer sa vie sans faire parler de lui»(4).

ولتحقيق هذه الرغبة توجه سالوستيوس الى العمل السياسي، ومال الى الديمقراطيين (بحكم انتمائه الطبقي)، وعين محاسبا (Questeur) سنة 55 ق.م.، ثم ممثلا للعامة في مجلس الشيوخ سنة 52 ق.م. لكنه سرعان ما أبعد منه بتهمة اخلاقية سنة 50، وبذلك تحطمت تجربته السياسية الأولى، لكنه بعد سنة يبدأ تجربته الثانية رفقة الدكتاتور (يوليوس قيصر) الذي أعاده الى مجلس الشيوخ سنة 49 ق.م وعيّن محاسبا للمرة الثانية[ه].

وفي سنة 47 ق.م.، عينه قيصر بريتورا (Preteur). وكلفه بتهدئة جنود كامبانيا Campainie المتمردين . لكنهم أساؤوا استقباله. وفي سنة 46 ق.م.، وبعد انتصار قيصر في معركة تابسوس عينه حاكما لمقاطعة افريقيا الجديدة Africa -nova لكن الأمور لم تسر كما كان يتمناها سالوستيوس. اذ أتهم بابتزاز الولاية، ولم يخلصه من التهمة سوى تقديمه مبلغ 1200.000 سسترس لقيصر على ما يذكر ديون كاسيوس[و].

وفي سنة 45 ق.م. عاد الى روما. وفي الخامس عشر من مارس تم اغتيال قيصر، وبذلك غادر سالوستيوس الحياة السياسية دون تحقيق مبتغاه في الوصول الى منصب القنصلية[ز]. ويذكر في هذا الصدد أنه حتى لو عاش قيصر أكثر من ذلك لما تمكن سالوستيوس من الوصول الى منصب القنصلية. بحكم أن قيصر في سنته الأخيرة عندما كان يستعد للذهاب لمحاربة البارثيين Parthes عين القناصلة مسبقا. ولم يكن من بينهم سالوستيوس. وهو ما جعل سالوستيوس يفقد كل الثقة. وقد عبر عن ذلك بقوله: «... ان الشرف لم يعد مخصصا للاستحقاق... البعض وصلوا بالدسيسة . لكنهم لم يجدوا لا الأمن ولا الاحترام. والبعض الآخر وصلوا

بالقوة[8]. كما عبر عن خيبته ونيته في الاقلاع عن العمل السياسي في الفقرتين الثالثة والرابعة من حرب يوغرطة:

«Mais, parmi tous ces moyens les magistratures, les commandements militaires, une activité politique quelconque ne me paraissent pas du tout à envier dans le temp présent, car ce n'est pas le merite qui est à l'honneur.»(9).

«tout jeune encore, à mes débuts, je me suis, comme à peu près tout le monde, jeté avec fogue dans la politique j'y ai éprouvé bien des déboire, au lieu de la reserve, du désinteressement. Ce spectale m'était odieux, car je n'avais pas l'habitude du mal, mais ma jeunesse, séduite par l'ambition, était faible devant de tels vices et m'y retenait et si je n'approuvais pas de mauvaise conduite des autres néanmoins un même desir des honneurs méntrainait et m'exposait comme eux, aux méchants propos et à la haine.»(10).
«Même des hommes nouveaux, qui jadis avaient l'habitude de sur passer la noblesse en vertu, recourent au vol et au brigandage plutôt qu'aux paratiques honnêtes, pour s'élever au commandements et aux honneurs: comme si la préture, le consulat et les autres dignités avaient un éclat et une grandeur propre, et ne tenaient pas le cas qu'on en fait la vertu de leur titulaire. Mais je me laisse aller à des propos trop libres et trop vifs, par l'ennui et le degout que causent les mœurs publiques.»(11).

وأدرك سالوستيوس أن الشهرة والمجد يمكن بلوغها بغير العمل السياسي، فتوجه الى الكتابة:

«On peut conquérir l'illustration par les travaux de la paix comme par ceux de la guerre, et les héros comme leurs historiens sont nombreux à mérites l'éloge.»(12).

كما أدرك أن للكتابة منافع للجمهورية، لا يجنيها العمل السياسي، وبذلك أقلع عن السياسة، وتوجه نحو الكتابة التي اعتبرها تسلية لكنها ذات منفعة:

«Ils ne manqueront pas de penser que j'ai obeï plus à la raison qu'a la paresse en changeant de manière de vivre et que mes loisirs apporteront à la republique plus d'avantage que l'action polkitique des autres.»(13).

Une activité politique quelconque ne me paraissent pas du tout à envier dans le temps présent; car ce n'est pas le merite qui est à l'honneur.»(14).

بهذه النظرة على حياة سالوستيوس وبمحاولة مقارنتها بما جاء في مقدمتي: «حرب يوغرطة» و«انتفاضة كاتيلينا»، نجد العديد من نقاط التشابه بين محتواها وحياة سالوستيوس.

فسالستيوس تحدث في مقدمته لـ«حرب يوغرطة» عن الأخلاق والفضيلة. وأكد عليها في العديد من المواقع. في وقت نجده قد أبعد من مجلس الشيوخ الروماني. بتهمة أخلاقية. وقد قبض عليه متلبسا بجريمة الزنا رفقة «فوستا» ابنة سيلا وزوجة ميلون.

عندما عيّن حاكما لأفريقيا الجديدة أتهم بالاختلاس. ولم يخلصه من التهمة غير تقديمه مبلغا ماليا لقيصر. وهذا ربما ما جعل سالوستيوس يتحدث عن الأمانة والاستقامة. ثم الرشوة لأن سالوستيوس أنغمس فيها.

تحدث سالوستيوس عن امكانية تحقيق الشهرة والعظمة: بعيدا عن السياسة. وهذا بعد أن أرتمى فيها وخاب:

«Tout jeune encore à mes début, je me suis comme à peu près tout le monde, jeté avec fougue dans la politique j'y ai éprové bien des déboires.»(15).
«Une activité politique quelconque ne me paraissent pas du tout à envier dans le temps présent car ce n'est le merite qui est à l'honneur.»(16).

تلك هي بعض الجوانب المتعلقة بحياة سالوستيوس في مقدمته لحرب يوغرطة، ولا نستبعد أن يكون لاختيار سالوستيوس «حرب يوغرطة» علاقة مماثلة، لكن ربما

أقل جلاء. فسالوستيوس مثلا يذكر أن سبب اختياره لهذه الحرب هي: أولا قساوتها وشراستها. لدرجة أن النصر فيها ظل لمدة غير مؤكد. وثانيا لأنه. لأول مرة تسجل مقاومة لاستبداد النبلاء. وهي المقاومة التي أحدثت انقلابا عاما...[17]. ولا نستبعد أيضا أن يكون هذا السبب الأخير هو الدافع الأساسي الى تأليف الكتاب، بهدف مواصلة الهجوم على النبلاء. الذين وقفوا في طريقه وطريق الطبقة العامة في العديد من المناسبات. كما يمكننا أن نشير الى حادثة أبعاده من مجلس الشيوخ الروماني سنة 50 ق.م.. في هذا الوقت الذي أبعد فيه سالستيوس من المجلس كان زميله في تمثيل العامة كيريون Curion يتابع أمام الشعب المطالبة . بسقوط يوبا الأول وحظر مملكته[18]. وفي هذه القضية تجديد لموقف العامة من مملكة نوميديا، هذا الموقف الذي لم يحد عنه سالوستيوس في كتابه «حرب يوغرطة». وهو اعتبار «نوميديا» جزءا من ممتلكات الشعب الروماني.

اذن يمكننا القول أن سالستيوس عندما هم الى تأليف هذا الكتاب. وضع نصب عينيه هدفا لم يحد عنه إطلاقا وهو مهاجمة النبلاء. وابراز دور ممثلي العامة في مجلس الشيوخ. في الدفاع عن الأخلاق والشرف والمصلحة العليا للبلاد أمام النبلاء. الذين لا هم لهم سوى اللهث وراء المصالح الشخصية[19].

2 ـ فكرة التبني:

في معرض حديث سالوستيوس عن ظروف تبني مكيبسا (مكوسن) ليوغرطة. يذكر بعد أن استعرض خصال يوغرطة المتمثلة في حدة الذكاء والشجاعة . أن مكيبسا استبشر خيرا بهذه الخصال بادئ الأمر. لكن تقدمه في السن وصغر ابنيه (اذربعل وهيمبصال) جعله ينقلب على يوغرطة. الذي أصبح يرى فيه خطرا على ولديه. وبدأ يفكر في طريقة تخلصه منه. فكر أولا في اغتياله . لكن خشي أن يتسبب ذلك في ثورة النوميديين[20]، وأعطته حرب نومانس الفرصة لعرض يوغرطة للخطر، فأرسله على رأس فرقة من النوميديين، عساه يذهب ضحية شجاعته واقدامه[21]، لكن «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن». فقد استطاع يوغرطة بما أظهره من فطنة وتواضع أن يكسب ود وصداقة كثير من الرومان، وكذلك ثناء

القائد الروماني سكيبيو ايمليانوس، الذي كلفه ـ بعد هذه الحرب ـ بتبليغ الرسالة التالية إلى مكيبسا:

« ... لقد أظهر يوغرطة في حرب نومانس شجاعة منقطعة النظير، هذه بشرى ازفها اليك، ولا شك أنها ستغمر قلبك بالسعادة، ليوغرطة من الخصال ما جعله عزيزا لدينا، وسنعمل كل ما في وسعنا ليشاطرنا مجلس الشيوخ والشعب الروماني هذا الاحساس، باسم صداقتنا أقدم لك أطيب التهاني ، لك في يوغرطة رجل جدير بك، وجدير بجده مسينيسا...»[22].

بهذا التسلسل قدم سالوستيوس الأحداث بهدف الوصول الى أن هذه الرسالة كانت بمثابة إيعاز من سكيبيو الى مكيبسا بضرورة تبني يوغرطة واشراكه في الحكم، اذ أورد أنه بعد تلقي مكيبسا لهذه الرسالة غيّر رأيه في يوغرطة ، وفورا تبناه ، وأوصى له بالعرش مثله مثل أبنائه:

«Cette lettre lui ayant confirmé ce que le bruit public lui avait appris, Micipsa fut tout troublé à l'idée du merite et du crédit de son neveu, et il modifia sa manière de voir, il s'attacha à dominer JUGURTHA par ses bien faits, l'adopta sans tarder, et par testement fit de lui son heritier, concurrement avec ses fils.»(24).

لكن إذا حاولنا تحليل ما جاء في هذه الفقرة وما بعدها، سنجد أن سالوسيتوس قد وقع في متاهات لا حصر لها:

إذ من المعروف تاريخيا ان مكيبسا توفي سنة 118 ق.م، ويفهم من الحديث الذي دار بين الاشقاء الثلاثة بعد الانتهاء من مراسيم الدفن ، حسب رواية سالوستيوس، ان اقتراح يوغرطة بالغاء كل التدابير والقرارات التي اتخذها مكيبسا في الخمس سنوات السابقة لوفاته، قد أحرز على رضى هيمبصال: «بكل طيبة خاطر، أجاب هيمبصال، بما أن مكيبسا تبناك منذ ثلاث سنوات فقط، ليسمح لك بالوصول الى العرش..»[25]. معنى هذا أن يكون التبني قد وقع على أبعد تقدير سنة 121 ق.م.. لكن سبق لسالوستيوس أن ذكر أن مكيبسا تبنى يوغرطة فور عودته من نومانس، بعد تلقيه رسالة سكيبيو ايمليانوس، لكن اذا علمنا أن حرب نومانس

انتهت بسقوط المدينة في يد سكيبيو سنة 133 ق.م.، [26]. وما دام التبني قد وقع فور عودة يوغرطة من نومانس، فالمفروض أن يكون في ثلاثينات القرن الثاني ق.م. على الأقل، أي باثني عشر سنة تقريبا، وليس بثلاث سنوات قبل وفاة مكيبسا. والخطأ هنا واضح عند سالوستيوس الذي قلص فترة الخمس عشرة سنة التي تفصل بين سقوط نومانس ووفاة مكيبسا الى ثلاث سنوات. ورغم ان قزال [27] يرى ضرورة الفصل هنا بين قرارين، لمكيبسا بشأن يوغرطة: (1) التبني و(2) تسجيله في الوصية كوريث للعرش، يكون بالتالي أحدهما مؤرخاً بـ 133 ق.م.، والآخر بـ 120 ق.م.، لكن نص سالوستيوس واضح لا يحتاج إلى تأويل. وحتى إذا افترضنا هذا التأويل فهو لا جدوى منه لسببين:

1 ـ اذا افترضنا ان التبني حدث سنة 133 ق.م. فهو وحده يمكن يوغرطة من الوصول الى الحكم وفق التقاليد النوميدية، وبالتالي لا حاجة للوصية.

2 ـ اذا افترضنا ضرورة هذه الوصية فيكون أيضا مكيبسا لم يتبن يوغرطة، نزولا عند رغبة سكيبيو اميليانوس، كما يذهب الى ذلك جلّ المؤرخين [28]. لأن هذه الوصية، كما رأينا، تعود الى سنة 120 ق.م. وكان سكيبيو اميليانوس قد توفي منذ تسع سنوات (توفي سنة 129 ق.م.) واعتمادا على هذا هل نستطيع أن نستبعد ما يذهب اليه جلّ المؤرخين من أن مكيبسا تبنى يوغرطة نزولا عند رغبة سكيبيو. اذ واضح أن مكيبسا لم يتبن يوغرطة فور عودته من نومانس، وانما تبناه فعلا عندما اشتد عليه المرض، وشعر بدنو أجله، وهو ما أشار اليه سالوستيوس بقوله:

«Quelques années plus tard accablé par la maladie et les années et sentant sa mort prochaine...»(29).

في خضم كل هذا، هل يمكننا التحدث هنا عن اصلاح اداري قام به مسينيسا، وأراد مكيبسا الاحتفاظ به؟

لا نستطيع الجزم في هذا الموضوع، لكن النقوش توحي بذلك. فقد عثر على نقيشة من نقوش معبد حنحور بمكثر [30]. تثبت أن الحكام الذين حكموا مكثر كانوا ثلاثة لا اثنين، كما هو في قرطاجة. وهذه النقيشة أكدتها شاهدة قبر كنتوس فريوس روقاتوس (Q. Verrius Rogatus) التي تعطي لهذا الشخص لقب

(Triumvir) وقد استمر الحكم في مكثر، في يد هيئة ثلاثية حتى تحويل المدينة الى مستعمرة في عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس (161ـ180م). ومما يلاحظ أيضا ان الاشفاط الثلاثة في النقيشة المذكورة كانوا يحملون أسماء نوميدية. ونعثر على نموذج آخر في الكونفيدرالية الكيرتية [31]، التي كان يحكمها ثلاث ولاة، وهو ما لم يعثر له بيكار [32] على تفسير.

وقد مرت كيرتا بمرحلة الحكم الثنائي [33] (Duovir)، أيام كانت مستعمرة، لكن مع تكوين الكونفيدرالية في أوائل القرن الأول بعد الميلاد، تحولت الى الحكم الثلاثي [34] Triumvir فهل يتعلق الأمر هنا باحياء عادة نوميدية، رغم أننا لا نملك ما يؤكد ذلك بصفة قطعية، غير أن العثور على نقيشتين في سكيكدة [35] فيهما ما يؤكد الحكم الثلاثي في هذه المدينة، وأيضا في ميلة التي أصبح الحكم فيها، بعد الغاء الكونفيدرالية الكيرتية ثلاثيا، كما تؤكد ذلك النقوش [36]. كما تحدثت النقوش عن ولاة ثلاثة في القل [37]. هذا كله إضافة الى اتفاق البونيقيين والرومان في اسناد إدارة المدن الى هيئة ثنائية يجعلنا نرى في الحكم الثلاثي نظاما وتقليدا خاصا بنوميديا.

3 ـ الرشوة :

كتاب سالوستيوس «حرب يوغرطة» مليء بالمواضع التي تحدث فيها عن الرشوة، اخترنا منها خمسة مواضيع للمناقشة والتحليل نوجزها فيما يلي:

1 ـ بعد حرب نومانس وبعد ثناء سكيبيو على يوغرطة على مرأى الجنود الرومان انفرد به ونصحه بتوثيق علاقاته بالشعب الروماني كله، وبيّن له أن العلاقات الشخصية غير كافية ونبهه الى خطورة شراء ما يملكه الشعب كله من أقلية لا ترى سوى مصالحها [38].

2 ـ أثناء الصراع بين يوغرطة واذربعل أرسلت روما وفدا من عشرة أعضاء برئاسة لوكيوس أوبيميوس (L. Opimius) بهدف فك النزاع بين الشقيقين، فتم تقسيم المملكة بينهما، فحصل يوغرطة على الجزء الغربي الأكثر ثراء والأوفر سكاناً بفضل الرشوة التي قدمها للوفد، بينما حصل أذربعل على الجزء الشرقي العديم الفائدة، رغم كثرة المدن والمرافئ [39].

3 ـ لم يحترم يوغرطة أمر التقسيم وانقض على اذربعل وحاصره في كيرتا ، فأرسلت روما وفدا برئاسة سكاوروس (Scaurus)، لكن يوغرطة لم يبال، وواصل زحفه على كيرتا، التي دخلها وفتك بالجالية الايطالية واذربعل ، فثارت العامة في روما، ودعت الى اعلان الحرب. أرسل يوغرطة وفدا الى روما مثقلا بالهدايا والذهب، ليجنب نفسه الضربة الموجهة له، لكن وعلى أثر نزول الوفد النوميدي في ايطاليا، طلب القنصل بستيا من مجلس الشيوخ ان كان من رأيه استقبال مبعوثي يوغرطة في روما، لكن مجلس الشيوخ رد بالرفض، ان لم يكونوا آتين لوضع «المملكة» و«الملك» تحت تصرف الشعب الروماني[40].

4 ـ نزل بستيا في الولاية الرومانية بافريقيا، وبعد أن ضمن التموينات ، توغل في الأراضي النوميدية واستولى على العديد من الأسرى والمواقع ، لكنه باع السلم الى يوغرطة، تحت دعوة يوغرطة الى روما بهدف استنطاقه، لكن بابيوس منعه من الكلام «اللعبة معروفة ـ الرشوة ـ» مما أثار ضجة في مجلس الشيوخ.

ان اغتيال مسيو (Massiva) لم يترك خيارا لمجلس الشيوخ الذي أمر بإبعاد يوغرطة من روما، واعلان الحرب، مع تولي البينوس Sp. Albinus مهام القيادة[41].

5 ـ بعد دخول ميتلوس مدينة «تالة» ومغادرة يوغرطة لها، توجه هذا الأخير الى بلاد الجيتول، حيث جيّش الجيوش، وعمل على استمالة بعض الشخصيات المقربة من الملك الموريطاني «بوخوس» بالهدايا والوعود، وبفضل هذه الشخصيات ، أثر على الملك الموريطاني ، وأقحمه معه في الحرب ضد روما[42].

ففي الموضع الأول يوحي انا سالوستيوس وكأن يوغرطة بدأ يفكر في شراء أعضاء مجلس الشيوخ منذ أيام نومانس، وهو ما نعتبره من الأحكام المسبـ والأغراض التاريخية عمل بها سالوستيوس لتهيئتنا لقبول ما سيأتي من أحكام في هذا الموضوع.

أما ما ذكره في الموضع الثاني حول التقسيم فهو يتنافى والواقع التاريخي، فالمنطقة الشرقية التي اعتبرها سالوستيوس عديمة الفائدة هي أكثر ثراء وأوفر عمرانا في الواقع ، اذ استفادت من وسائل الاستثمار أكثر من المنطقة الغربية، فالمنطقة التي

حصل عليها اذربعل تضم اقليم كيرتا العاصمة الملكية، وعلى احتكاك بقرطاجة، ثم بالولاية الرومانية، وتمتد حتى السرت الكبير وتضم السهول الكبرى وسهول امبوريا والعديد من المرافئ التجارية والمدن الكبرى. خلافا للمنطقة الغربية التي ظلت ولمدة طويلة بعيدة عن مناطق التأثير والاستغلال، ولا نستبعد أن يكون سالوستيوس يضمر سوء نية ، عندما أكد انتفاع يوغرطة من حصوله على القسم الغربي، واخفاء سالوستيوس للحقيقة، يجعلنا نتساءل عن الدواعي الحقيقية التي دفعت وفد العشرة الى منح اذربعل الجزء الشرقي من نوميديا، الا يكون في ذلك ابعاد ليوغرطة الذي لا تطمئن روما الى نواياه، أما أذربعل العائد في الحال من روما بعد أن أكد تبعية مملكته وخضوعه لارادة الشعب الروماني[43] ، فلا خوف منه، ألا تكون هذه القاعدة هي التي تحكمت في التقسيم وليست الرشوة؟ فالمنطقة الشرقية الكثيرة الموانئ والمدن التي تحيط بها الحقول والمزارع كانت تقدم للتجار الرومان مجالا واسعا للنشاط والاستغلال[44] مع ما يوفره لهم اذربعل من حرية التحرك.

إذا كانت هذه القاعدة هي التي تحكمت في التقسيم فلماذا هذا السكوت عنها من سالوستيوس؟ ألا يكون لذلك علاقة بشخص أوبيميوس رئيس وفد العشرة وبأحداث سابقة جرت في روما؟ لا نستطيع الجزم في الأمر، لكننا على علم أن أوبيميوس هذا هو قاتل المصلح الشعبي كايوس كراكوس Caius Gracchus ، وبالتالي ألا يكون أوبيميوس هذا مذنبا على الأقل من وجهة نظر العامة، ويجب الانتقام منه؟! ربما كان ذلك وراء توريطه في قضية الرشوة.

أما في الموضع الثالث فكلام سالستيوس يثير العديد من التساؤلات:

أ ـ يفهم من كلام سالوستيوس أن يوغرطة ارتمى على أذربعل بمجرد ذهاب الوفد الروماني «بعد تقسيم المملكة ، ومغادرة وفد مجلس الشيوخ افريقيا... فجأة هاجم يوغرطة وبفرقة قوية، أراضي أذربعل.»

* «Après le partage du royaume les délegués du senat avaient quitté l'Afrique... brusquement avec une forte troupe JUGURTHA envahit son territoire.»(45).

لكن المعروف تاريخيا أن التقسيم تم أواخر سنة 117 ق.م. والاختلاف بين

الشقيقين يعود إلى سنة113ق.م.من هنا نفهم أن سالوستيوس تجاهل أربع سنوات، ولا نستبعد أن يكون ذلك عن قصد، لماذا؟ لا ندري، لكن ربما ليبين لنا طموح يوغرطة الزائد ولهفته على تلطيخ الشرف الروماني.

ب ـ اذا كان بستيا قد تلقى فعلا تلك الأوامر القاضية بعدم القبول بأي شيء غير خضوع الملك لارادة الشعب الروماني[45]، فقد احترنا لماذا وقّع معاهدة السلم مع يوغرطة وخاصة ان هذه المعاهدة جاءت بعد توغل بستيا في الأراضي النوميدية وبعد أخذ العديد من الأسرى والمواقع على ما يذكر سالوستيوس[46]. في نظر سالوستيوس ـ طبعا ـ يكون بستيا قد فضل المال على الشرف، أما الواقع فغير ذلك، اذ نجد مثلا كاركوبينو[48] يعلل ذلك باعتبارات انتخابية بالنسبة لبستيا. أما بالنسبة لمرافقه سكاوروس فيعلل ذلك ببعد نظره الى ما يترتب عن استمرار هذه الحرب من خسائر، ففضل ـ وفق تعبير كاركوبينو ـ كسبا محدودا على المغامرة في حرب لا يرى لها نهاية، فكان سوق لبدة[49] في نظره يكفي لارضاء الارستقراطية الرومانية.

جـ ـ سكاوروس (Scaurus) المرافق لبستيا والذي قدمه لنا سالوستيوس ثائرا على المرتشين في بداية الحرب، ها هو يتقبل الرشوة، ربما اعتبر هذا أمرا طبيعيا، لكن الغريب ان سكاوروس هذا الذي تقبل الرشوة[50] سرعان ما تم اختياره ضمن الثلاثة المكلفين بالتحري في قضية الرشوة[51] وهو لغز لم نجد له حلا!.

د ـ يذكر سالوستيوس ان دخول يوغرطة كيرتا والفتك بالجالية الايطالية كان وراء دعوة العامة لاعلان الحرب، ولكن الملفت للانتباه ان دخول كيرتا كان في صائفة 112، ولا شك أن الخبر وصل مباشرة الى روما، التي كانت تترقب الأمر، لكنه لم يتسبب في أي رد فعل فوري، والظاهر أن الخبر استقبل بشيء من البرودة واللامبالاة. وكان يجب انتظار نهاية فترة الخريف، حتى يبدأ كايوس مميوس (C. Memmius) في اثارة العامة ضد الرشوة أكثر منها ضد تقتيل الجالية الايطالية، لأننا لا نجد حتى في نص سالوستيوس اشارة الى تقتيل الايطاليين خاصة[52].

أما في الموضع الرابع من مواضع الرشوة فقد قدم لنا سالوستيوس احداثا مهزوزة ومتداعية من عدة جوانب:

1 ـ يوغرطة يضع نفسه تحت تصرف الشعب الروماني، وينتقل الى روما، حيث يرتكب جريمة وعوض الالقاء به في السجن يعد من روما ليعود الى نوميديا ويتولى من جديد قيادة قواته.

2 ـ في الجهة الأخرى القنصل البينوس يجتاز البحر وكله أمل في القضاء على يوغرطة، لكنه يعود الى روما في خريف 110 ق.م.، دون أن يحقق شيئا يذكر، تاركا القيادة لشقيقه أولس (Aulus Albinus)، ونتيجة لتعطل الانتخابات قام هذا الأخير خلال شهر يناير (جانفي) 109 بحملة على نوميديا، وفي سوثل أذاقه يوغرطة شر هزيمة. وعملا على محو اثار هذه الهزيمة، ورد الاعتبار عاد سبيريوس البينوس (Sp. Albinus) الى افريقيا عساه يصلح ما فسد، لكنه لم يجد في افريقيا غير جيش منهار المعنويات، غير منظم وغير قادر على القيام بأي عمل[53]، فعاد سبيريوس ثانية الى روما تاركا القيادة لشقيقه، في هذه الأحداث حادثتان تسترعيان الانتباه:

أ ـ بعد عودة سبيريوس الى روما ترك القيادة لشقيقه أولوس بصفته بروبريتورا (Propreteur) وهي صفة جديدة. وطبيعي أنه لم تكن له مهمة أخرى غير انتظار القنصل الجديد لسنة 109 ليخلفه في شهر يناير (جانفي) لكنه في هذا الشهر بالذات يقوم بحملة على نوميديا!

ب ـ بعد أن تحدث سالوستيوس على تعطل الانتخابات بسبب اثارة العامة لجدال حول القوانين الاساسية يقدم لنا فجأة ميتلوس كقنصل من نصيبه نوميديا، لكن الغريب أننا نجد سبيريوس ألبينوس ما زال يعمل بصفته بروقنصلا وهذا رغم وجود قنصل معين، فجند الفرق وأعاد تكوين جيش افريقيا بمساعدة الحلفاء والايطاليين[54].

وعلى ضوء هذا التناقض يمكننا القول أن الجدال الذي أثارته العامة حول القوانين الأساسية قد تسبب في تعطيل الانتخابات لسنة 109 ق.م. واستمر سبيريوس ألبينوس في منصبه بصفته بروقنصلا. وبهذه الصفة جيش الجيوش وعاد

الى افريقيا. أما انتخاب ميتيلوس كقنصل، فكان لسنة 108 ق.م.، ومما يدعم هذه الفكرة ان حرب يوغرطة تنتهي بالقبض على الملك سنة 105 ق.م.، ووضع قنصلية ميتلوس لسنة 108 ق.م، يتماشى والاحداث التاريخية. اذ من المعروف أن ميتيلوس بقي بافريقيا سنتين[45]. فتكون من وجهة نظرنا سنتي 108ـ107 ق.م. بينما يعين ماريوس لسنتي 106ـ105، وهو ما يوافق ما ذكره فليوس باتركولوس[46] (Velleius Paterculus)، الذي يذكر أن ماريوس عاد في قنصليته الثانية ومعه يوغرطة. واذا أخذنا بتعيين ميتلوس لسنة 109 ق.م. الذي يأخذ به كثير من المؤرخين، يكون ماريوس قد بدأ حملته سنة 107 ق.م، ويكون بذلك قد بقي بافريقيا ثلاث سنوات، وهو ما يتنافى مع ما ذكره فليوس وسالوستيوس .

أما الموضع الخامس والأخير بالنسبة لهذه الدراسة فالواقع أن سالوستيوس ، الذي اعتبر الرشوة السبب الأول في اقحام بوخوس في الحرب ضد روما، قد أشار أيضا الى السهولة التي تم فيها هذا التقارب بين يوغرطة وبوخوس، وذلك لاعتبارين:

أ ـ كون بوخوس قد عرض على الرومان في بداية هذه الحرب التحالف ، ولكنهم رفضوا عرضه.

ب ـ زواج يوغرطة باحدى بنات بوخوس[47]. Bocchus

وقد اعتبر سالوستيوس هذا العامل الثاني غير ذي أهمية، بحكم أن رابطة الزواج عند النوميديين والموريطانيين لم تكن تمتن الروابط العائلية، نتيجة تعدد الزوجات[48] . وهو في رأينا ما يخالف العادات ، فالروابط العائلية كانت دائما من أمتن الروابط عند المغاربة، رغم فكرة تعدد الزوجات التي أشير اليها بعض المؤرخين. ولا نستبعد أن يكون سالوستيوس هنا منطلقا من رؤية الرومان لفكرة تعدد الزوجات، التي لا يحبذونها، بل نقول ينبذونها ويحرمونها، وفي هذا الاطار تتذكر حادثة زواج يوليوس قيصر من كليوباترة، وهو الزواج الذي لم يعترف به المجتمع الروماني، واعتبر ابنها قيصرون ـ فيما بعد ـ ابنا غير شرعي[49] . ومن هنا لا نستبعد أن يكون لعامل الزواج هذا الدور الحاسم في انضمام بوخوس الى يوغرطة، كما تجدر الإشارة أيضاً إلى الكلمة التي ألقاها بوخوس في محضر سيلا حيث قال:

«إنه إذا حمل السلاح، فليس من أجل الاعتداء، لكن من أجل الدفاع عن مملكته... وأنه لا يسمح لماريوس ، أو لأي كان بالاعتداء عليها وتخريبها...»[50] .

تلك اذن هي العوامل التي تحكمت في التحالف النوميدي ـ الموريطاني ـ من وجهة نظرنا ـ وليست الرشوة التي اتخذها سالوستيوس وسيلة لمهاجمة النبلاء عامة واعضاء مجلس الشيوخ خاصة كلما أتيحت الفرصة لذلك.

هذه بعض المآخذ التي رأينا ضرورة الإشارة اليها عند سالوستيوس الذي لم يكن في هذا الكتاب «حرب يوغرطة» مؤرخا فحسب، بل كان أيضا سياسيا يدافع على مصالح طبقته ، وذلك بالكشف عن مفاسد طبقة النبلاء، والتأكيد على انتصار الفضيلة وصفاء الشعب، على نزعة الشر والاثم عند النبلاء، لدرجة أنه يوحي لنا أن الحرب التي خاضها النبلاء بشيء من الفتور لم تنته الا بفضل العامة التي عملت حتى أوصلت رجلا جديدا ـ ماريوس ـ رغما عن ارادة النبلاء، وهو الذي دفع الحرب الى نهايتها والقبض على يوغرطة، كما يمكننا القول أن الصراع بين النبلاء والعامة كان وراء اختيار سالوستيوس موضوع «حرب يوغرطة» بهدف ابراز الصراع القائم آنذاك في روما ودور العامة فيه، وهو الصراع الذي كانت له تأثيرات على العالم غير الروماني، وهي تأثيرات ناجمة ـ من وجهة نظرنا ـ عن اختلاف مصالح الطبقتين، حتى أنه يحق لنا أن نتساءل ان لم تكن هذه الحرب نتيجة لهذا الصراع، خاصة واننا عرفنا أن دخول يوغرطة كيرتا، الذي اعتبره سالوستيوس السبب المباشر لهذه الحرب، كان في صائفة 112 ق.م لكن الاعداد للحرب لم يبدأ الا في أواخر هذه السنة ، ولم تبدأ الحرب فعلا الا في ربيع سنة 111 ق.م.

ومما لا شك فيه ان سالوستيوس كان عارفا بأصول النزاع الطويل بين نوميديا وروما، والغريب أنه حضر المداولات التي كانت تطالب في سنة 50 ق.م، بالحاق نوميديا بالمتلكات الرومانية[51] ، في وقت اعتبر فيه نوميديا ـ في كامل كتابه ـ جزءا من المتلكات الرومانية من وجهة نظر أسلافه لسنة 110 ق.م.، فاذا كانت كذلك منذ سنة 110 أو قبلها فلماذا المطالبة بحظرها سنة 50 ق.م.،؟

ومع هذه المآخذ وغيرها والتي تدفعنا الى أخذ الكتاب بحذر شديد ينفرد سالوستيوس عن المؤرخين الرومان، باقلاعه عن طريقة الحوليات ، وتوجهه الى

كتابة بحوث مطولة في موضوع واحد، هذا إضافة الى الصياغة اللغوية الجيدة، وهو ما جعل تاكيتوس يلقبه بـ «المعلم» .

الهوامش:

(1) PLUTARQUE, De la malignité d 'Herodote, dans : æuvres morales, t. 4, pp. 209-260.

(2) جورج سارتون، تاريخ العلم، الجزء الثاني، ص 158، دار المعارف، ط 2 1970.

(3) سالوستيوس، كاتيلينا، 3.

(4) المصدر نفسه.

(5) جرت العادة في روما أن العودة الى مجلس الشيوخ بالنسبة لضحايا صرامة المراقبين أن يكلفوا بمهام أدق من التي كلفوا بها سابقا أو مساوية لها. مثل هذه الحالة التي عين فيها بنفس المنصب للمرة الثانية.

(6) Dion Cassius, XLIII, 9.

(7) Of. Richard (F.), p. 14 de l'introduction de sa trad. de la conjuration de catilina et la guerre de JUGURTHA, éd. G.F., 1968.

(8) سالوستيوس، (حرب يوغرطة) 3.

(9) يقصد في الحالة الأولى الارستقراطية وفي الثانية قيصر.

(9) مكرر ـ سالوستيوس، حرب يوغرطة، 3.

(10) نفسه، كاتيلينا، 3.

(11) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 4.

(12) نفسه، كاتيلينا، 3.

(13) نفسه، حرب يوغرطة، 4.

(14) نفسه، 3.

(15) نفسه، 3.

(16) نفسه، حرب يوغرطة، 3.

(17) نفسه، 5.

(18) Cesar, Bell AF., II, 25 et Dion Cassius, XLI, 41, 3.

(19) أنظر الفقرة 31 من حرب يوغرطة على سبيل المثال، حيث يعمل سالوستيوس على ابراز دور ممثل العوام «كايوس ممبوس» في الدفاع عن المصلحة العليا للبلاد والعدالة... والنبلاء يرتشون (الفقرتان 32ـ33 وفي غيرهما).

(20) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 6.

(21) نفسه، 7.

(22) نفسه، 9.

(23) نفسه، 9.

(24) نفسه، 9.

(25) نفسه، 11.

(26) ستيفان قزال : (26) cf. Gsell, H.A.A.N, T 7. p. 140.

(27) نفسه، ج 5، ص 52، رقم 1، وج 7 أ 141، رقم 1.

(28) أنظر قنطر (محمد) يوغرطة ص 121. دار التونسية للنشر 1970 م.

(29) سالوستيوس،

(30) cf. Gilbert-Charles Picard Civitas mactritana, in Carthago, t. 8 1957, pp. 7-75 (p. 39),

(31) Picard (G. ch.) op.cit., p. 40, N° 133.

(32) C.I.L., VIII, 1, p. 618.

(33) Vars (Ch.), Recherches archéologique sur Cirta (2è partie) (Organisation administrative de Cirta Rec. de Constantine, t. XXIX, 1894, pp. 281-534 (p. 311) et Gsell, Atlas archéologique de l'Algérie pl. 17, pp. 11-13.

(34) C.I.L., VIII, 1, N° 7990 et 7991.

(35) C.I.L., VIII, 1, 8210 et Gsell, Atlas, pl. 17, p. 3, N° 59.

(36) C.I.L., VIII, 1, 6710, 6711, 6958, 7097, 7098, 7125, 8195.

(37)

(38) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 8.

(39) نفسه، 16.

(40) نفسه، 23.

(41) نفسه، 33ـ36.

(42) نفسه، حرب يوغرطة، 80.

(43) نفسه، 14.

(44) تحدث سالوستيوس عن هؤلاء التجار ودورهم في الدفاع عن كيرتا، حتى لا تسقط في يد يوغرطة، وربما كان هذا دفاعا في الواقع عن مصالحهم حتى لا تقع في يد يوغرطة، (أنظر الفقرة 26 من حرب يوغرطة لسالوستيوس).

(45) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 22.

(46) نفسه، 28.

(47) نفسه.

(48) Carcopino (J.) Histoire de la republique Romanie, p. 294.

(49) تنص المعاهدة الموقعة بين بستيا ويوغرطة على سيادة يوغرطة على كامل نوميديا ما عدا مدينة لبدة التي طلبت في بداية الحرب الانفصال عن يوغرطة وفق ما أورده سالوستيوس في (حرب يوغرطة).

(50) سالوستيوس-حرب يوغرطة، 29.

(51) نفسه، 40.

(52) نفسه، 26.

(53) نفسه، 37ـ39.

(54) نفسه، 29.

(55) يعد انتهاء قنصليته اقره مجلس الشيوخ في منصبه بصفته قنصلا مساعدا (بروقنصلا)، رغما عن إرادة العوام، الذين كانوا يساندون مساعده ماريوس على ما يذكر سالوستيوس (الفقرة 73 من حرب يوغرطة).

(56) Velleius Paterculus, II, 12.

(57) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 80.

(58) نفسه.

(59) في هذا الإطار أيضا نذكر اعتبار سالوستيوس ليوغرطة أبنا غير شرعي لمصطبعل لانه ربما لم يكن من زوجته الأولى، فكان من عادة هؤلاء المؤرخين للاحداث بمنظور المعتقدات والتقاليد الرومانية، وهنا يكمن الخطأ.

(60) Sallustius, Bell. Jug. 102.

(61) وضع كيريون ممثل العامة لسنة 50 ق.م. مشروعا يطالب فيه باسقاط يوبا الأول وحظر مملكته. أنظر قيصر، الحرب الافريقية الفقرة 2، 25، ديوم كاسيوس XLI ـ 3.41.

موقف المدرسة الغربية من تاريخ الجزائر في العصر الوسيط

عبد الحميد حاجيات

نظرا لسعة الموضوع، يقتصر حديثنا على معالجة بعض المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر في العصر الوسيط، فيما يخص بعض القضايا الجوهرية.

يختلف موقف هؤلاء المؤرخين حسب اتجاههم السياسي أو العلمي. فبينما نجد نزعة تشويه تاريخ الجزائر جلية واضحة عند ضباط الجيش الفرنسي الذين اشتغلوا بالتاريخ، نلاحظ أن المؤرخين الجامعيين أظهروا الالتزام بالمنهجية العلمية، ولكنهم لم يسلموا من تأثير نظريات مؤرخي الاستعمار، أما رجال الدين المسيحيون، فإنهم لم يتخلصوا من نزعتهم البشرية، ولم ينسوا، في يوم من الأيام، عداء أسلافهم الصليبيين للإسلام.

أما الطرق التي استعملها المؤرخون الفرنسيون لتشويه تاريخ الجزائر، فهي متنوعة . والجدير بالملاحظة أن الكثير منهم اغتنموا فرصة قلة المعلومات بالنسبة للفترات القديمة، فسمحوا لأنفسهم بتقديم افتراضات، معتمد على أدلة واهية، وموجهة كلها نحو تمجيد حضارة اليونان والرومان، واستنقاص الإسلام والعرب.

ومن الطرق التي انتهجها المؤرخون الغربيون، الاعتماد على المصادر العربية القديمة، وقبول كل ما ورد فيها من قصص وأساطير، واحلال ذلك محل الحقيقة

التاريخية، مخلّين بذلك بأبسط قواعد المنهجية العلمية السليمة، التي تدعو الى نقد المصادر عند استعمالها. وقد دعا ابن خلدون منذ ستة قرون، الى ذلك في بداية مقدمته الشهيرة، وذكر أمثلة لمبالغة المؤرخين القدماء ولما ورد. في تآليفهم من أخطاء. ولم يتحرج المؤرخون الغربيون من ايراد الأخبار الرامية الى الاساءة بالعنصر العربي التي روّجتها الشعوبية، في كثير من الأحيان.

وقد نتج عن ذلك أن ما كتبه المؤرخون الفرنسيون عن تاريخ الجزائر في العصر الوسيط يحمل طابع التعصب والتحيّز، مما يجعلنا لا نطمئن لآرائهم حول القضايا الجوهرية، ويدعونا الى اعادة كتابة تاريخنا. ونشتم رائحة العداء للعرب والإسلام كلّما تعلّق الأمر بحادث يحتل مكانة هامة في تطور بلادنا السياسي والحضاري، فترى تأويلهم للأخبار يحاول دائما أن يقلّل من شأن ذلك التطور. وهذا يلاحظ مثلا في معالجتهم للفتح الاسلامي ولموقف الأهالي منه، وفي تطرقهم للتطور المذهبي والحياة الفكرية في مختلف الفترات ، وللصراع الذي خاض غماره المسلمون ضد المسيحية والصليبيين، وغير ذلك مما يطول سرده.

حول منهج كتابة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

محمد بن عميرة

ان موضوع «منهج كتابة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الفتح الاسلامي لبلاد المغرب» يقتضي الرجوع الى أعمال هؤلاء الفرنسيين الذين كتبوا عن الفتح الاسلامي لبلاد المغرب مع استخدام المصادر الأساسية التي استفاد منها هؤلاء المؤرخون أنفسهم مثل:

- فتوح مصر والمغرب وافريقية والأندلس، لابن عبد الحكم.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي.
- الكامل،في التاريخ لابن الأثير.
- كتاب العبر، لابن خلدون (عبد الرحمن)
- المؤنس في أخبار افريقية وتونس، لابن أبي دينار.

وجمعت كل ما ورد فيها في موضوع الفتح ثم صغته في نص واحد متكامل.
كما انتقيت أيضا عددا من أهم المؤلفات الفرنسية التي أهتمت بنفس النقاط وهي:

Terrasse (H.) : Histoire du Maroc. T I-II.
Julien (Ch'A.) : Histoire de l'Afrique du Nord.T.II.
Gautier (E.F.) : Le passé de l'Afrique du Nord.
Marçais (G.) : La Berbere Musulmane et l'Orient au moyen-âge.

Maucier (E.) : Histoire de l'etablissement des Arabes dans l'Afrique septentionale.

ثم قمت بعمل مماثل للأول وأخيرا لجأت الى المقارنة بينهما مسلطا الأضواء على الجديد الذي جاءت به قرائح أصحاب هذه المدرسة. وأول ما لفت نظري في هذا الصدد أن بعضهم[1] تطرق عكس المصادر العربية الى أسباب الفتح وحصرها.

أولا: في تردد «الاسلام» أمام شساعة آسيا الوسطى أو الهندية وتعثره أمام الحاجز البيزنطي بالناحية الشمالية الشرقية، مما جعله يبحث في جهات أخرى عن فتوحات جديدة.

ثانيا: في انتقال الخلافة الى الأمويين ونقل مقرّها الى دمشق حيث أن هذين الحدثين جعلا الإسلام في مدرسة سوريا (القديمة)، يجمع تدريجيا إرث العالم الهليني. ثم انقلب التفوق الحضاري الذى كانت سوريا تنعم به منذ عدة قرون في عالم البحر الأبيض المتوسط، إلى تفوق سياسي. فالسوريون الذين أصبحوا في خدمة الخليفة الجديد، كانوا يعرفون طرق البحر الأبيض المتوسط، اذ لم تكن جالياتهم التجارية بالموانئ فحسب، بل في كل المدن الكبرى للامبراطورية الرومانية القديمة، والأساطيل السورية هي التي زوّدت الإسلام بقواته البحرية الأولى ومكنته في وقت قصير، من السيطرة البحرية ، وصار في مقدور البحرية الأموية أن تدعم جهودا جديدة لجيوش الإسلام في مناطق الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

ثالثا: إن شمال إفريقيا وشبه جزيرة ايبيريا كانتا أقل تأثرا بالغزوات الجرمانية البربرية، بالنسبة لبلدان امبراطورية الغرب القديمة، وقد تكون شهرة خصوبة أراضيها هي التي جذبت الجيوش الإسلامية ، حيث ان الغارة كانت أول عمل للفتح وان تلك الجيوش بعد الانتصار، عاشت بفضل استغلال البلاد المفتوحة. ومن ثم فإن الخلافة الأموية تمكنت بشرق بلاد المغرب، من هزيمة البيزنطيين ومن استيلائها منهم، على جزء كبير من السواحل المغربية التي سبق لجستنيان أن استعاده كما أضعفت قوتهم البحرية.

رابعا: كان على الخلفاء الأمويين أن يوسعوا حدود الإسلام، لتبرير لقبهم،

واثبات جدارة استحقاقهم لخلافة الرسول قبل غيرهم، وكانت لهم جيوش قوية متلهفة على توسعات جديدة، وكان نفاذ صبرها يسبق أحيانا نظامها كما أن الامبراطورية الإسلامية، في بداية تنظيمها ، كانت دائما في حاجة الى التوسع من أجل جيشها وبقائها.

وهذه الأسباب كلها مادية، كما هو واضح، تنحصر في خوف العرب وعجزهم عن مواصلة الفتوحات بالمشرق واعتمادهم على غيرهم خاصة على السوريين ، ورثة الحضارة الهلينية في تحقيق أغراضهم التوسعية وأطماعهم في ثروات الغير، وتحقيق أهداف سياسية، وتفادي مشاكل داخلية، أي أنها في نظرهم مادية بحتة. أما الجانب الروحي فلم يحظ بأي اهتمام من طرفهم.

وفي تناولهم لمراحل الفتح يلاحظ أنهم يلخصون «بأسلوبهم» ما أوردته المصادر العربية عن الغزوات التي قامت بها جيوش المسلمين انطلاقا من مصر والتي وصلت الى طرابلس سنة 22 هـ، وهنا يتوقف بعضهم عند رواية ابن عبد الحكم التي تقول بأن أمير مصر عمرو بن العاص وجه رسالة الى الخليفة عمر بن الخطاب جاء فيها «ان الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقيا الا تسعة أيام. فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل» فكتب إليه عمر: «لا إنها ليست بإفريقية» ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت» وفي رواية أخرى أنه جاء في رد الخليفة: «افريقيا المفرقة ثلاث مرات، لا أوجه اليها أحد ما مقلت عيني الماء»[2].

وقد علّق Gautier (E.F.) على جواب أمير المؤمنين عمر بقوله: ان هذه الكلمة التاريخية (ويعني بها: المفرقة غادرة) على لسان عمر تعني تنبؤا، ومن المحتمل أن تكون مزيفة لكنها ولا شك، تلخص في شكل رواية شعبية، وَهَن الرأي العام المتأثر بكثرة الإخفاقات[3] الناجمة عن المقاومة التي جابه بها البربر العرب فيما بعد.

كما يذهب Julien (Ch' A.) ، إلى أن هذه الرسالة، وإن لم تكن مطابقة للأصل، تعكس على كل حال، عواطف العداء التي صار يكنها، فيما بعد، عرب القرن التاسع (م) للأرياف الإفريقية المليئة بالفخاخ[4].

ولم يشر كل من Gautier و Julien ولا غيرهما من المؤرخين المعتمدين هنا الى رواية موازية أوردها ابن عذاري عن هذه القضية ومفادها أن عمراً كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح وأن ليس أمامه الا بلاد افريقية وملوكها كثير، وأهلها في عدد عظيم، وأكثر ركوبها الخيل، فأمره بالانصراف عنها...»[٥].

كما توقف بعضهم الآخر عند رواية ثانية لابن عبد الحكم تخص ابنة البطريق جرجير، حاكم إفريقية الذي قتله المسلمون بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهزموا جيشه في موقعة سبيطلة سنة 27 هـ، وصارت ابنته «لرجل من الأنصار» في سهمه، فأقبل بها منصرفا قد حملها على بعير له فجعل يرتجز:

يا ابنة جرجير تمشي عقبتك إن عليك بالحجاز ربتك
لتحملن من قباء قربتك

قالت: «ما يقول هذا الكلب؟» فأخبرت بذلك فألقت بنفسها عن البعير الذي كانت عليه فاندقت عنقها فماتت[٦].

ومن بين المؤرخين المتوقفين عند هذه النقطة أيضا Gautier الذي يميل الى الاعتقاد أن «يمينة»[٧] هذه لم يكن لها أي وجود ولكن قصتها في نظره، ترمز الى ظروف الرعب المحزن الذي يصحب بالضرورة كل الثورات، فهي تمثل حالة وقوع الأرستقراطيين الرقاق (Rafinés) فجأة بين أيدي أنصاف الهمجيين، وهي أكثر ألما بالنسبة لامرأة[٨]. وهذه الأسطورة كما يسميها Terrasse (H.) يتبيّن في نظره أن هؤلاء الأفارقة المتحضرين يعتبرون جنود الإسلام برابرة[٩] ونفس الرأي يذهب اليه Julien (Ch.A).[١٠].

ولا يذكر أي واحد من هؤلاء أن ابن الأثير الذي يروي نفس القصة لا يشير الى عملية الانتحار[١١]، كما أنهم لم يشيروا الى ما تتفق عليه بقية المصادر العربية وملخصه أن جرجير أمر مناديا ينادي في الناس أثناء الحرب: أن من قتل أمير العرب عبد الله بن سعد زوّجه ابنته هذه وأعطاه ما معها من الجواري والنعمة أو يعطيه معها مائة ألف دينار. ولما بلغ ذلك الى ابن سعد أمر هو الآخر من ينادي في أصحابه أن

من أتاه منهم برأس جرجير نفله مائة ألف دينار وزوّجه ابنته (ابنة جرجير) ومن معها واستعمله على بلده، فلما قتله عبد الله بن الزبير كانت من نصيبه[١٢].

فأصحاب هذه المدرسة كما تبين، من خلال المثالين السابقين، يختارون من الروايات ما يسمح لهم بتفسيرات وتعليقات تناسب أهواءهم. فقد اختاروا رواية ابن عبد الحكم في المراسلة التي جرت بين الخليفة عمر بن الخطاب وواليه عمرو بن العاص لأنها مكنتهم من التوصل الى رأي يحاولون فيه إثبات شدة مقاومة البربر للفتح وأهملت رواية ابن عذاري لأنها لم تسمح لهم بمثل ذلك.

واختاروا أيضا رواية نفس المصدر فيما يتعلق بمصير ابنة جرجير لأنها مكنتهم من استنتاج رأي آخر حاولوا فيه اثبات وحشية العرب المحتلين الا أنهم في الحالتين لم يستندوا كما هو واضح الى المنطق السليم.

وعن موضوع انسحاب ابن سعد من افريقية بعد انتصاره في موقعة سبيطلة يرى Marçais (G.) ان عدم استغلال العرب لانتصارهم المعتبر يعود الى تخلف استراتيجيتهم أو عدم وجود قوات كافية لهم بالمنطقة أو أنهم تلقوا في هذا الشأن أمرا من الشرق[١٣]. أما Julien (Ch.A.) فيرد ذلك الى احتمال خشية ابن سعد من هجوم مضاد مدعم بحصون الشمال التي كان عاجزا عن حصارها[١٤] في حين أن Mercier (E.) يعلل ذلك الرجوع الى أن العرب الذين كانوا مثقلين بغنائم لم يكن يهمهم سوى العودة الى المشرق لحكاية قصة انتصارهم. ويضيف أنه لم تكن للعرب آنذاك أية فكرة للاحتلال الدائم ولا اية محاولة لنشر الإسلام ولم يكن لهذه الحرب الأولى هدف سوى جمع الغنائم[١٥] كما يفند Mercier ما ذكرته بعض المصادر العربية من أن ابن سعد ترك ممثلا له في سبيطلة بحجة أنه لا يوجد أي دليل على ذلك[١٦].

وهنا يتضح جليا أن الفراغ الذي تركته المصادر العربية قد استغل عن طريق وضع افتراضات مختلفة لكنها متكاملة ملخصها أن العرب المتخلفين استراتيجيا انسحبوا بعد تحقيق هدفهم الوحيد المتمثل في التشبع بالغنائم وقبل أن يفاجئهم البيزنطيون وربما تلقوا أوامر في هذا الشأن من المشرق أو لم تكن لهم قوات عسكرية كافية.

وبعد الإشارة الى أحداث الفتنة الكبرى في بلاد المشرق العربي وتأثيرها على الفتوحات لمدة تتراوح بين سبع عشرة وعشرين سنة يفترض Marçais (G.) ولا تخالفه في ذلك بقية المراجع، أن غيابهم بالمغرب يعود الى كون أزمات المشرق قد امتصت نشاطهم وإن كان الاخباريون (ويقصد المؤرخون العرب) لم يهتموا بالبحث عن سبب ذلك[17].

وفيما يخص موقف البيزنطيين أثناء ذلك الغياب فإن Gautier مثلا فضل السكوت عنه في حين يقول Mercier «إنه كان على البيزنطيين الذين علمتهم التجربة أن ينظموا المقاومة بصفة حقيقية ولكنهم بدلا من أن يضموا اليهم الأهالي ويشرحوا لهم أنه من مصلحتهم التصدي «للمحتلين» وتدريبهم على النظام فإن الحكام الإغريق فصلوهم عنهم باستبدادهم وابتزازاتهم»[18].

ويرد Terrasse عدم استغلال إفريقية البيزنطية لهذا الوقت، الى الخلافات المذهبية القائمة بين الامبراطور البيزنطي Le Basileux ومسيحيي إفريقية الذين كانوا أوفياء لروما ويضيف أن سيطرة بيزنطة كانت مقصورة على شمال ووسط تونس[19].

ويتفق Julien مع Terrasse في رأيه هذا مستطردا أن أحد المغتصبين يسمى Gennadius يكون قد انتهز الفرصة لتأسيس إمارة مستقلة دامت عدة سنوات، ولما هدده خصمه، كان الإمبراطور يقف وراءه، فاوض العرب لنيل مساندتهم[20].

أما Marçais (G.) فيستعرض بتصرف ما ذكره المؤرخون العرب من أن البربر ساندوا جناديوس Gennadius الذي خلف جرجير بعد موته في تسيير شؤون افريقية ثم تخلوا عنه لينضموا الى إغريقي آخر هو إيلوثير Eleuthère . مما جعل الأول يتوجه الى المشرق ويستنجد بالخليفة معاوية، ويواصل Marçais (G.) قائلا: وبما أننا نعرف من جهة أخرى أن الامبراطور قنسطانز الثاني، قد بعث من صقلية في نفس الوقت تقريبا، البطريق نقفور، Nicéphore لاسترداد المقاطعة فنحن نعتقد أنه بإمكاننا بناء تسلسل الأحداث كما يلي: بعد رحيل العرب اراد جناديوس الاغريقي أن يجمع إرث الحاكم

جرجير غير أن موت هذا المغتصب أوحى للإمبراطور قنسطانز الثاني بمشروع الاستيلاء على افريقية، وكان أغلب الأفارقة يساندون Eleuthère المناهض لجناديوس Gennadius الذي كان على استعداد للخضوع. وقد جمع الامبراطور قواته فاستعادت البلاد في حين التفت جناديوس الذي تخلى عنه أنصاره الى العرب[21] وحسب المصادر العربية فإن الامبراطور البيزنطي أرسل الى إفريقية، بعد انسحاب عبد الله بن سعد منها، بطريق يقال له «أوليمة» وأمره أن يأخذ من أهلها نفس المبلغ الذي صالحوا عليه المسلمين فلما حلّ بقرطاجة وأخبرهم بذلك رفضوا أن يدفعوا له أكثر مما كانوا يؤدونه قبل ذلك[22].

وكان القائم بأمر إفريقيا، حسب ابن عذاري المراكشي، رجلا يقال له «حُباجية» فطرد أهلها أوليمة الواصل اليهم، واجتمع رأيهم على تقديم الأرطيون، وسافر حُباجية الى الخليفة معاوية بالشام فوصف له حال إفريقية وسأله أن يبعث معه جيشا من العرب فوجه معه معاوية بن حديج[23] أو أن البطريق الجديد هو الذي طرد القائم بأمر إفريقية ، فسافر الى معاوية بالشام. كما ذكر ابن الأثير[24]، وعند حلول ابن حديج بإفريقية وجد نار الفتنة مشتعلة بها فهزم جيشه ثلاثين ألف رجل أخرجهم اليه البطريق الرومي[25]، أو ان ملك الروم بعث الى افريقية بطريقا يقال له نجفور في ثلاثين ألفا مقاتل فنزل الساحل وأخرج اليه ابن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه الى البحر، بينه وبين سوسة اثنا عشر ميلا ، فلما بلغ ذلك نجفور أقلع في البحر منهزما من غير قتال[26].

ومن خلال المقارنة بين معلومات هؤلاء وآراء أولئك المؤرخين يبدو جليا أن الفرنسيين منهم تغاضوا تماما عن موضوع الضرائب التي حاول البيزنطيون فرضها على الأهالي بعد انسحاب المسلمين وكأنهم يريدون بذلك تفادي ما من شأنه أن يسيء لسمعتهم.

ويحاول Marçais (G.) استغلال الأخبار المتقطعة للمصادر العربية كي يبني ما أسماه بتسلسل الأحداث، لكن ما توصل إليه، على ما يبدو ، لا يتماشى مع المنطق بقدر ما يتماشى مع ما في نفسه من محاولة تحسين صورة البيزنطيين وتبرئتهم من التقصير في القيام وواجبهم الدفاعي عن المنطقة، كما يحاول كل من

Terrasse و Julien أن يلتمسا لهم العذر بما حدث من خلاف مذهبي بينهم وبين مسيحيي افريقيا الأوفياء لروما حسب رأيهما.

أما Mercier فيؤنبهم لأنهم في نظره بدلا من أن يقوموا بدروهم في توعية الأهالي وتعبئتهم ضد المحتلين راحوا يستبدون بهم ويبتزونهم. والجديد الذي يدور حول حملة ابن حديج هو ما أسماه Mercier (E.) : «بالمنازعات الكبيرة» التي دارت حول تقسيم الغنائم والتي منعت، حسب رأيه العرب من الاستفادة باتهارهم لمحق ما تبقى من السيطرة البيزنطية بإفريقية[27] وكذلك باعتناق من أسماهم Marçais (G.) «بعض الانتفاعيين للإسلام» آنذاك[28].

وفيا يخص النقطة الأولى فإن ملخص ما ورد في المصادر العربية، ان المسلمين فتحوا مدينة جلولاء ودخلوها عنوة وغنموا ما فيها على يد عبد الملك بن مروان أو بفضله فأراد أن يحابي أصحابه واخوانه في الغنائم وتنازع لهذا السبب مع ابن حديج الذي بعث يخبر الخليفة معاوية بالأمر فجاء الرد بتقسيمها بالعدل على كافة أفراد الجيش على أساس سهمين للفرس وسهم لصاحبه فصار تصيب كل فارس ستمائة دينار وعاد بعد ذلك معاوية الى مصر حيث ولاه عليها الخليفة بدلا عن عبد الله بن عمرو بن العاص[29].

فمن الواضح أن تقدير Mercier للمنازعات بين العرب ولنتائجها مبالغ فيه، وهو يريد بهذه المبالغة أن يثبت أن هدف العرب مادي صرف، أما كلمة «الانتفاعية» التي وصف بها Marçais (G.) الذين اعتنقوا الإسلام فهي دليل على التعصب المفعم بالروح الصليبية التي يلمسها كل قارئ لكتاباته التاريخية عن العرب والمسلمين.

وعن حملة عقبة الأولى يرى Marçais (G.) أنه: كان يتصرف بمنهج أكثر من أسلافه وأن أغراضه كانت أوسع. وفي ظروف أكثر ملاءمة من ذي قبل، لأن الامبراطور قسطنطين بوغونة Constantine Pogonat الذي خلف قسطانز الثاني بعد اغتياله، استدعى آنذاك كل القوات البيزنطية بالغرب كي يتصدى بها لأحد المغتصبين ظهر بصقلية، تاركا فراغا كبيرا بإفريقية، فمن المؤكد كما يضيف Marçais أن عقبة أثناء تقدمه بالجريد وبإفريقية Byzacère لم

يتقابل مع الروم، فلا صدام مسلح ولا حصار للمدن: فالقلاع كانت، وهي ولا شك فارغة من المدافعين، تسقط من ذاتها، وكان هذا الانتصار الذي يظهر سهلا على حساب البربر وأغلبهم مسيحيون[30].

ويقول عنه Mercier (E.) أنه الأول من الغزاة العرب الذي كان يشترط على المنهزمين اعتناق الإسلام والخضوع في آن واحد[31].

وإذا تأملنا ما كُتب في شأن عقبة هنا فإن أول ما يلفت نظرنا هو أن Marçais (G.) يلتمس مرة أخرى عذرا للبيزنطيين الذين انشغلوا في نظره بمشاكلهم الداخلية ومن ثم أتيحت الفرصة لعقبة كي ينتصر على البربر وأغلبهم مسيحيون.

وكذلك تشويه الحقيقة الواضح من خلال تعبير Mercier (E.) الذي يقول فيه بأن عقبة كان «يشترط على المنهزمين اعتناق الإسلام والخضوع في آن واحد»، والمبادئ الإسلامية كما هو معروف تقوم على أساس المساواة بين كل المسلمين، فهل Mercier كان يجهل ذلك؟ ويُلاحظ أن مختلف المؤرخين الفرنسيين لا ينسون الحديث عن استعماله العنف ضد البربر حتى أنهم ليُصورونه عبارة عن وحش متعطش للدم والمال ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن السبب هنا مع أن المصادر العربية التي استغلوا مادتها في هذا الشأن تقول انه كان شديدا قاسيا على الذين نقضوا ما سبق لهم أن قطعوا على أنفسهم من عهود للمسلمين أو الذين كانوا يتحصنون منه بقلاعهم[32] أي جيوب المقاومة، فهل يمكن تفسير عدم تطرق أولئك المؤرخين لهذه الأخبار لتعليل شدة عقبة الا لخشيتهم من أن ذلك سيؤدي، لا محالة، الى تبرير أعماله ورفع منزلته التاريخية وهو لا يتماشى مع أغراضهم بطبيعة الحال؟ وهل يمكن تفسير سكوتهم عما ذكره ابن الأثير مثلا، من انضمام من أسلم من البربر اليه فكثر جمعه[33] بغير ذلك؟

وعن تأسيس القيروان يذهب ابن عذاري المراكشي الى القول أنه «عندما اتفق رأي عقبة وأصحابه على انشاء مدينة «تكون عزا للإسلام الى آخر الدهر!».. وأن يكون أهلها مرابطين..» اقترح على عقبة أن تكون قريبة من البحر لتكون صالحة للجهاد والرباط، فقال عقبة: «اني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة،

فيملكها! ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر. الا وقد علم به، وإذا كان بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون!» فلما اتفق رأيهم على ذلك. قال: «قربوها من السبخة، فإن دوابكم الابل، وهي التي تحمل اثقالكم، فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد، حتى يفتح الله لنا منها الأول فالأول وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها، آمنة من عادية البربر والنصارى»[34]. أي أن العامل الأول الذي قرأ المسلمون حسابه في تأسيس القيروان حسب هذا النص هو البعد عن ساحل البحر حتى لا تتعرض لهجوم بيزنطي مفاجئ.

والعامل الثاني هو القرب من السبخة لتوفير المراعي للإبل، أداة النقل والحرب آنذاك.

والعامل الثالث هو استخدام هذه القاعدة في مواصلة فتح المنطقة. وكلها عوامل تبدو مقنعة وكافية ومهما يكن فليس هناك أي مجال للربط بين تأسيس القيروان وبين ما أطلق عليه «المقاومة في الأوراس» ولا بين موقعها وموقعه لسبب بسيط وهو أن المسلمين حتى ذلك الوقت لم يعرفوا الأوراس وأكبر دليل على ذلك أن عقبة نفسه عندما عاد من حملته المشهورة التي وصل فيها الى البحر المحيط، بعد حوالي عشر سنوات من تأسيسها، ترك معظم أصحابه يلتحقون بها في حين تخلف هو مع عدد قليل منهم بطبة ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وراح يتجول في المنطقة الى أن قتل بتهودة من ضواحي الأوراس[35].

فهل كان عقبة سيغامر بنفسه لو أنه كان يعلم أو يعتبر الأوراس «قلعة المقاومة البربرية أو البربرية البيزنطية» كما يحاول المؤرخون الفرنسيون تصويره؟

فمن المقارنة بين النصين العربي والفرنسي اللذين تمكنت من صياغتهما إذا تبين لي ان مادة الثاني ـ تعتمد كلية على مادة الأول، ولا تختلف معها الا في الأسلوب وبعض الإضافات من تعليقات واستنتاجات وآراء خاصة غالبا ما تدخل في اطار ملئ الفراغات التي يتركها المؤرخون العرب، كليا أو جزئيا، وهي لا تتماشى دائما مع المنطق السليم.

كما يقتصر أصحابها على اختيار الروايات التاريخية التي تمكنهم من استنتاج آراء تنسجم واتجاهاتهم العقائدية والسياسية وإهمال كل ما لا يتيح لهم ذلك أو ما من

شأنه أن يسيء الى من يريدون لهم صورة حسنة كالبيزنطيين أو تحسين الصورة التي يريدون تشويهها كصورة عقبة والمسلمين عامة.

وهي مكتوبة بأسلوب عاطفي يستشف من خلاله كراهية أصحابها للعنصر العربي والدين الإسلامي وإشفاقهم على البربر وخاصة المسيحيين منهم في مواجهتهم الفاتح العربي والاستخفاف بمن ساندوه واعتنقوا دينه منهم كما يستشف منها عطف كبير على البيزنطيين.

وبذلك فهي تفتقر الى ما يتطلبه البحث التاريخي من موضوعية وروح علمية.

وللأسف الشديد فإن أصحاب هذه المدرسة هم الذين تولوا كتابة تاريخنا على هذا المنوال وإذا أردنا أن يكون لنا كغيرنا تاريخ ينبغي ـ إعادة غربلتها كلها وبما أنه لا توجد في الفترة الخاصة بالعصر الوسيط مثلا مادة أولية جديدة يمكن الاعتماد عليها لتطوير الكتابة التاريخية لبلادنا ستضطر، إذا أردنا الإعادة الى استخدام نفس ما استخدموه بطريقة موضوعية دون الاستغناء عن كل أعمالهم، فمنها ولا شك ما هو صالح وان كان قليلا وهذا ينبغي الاحتفاظ به، ومنها ما هو غير صالح وهذا ينبغي التوقف عنده وتسليط الأضواء عليه بطريقة علمية وموضوعية حتى لا تقع أجيالنا ضحيته.

الهوامش:

(1) Terrasse H. في كتاب Histoire du Maroc, p. 77.

(2) فتوح إفريقيا والأندلس، ص 33ـ34.

(3) Le Passé de l'Afrique du Nord, p 253.

(4) Histoire de " " T. 2, p. 13

(5) البيان المغرب، جـ 1، ص 18.

(6) فتوح افريقيا والأندلس، ص 38ـ39.

(7) لا نعرف من أين أتى Gautier بهذا الاسم الذي لا يوجد في كتاب ابن عبد الحكم.

(8) Le passé de l'Afrique du Nord, p. 238.
(9) Histoire du Maroc, pp. 78-79.
(10) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 14.

(11) أنظر الكامل في التاريخ، جـ 3، ص 89ـ90.

(12) نفسه، ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 1، ص 10 فما بعدها، ابن أبي الدينار: المؤنس، ص 26.

(13) La Berberie musulmane et l'Orient au moyen âge, pp. 29-30.
(14) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 14.
(15) ‎ l'tablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale, p. 55.

(16) T Id. note 2 ، نقل Mercier هذا الخبر عن النويري وابن عذارى، ويوجد أيضا في كتاب ابن أبي دينار (المؤنس، ص 27).

(17) La Berberie musulmane et l'orient au moyen âge, p. 30
أنظر أيضا : Julien Gh. A op. cit. p. 15.

(18) Terrasse H. op. cit., p. 79. Mercier E. op. cit., p. 55;
(19) Histoire du Maroc, p. 79.
(20) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, pp. 15-16.
(21) La Berberie musulmane et l'orient au moyen âge, p. 30-31.

(22) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 3، 91ـ92، ابن عذاري: البيان، 1، 17.

(23) ابن عذاري: نفس المصدر ص 17.

(24) ابن الأثير : نفس المصدر، ص 92.

(25) ابن عذاري: المصدر السابق، ص 17، ابن الأثير: المصدر السابق، ص 92، ابن خلدون: كتاب العبر، جـ 6، ص 216.

(26) ابن عذاري: المصدر السابق، ص 16.

(27) Histoire de l'tablissement des Arabes, p. 5. (28) Op. cit., p. 31.

(29) عن هذا الموضوع، انظر ابن عبد الحكم: فتوح، ص 49.48؛ ابن عذاري: البيان، 1، 17 فما بعدها، ابن الأثير: الكامل، 3، 92، ابن خلدون: العبر، 6، 216.

(30) La Berberie Musulmane, p. 31.

(31) Histoire de l'tablissement des Arabes, p. 57.

(32) عن هذا الموضوع أنظر ابن عبد الحكم: فتوح، ص 50 فما بعدها؛ ابن عذاري: البيان، 1، 19، ابن الأثير: الكامل، 3، 465.

(33) الكامل، 3، 465.

(34) البيان المغرب، 1، 19ـ20.

(35) عن هذا الموضوع، أنظر ابن الأثير: الكامل، 4، 106، ابن عذاري: البيان، 1، 29، ابن خلدون: العبر، 6، 217.

ثورات الخوارج بالمغرب الإسلامي

ابتداء من سنة 122 هـ / 739 ـ 740 م

في المصادر العربية قديما

ودراسات المدرسة الغربية حديثا 739 ـ 740 م

بحاز ابراهيم

لا تزال ثورات الخوارج ببلاد المغرب (122 هـ/739ـ740م) بحاجة الى مزيد من البحث والتقصي لاسبابها وعواملها وأحداثها وأهدافها ونتائجها المحققة وغير المحققة. ورغم ما كتب عنها قديماً وحديثا ، فهي عندي، في كثير من جوانبها ، غامضة غير واضحة ، وبالتالي ، فأنه لا يتسنى لنا فهم أعماق هذه الثورة ولا سبّر أغوارها الا بنقد مصادرها القديمة ودراساتها الحديثة خاصة ما يتعلق منها بدراسات المدرسة الغربية.

ومن هنا فإن الإشارات التي سأتناولها في موضوعي هذا، لا تمس الثورة في حد ذاتها ولا في أحداثها ولا في أهدافها وانما تهتم بمن كتب عنها تريد رفع اللثام عن أغراضهم وأهدافهم ومنطلقاتهم ونظرتهم الى الثورة والثوار.

ولقد رأيت تقسيم كلمتي هذه الى النقاط التالية:

أولا: أهم أحداث الثورة في المغرب الإسلامي

ثانيا : المصادر القديمة ودراسات المدرسة الغربية عرض وتحليل.

ثالثا : ثورات الخوارج بين المؤرخين قديما والمدرسة الغربية حديثا.

إن ثورة الخوارج، ثورة متشابكة أحداثها، متداخلة عناصرها غامضة أهدافها. ولا أدل على ذلك من تعدد تسميات هذه الثورة، مثل: ثورة البربر،

ثورات البربر، ثورة الخوارج، ثورات الخوارج، الثورة المغربية، ثورات المغاربة، ثورة ميسرة، ثورة زناتة، ثورة البترية، الثورة البربرية الكبرى، الثورة الاجتماعية .

وهذه التسميات كافية لوحدها ان تمدنا بالزوايا التي نظر المؤلفون من خلالها الى الثورة موضوع الدراسة: فهي اما زاوية قومية أو دينية مذهبية أو اقليمية أو فردية تمردية أو هي زاوية اقتصادية...

وقبل الخوض في نقد بعض مصادر هذه الثورة، أرى من الضرورة الإحاطة بشيء من خطوطها العريضة المتمثلة في أهم أحداثها.

أهم أحداث الثورة في المغرب الاسلامي:

في عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي (105_125هـ/723_742م) وعامله على افريقية والمغرب عبيد الله بن الحبحاب، ثار البربر بقيادة ميسرة المطغري في طنجة بالمغرب الأقصى سنة 122 هـ/739_740 م فقتلوا عمر بن عبيد الله المرادي عامل ابن الحبحاب على طنجة واسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب العامل على السوس، وهكذا استعدوا لمواجهة قوات الخلافة معلنين تمردهم «وتداعت برابرة المغرب بأسره على حد قول ابن عذارى، فثارت البربر بالمغرب الأقصى ، فكانت أول ثورة فيه وفي افريقية في الاسلام»[1].

وهكذا بدأت الثورة تأخذ أحجاما مختلفة واتجاهات متنوعة ، والتقى الثوار بقوات الجند في عدة معارك أهمها معركة الاشراف التي كانت للثوار على الجند وقتل فيها حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها فسميت لذلك بالأشراف.

ولما وصل خبر هذه الثورة والهزيمة الى هشام بن عبد الملك قال: «والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولابعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي ثم لا تركت حصن بربري الا جعلت الى جانبه خيمة قيسي أو تميمي»[2].

وغضب هشام غضبته العربية فجهز جيشا تعداده ثلاثين ألف جندي جعل قيادته بيد كلثوم بن عياض مع سلطات واسعة، ولكن الثوار قضوا على هذا الجيش قضاء مبرما وشتتوه شذر مذر وذهبت غضبة هشام أدراج الرياح، وراح الثوار وعلى رأسهم خالد بن حميد الزناتي يأسرون ويلاحقون ويحاصرون هؤلاء الجند في كل مكان.

بعد هذين الانتصارين للثوار في المغرب الأقصى والأوسط، امتدت الثورة حتى عمت المغرب من أقصاه الى أدناه، بل تسربت الى الأندلس شمالا، واضطربت الأحوال في المغرب الاسلامي على الخليفة هشام وولاته الواحد بعد الآخر، اذ قامت ثورات أخرى في الزاب بالمغرب الأوسط وفي افريقية (المغرب الأدنى) وكانت تحت قيادة عبد الواحد الهواري في شق منها وقيادة عكاشة بن أيوب الفزاري في شق آخر، وكلاهما صفري المذهب، وهكذا تسنح الفرصة لقوات الخلافة التي قدمت بقيادة حنظلة بن صفوان بعد مقتل كلثوم بن عياض للانتقام من الثوار في معركتي القرن والأصنام بافريقية قريبا من القيروان سنة 125 هـ/742 م. ولم تصل أخبار هذا الانتصار الى الخليفة هشام بدمشق الا بعد وفاته في نفس العام مباشرة.

وحاولت قوات الخلافة السيطرة على الأوضاع ، وملاحقة الخوارج الصفرية في كل مكان بإفريقية والمغرب، ولكنها لم تستطع ذلك الا بإفريقية والزاب من المغرب الأوسط اذ استقل المغرب الأقصى والأوسط عن الخلافة الأموية، فإذا كانت قوات الخلافة قد حطمت الثوار الخوارج في القرن والأصنام ، فإن أسباب الثورة لا تزال ماثلة وسوف تساعد على اقتحام قبيلة ورفجومة الصفرية، مدينة القيروان، وعلى ارتكاب مناكرها فيها، الأمر الذي يدعو الأباضية من نفوسة وغيرها وعلى رأسهم أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الى اعلان امامة الظهور ودخول طرابلس وافتكاك القيروان من أيدي ورفجومة العابثين فيها سنة 141 هـ/758م، الا أن المنصور العباسي بعد أن استقامت له الأمور نوعا ما في بلاد المشرق وبعد سقوط الأمويين وقيام العباسيين، اتجه بنظره نحو المغرب، فأنفذ اليه جيشا تحت قيادة محمد بن الأشعث الخزاعي الذي استطاع ضرب الاباضية في القيروان وملاحقة الخوارج في كل مكان.

وهكذا يبقى المغرب بين مد وجزر ، حتى يستقل كله تقريبا عن الخلافة العباسية في بغداد وذلك بعد قيام الدول المستقلة فيه مثل الدولة المدرارية الصفرية سنة 140 هـ/757م ـ والدولة الرستمية الاباضية سنة 160 هـ/777م والدولة الادريسية العلوية سنة 172 هـ/788م والدولة الأغلبية شبه المستقلة سنة 184 هـ/800م[3].

هذه نبذة عن ثورات الخوارج في المغرب ، تبين ظروف الزمان والمكان الذي

قامت فيه، وتساعدنا على عقد مقارنة بين المؤرخين قديما من جهة وبين مؤرخي المدرسة الغربية حديثا من جهة أخرى، وبالتالي الخروج برأي علمي دقيق توضع في اطاره الثورات موضوع الدراسة.

المصادر القديمة ودراسات المدرسة الغربية عرض وتحليل:

تناول الكثير من المؤرخين القدامى ثورات البربر، على حد تعبيرهم ويمكن تصنيف هؤلاء الى ثلاث أصناف هي:

1) المؤرخون المغاربة من غير الخوارج.

(2) المؤرخون المغاربة من الخوارج.

(3) المؤرخون المشارقة.

أما المؤرخون المغاربة من غير الخوارج فكثيرون ، منهم من وصلتنا كتبهم ومنهم من لم تصلنا وانما وجدنا شذرات مما كتبوه في مؤلفات غيرهم وينطبق هذا خاصة على محمد بن يوسف ابي عبد الله التاريخي الأندلسي المشهور بالوراق والمتوفي سنة 363 هـ، اذ لم يصلنا ديوانه الضخم على حد تعبير الضبي[4]. ولحسن الحظ احتفظ أبو عبيد البكري بجزء كبير منه ضمن كتابه الجغرافي المعروف ، وتناول خاصة ـ في ما يخص قضيتنا التي نحن بصدد دراستها ـ القبائل المرتدة بعد الثورة وأهم شرائعها وشعائرها .

أما الرقيق القيرواني أبو اسحاق عمر بن القاسم الذي عاش في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي فأنه بحكم توليه لرئاسة ديوان الرسائل ببلاط بني زيري الصنهاجيين، فلا شك قد أتاحت له هذه الوظيفة فرصة الاطلاع على العديد من الوثائق والكتب التي على أساسها كتب تاريخه المعروف بتاريخ افريقية والمغرب، وهو كتاب قيم رغم أنه مبتور في بعض أحداث ثورة البربر، ومع ذلك يبقى كتاب الرقيق من المصادر الأولى في تاريخ هذه الثورة خاصة وان الرقيق قد ظهر فيه معتدلا نوعا ما.

وعلى الرقيق اعتمد ابن عذارى المراكشي في القرن السابع الهجري في كتابه البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب وعليه بالذات اعتمد في الحديث على

الثورة والثوار فجاءت عنده مفصلة مضبوطة ومتسلسلة وكثيرا ما يكمل ابن عذارى كتاب الرقيق في الأحداث التي سقطت منه ولم تصلنا ، ومن هنا لا يختلف ابن عذارى كثيرا عن الرقيق في تناوله للثورة فكلاهما معتدل نوعا ما.

أما اذا جئنا الى ابن خلدون وكان من الممكن جدا أن اقتصر عليه فقط ما دمت في عملية مقارنة بين المصادر القديمة ودراسات المدرسة الغربية، اذ أن هذه الأخيرة لم تعتمد على مصدر قديم اعتمادها على غير ابن خلدون.

فابن خلدون غني عن التعريف ، ولكن لا بد من كلمة حول نظرته للثورة والثوار ولا أبالغ ولا أكون مندفعا عندما أقر أن ابن خلدون نظر الى الثورة بمنظار يخالف تماما سابقيه الرقيق وابن عذارى رغم أنه استمد مادته التاريخية منهما ومن الرقيق في أحداث الثورة بالذات. ان ابن خلدون نظر الى الثورة نظرة دينية مذهبية ونظرة عصبية، فموقف ابن خلدون من الخوارج معروف ، هو موقف عدائي صريح لا يقبل ابن خلدون نفسه فيه أي مناقشة بعكس موقفه من المذاهب السنية وهو السني والمذاهب الشيعية .

فإذا كان في الأولى متعصبا فهو في الثانية لا يكون الا متعاطفا وفي كلتا الحالتين وقع ابن خلدون في الأخطاء والمزالق التي حددها هو نفسه في مقدمته.

وإذا كنا لا نريد أن نبحث عن أسباب عداوته المبالغ فيها تجاه مذاهب الخوارج كما لا نريد البحث عن أسباب دفاعه عن الشيعة وما يحوم حولها، إلا أننا نلاحظ ان مواقف ابن خلدون هذه عرفت المدرسة الغربية كيف تستغلها لخدمة أهدافها.

ورغم هذا الموقف ، فإن ابن خلدون يبقى من المصادر الأساسية لتاريخ المغرب الاسلامي، ولا غُنْيَةَ لباحث عنه، خاصة وانه كان المرجع الأول ولا يزال لمؤرخي المدرسة الغربية.

ومع هذا الصنف الأول من المؤرخين المغاربة يمكن أن نضيف اليهم الصنف الثاني وهم المشارقة، واذا استثنينا ابن عبد الحكم المتوفي سنة 257هـ/871م في كتابه فتوح مصر والمغرب ، فإن باقي المؤرخين المشارقة فيما يخص الثورات موضوع دراستنا كانوا مقلين، ولا جديد عندهم ، اللهم الا عارضة الشكوى التي تقدم بها البربر في دمشق لحاجب الخليفة هشام بن عبد الملك والتي أورد تفاصيلها الطبري قبل غيره

من المؤرخين ، كما نجد بعض الأخبار الجديدة التي تحتاج الى تدقيق في تاريخ خليفة بن خياط العصفوري المتوفي سنة 240هـ/854م وهي ،في علمي، لم تستغل ولم يلتفت اليها بعد.

ان المصادر العربية المشرقية في تناولها لأحداث الثورة كانت عالة على المصادر المغربية المكتوبة تردد ما كتبته ، أما اذا اعتمدت على المصادر الشفوية مثل تاريخ خليفة ابن خياط ، فأنها لا تخلو من الأخطاء باستثناء ابن عبد الحكم المالكي المذهب المصري الموطن فأنه كان ينتقي روايته أحسن انتقاء ولذلك جاءت فتوحه للمغرب وسرده لاحداث الثورات دقيقا مضبوطا وكان في كثير من الأحيان معتدلا .

ان المؤرخين المغاربة والمشارقة من غير الخوارج تجمعهم صفة واحدة وهي الكتابة للسلطة القائمة ارضاء للخلافة، الا ان العامل الزمني يفرق ما بين متقدميهم ومتأخريهم، فخليفة بن خياط وابن عبد الحكم والرقيق نلاحظ في تناولهم للثورة البربرية نوعا من الاعتدال وتكاد لا تشعر بميولهم المذهبية ولا بموقفهم المتعصب، في حين نجد الذين جاءوا بعدهم كابن عذارى وابن خلدون وصاحب الأخبار المجموعة وابن الأثير والنويري وغيرهم كانت كتبهم كلها تقريبا تنضح بالتعصب والمذهبية الضيقة ولسوء حظ التاريخ المغربي اعتمد مؤرخو المدرسة الغربية على هذه المجموعة بالذات.

اذن بعد أن تعرضنا للصنفين الأولين من المؤرخين المشارقة والمغاربة من غير الخوارج نأتي الآن الى الصنف الثالث وهو المؤرخون المغاربة من الخوارج ، وهؤلاء من الأباضية لا غير، اذ لم يبق من كتب الصفرية كتاب؛ فلا شك أنها أحرقت في الصراع الشيعي العبيدي من جهة والخارجي المدراري والرستمي من جهة أخرى في نهاية القرن الثالث الهجري.

ان ابن سلام اللواتي الأباضي الذي عاش في القرن الثالث الهجري في كتابه (شرائع الدين) أو «الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية» (وهو العنوان الذي صدر به عن دار اقرأ سنة 1985م)، وأبا زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني المتوفي سنة 471هـ في كتابه سير الأئمة وأخبارهم، يتناولان ثورات البربر الاباضية منها خصوصا والصفرية عرضا، ويقدمان لنا وجهة نظر الثوار اذ أنهما من البربر أولا ومن الخوارج ثانيا، لهذا فلا نتعجب اذا كان موقفهما مع الثوار منذ البداية ، بل أنهما استهلا كتابيهما

بذكر فضائل البربر، وكانت في كثير منها منسوبة الى النبي محمد ﷺ أو الى أحد الصحابة البارزين توكيدا على صحتها في اعتقادهم.

فإذا كان مؤرخو المدرسة الغربية قد اعتمدوا سير أبي زكرياء بالإضافة الى سير الشماخي أحمد بن سعيد المتوفي سنة 928هـ/1522م، فأنهم لم يعرفوا كتاب ابن سلام الذي يعتبر مصدر كل من أبي زكرياء والشماخي، لان مخطوطه ظهر مؤخرا والعناية بطبعه وتحقيقه لم تتم الا في العام الماضي.

ويبدو لي أن مؤرخي المدرسة الغربية قد وجدوا في مصادر الأباضية ضالتهم لانها تعبّر عن وجهة نظر البربر الخوارج في اعتقادهم.

ان المؤرخين الاباضية كانوا بطبيعة الحال متعصبين مذهبيا وعرقيا، فلا غرو أنهم كانوا من المستضعفين، وكانوا يواجهون سيلا من الكتابات في عهدهم تتحدث عن ثوراتهم أو تمرداتهم بنظرة لا تخلو ولا شك من تعصب مذهبي وعرقي.

أما إذا جئنا الى الحديث عن مؤرخي المدرسة الغربية والذين اهتموا بالثورة البربرية ، نجد أغلبهم من الفرنسيين الذين تقلبوا في مناصب مختلفة بالجزائر أيام الاحتلال الفرنسي ، ولعل عمدتهم في هذا المجال هو جوتييه E. F. Gautier صاحب كتاب «ماضي شمال افريقيا» أو بالأحرى «القرون المظلمة لبلاد المغرب» وهو العنوان الذي صدر به لاول مرة في العقد الثالث من هذا القرن وأعيد طبعه سنه 1964 م بباريس.

فبالنسبة لجوتييه فان القرون المظلمة تتمثل في الفترة الاسلامية لا غير أما قبل ذلك فلا يعتبر مظلما.

وإذا كان رينهارت دوزي قد سبق جوتييه في تناوله للثورة في كتابه المترجم الى العربية «تاريخ مسلمي اسبانيا» فأن أصله الهولندي واختصاصه الأندلسي لم يجعلاه مرجعا لمؤرخي مدرسته على أكبر تقدير ، وانما المرجع والعمدة في تاريخ المغرب عند هذه المدرسة هو جوتييه لا غيره (1864-1940) اذ كان سباقا الى تدوين تاريخ المغرب ومناقشته مناقشة لا تخلو من تفلسف ، ومن هنا فان المؤرخين الذين جاؤوا من بعده كانوا كلهم عالة عليه يرددون ما قاله خاصة فيما يخص الثورات موضوع دراستنا فجورج مارسيه ووليم مارسيه وشارل اندري جوليان وغيرهم لا يختلفون في كثير ولا في قليل عن جوتييه وتفسيراته للثورة وأهدافها ، والثوار وطوائفهم أو

قبائلهم واذا كان الفرد بل يختلف نوعا ما عن زملائه السابقين، فأن اختلافه في تفسيره لأحداث المغرب عموما تفسيرا دينيا، ثم يلتقي بهم في نهاية المطاف.

ان المصادر العربية في العصر الوسيط اذا كانت تختلف فيما بينها عند تناولها للثورة والثوار فأن المدرسة الغربية في العهد الاستعماري لا تختلف اطلاقا وانما يؤكد المتأخر منهم المتقدم ، ولا أعدو الحقيقة اذا قلت ان اختلاف وجهات نظر المؤرخين العرب مغاربة ومشارقة، خوارج وغير خوارج هو الذي أوحى لمؤرخي المدرسة الغربية بنظرتهم للثورة نظرة عنصرية قوامها «فرق تسد» وهي احدى مقومات بل أهداف هذه المدرسة[٤].

ثورات الخوارج بين المؤرخين قديما والمدرسة الغربية حديثا:

تناول المؤرخون قديما ثورات الخوارج ، ونظروا اليها دينيا مذهبيا وقوميا. فإذا كنا لا نتعجب من النظرة الدينية لكل القضايا التاريخية من قبل هؤلاء المؤرخين ، فان عجبنا يزداد عندما نقرأ تلك المصادر ، ونكتشف فيها الكثير مما يشير صراحة وبدون أية فلسفة أو تأويل الى النظرة القومية العنصرية عند مؤرخينا قديما.

فبالرغم من ذكرهم للأسباب المباشرة التي أدت الى الثورة البربرية الأولى في طنجة تحت زعامة ميسرة المطغري والمتمثلة خاصة في سوء معاملة عمر بن عبيد الله المرادي للبربر، اذ يذكر هؤلاء جميعا وبدون استثناء ، أن عمر بن عبيد الله «..أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر وأراد أن يخمس البربر، وزعم أنهم فيء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله وانما كانت الولاة يخمسون من لم يؤمن منهم ولم يجب الى الاسلام فلما بلغ البربر خروج حبيب بن أبي عبيدة الى بلد الروم انتقضوا على عبيد الله بن الحبحاب بطنجة وتداعت عليه بأسرها ، وعظم البلاء وذلك في سنة اثنتين وعشرين ومائة..»[٥]. وذكر المؤرخون الآخرون هذا النص بكامله وأضافوا اليه ويهمنا أن نذكر ما قاله ابن خلدون لأن مؤرخي المدرسة الغربية اعتمدوا عليه خصوصا يقول بعد أن يذكر تولى عمر بن عبيد «الله المرادي على طنجه واسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب على السوس: «واتصل أمر ولايتهم وساءت سيرتهم في

البربر ونقموا عليهم أحوالهم ، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات والأفرية العسلية الألوان وأنواع من طرف المغرب... فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم، وامتعض لذلك ميسرة الحفيد زعيم مطغرة وحمل البرابرة على الفتك بعمر بن عبد الله عامل طنجه فقتلوه سنة 122 هـ... واضطرم المغرب ناراً وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد..»[٦].

أقول بالرغم من هذه التصريحات والتأكيدات على جور بعض الولاة وظلمهم، فأن مؤرخي العصور الوسطى وقفوا منذ البداية الى جانب الخلافة ضد البربر وضد الخوارج وضد الثورة والثوار بصفة عامة، واعتبروا ذلك تطاولا على أولي الأمر بل هو تطاول على امراء العرب، يقول ابن خلدون متحدثا عن فشو المذهب الخارجي بالمغرب «ونفشت هذه البدعة، واعتقدها رؤوس النفاق من العرب وجرائم الفتنة من البربر ذريعة الى الانتزاء على الأمر فاختلوا في كل جهة... يلبسون الحق بالباطل... ووشجت بينهم عروق من غرائسها ثم تطاول البربر الى الفتك بأمراء العرب فقتلوا يزيد بن أبي مسلم سنة اثنتين ومائة لما نقموا عليه في بعض الفعلات ثم انتقض البربر بعد ذلك سنة اثنتين وعشرين ومائة في ولاية عبيد الله بن الحبحاب»[٧].

ان هذا الموقف الصريح والمنحاز الى جانب الخلافة وولاتها وقواتها من قبل المؤرخين في المغرب والمشرق من غير الخوارج ، يعارضه موقف المؤرخين المغاربة (البربر) من الأباضية وقد سبق أن ذكرنا ان كتابات هذه الفرقة هي كل ما بقي لدينا من تراث الخوارج في بلاد المغرب فلواب بن سلام بن عمرو اللواتي الأباضي يقول متحدثا عن جند الخلافة في عهد محمد بن الأشعث الخزاعي «استأسد الجند بطرابلس واستذلوا البربر»[٨] وهكذا في الوقت الذي يرى فيه ابن خلدون وغيره من المؤرخين أمثاله الى لثورة تطاولا من البربر على أمراء العرب يرى اليها الاباضية والبربر والخوارج عموما استشادا وكبرياء وظلما من الجند اذلالا للبربر ، ومن هنا فان الكتابات الأباضية تقدم التبرير الشرعي للثورة في حين نجد الكتابات الأخرى رغم اعترافها بالظلم وايرادها لأسباب الثورة بشكل جلي، فإنها مع ذلك لا ترى شرعية تلك الثورة، فهذا ابن عذاري لما ينتهي من ذكر جور عمر بن عبيد الله المرادي يقول

«فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل في العباد ، نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله»[١٥] ، ومع ذلك فهو يرى أن ثورة البربر نقض للطاعة.

ان هذا الموقف المتناقض لدى مؤرخينا تجاه الثورة يفسره عاملان:
أولها: العداء المذهبي اذ أن الثورة البربرية اتخذت لها الخارجية مذهبا وغطاء وتبريرا على بقائها ضمن حظيرة الإسلام، لامر الذي يرفضه المؤرخون السنة والشيعة على السواء ، وهذا لا يحتاج الى توضيح.

ثانيها: لا أقول العداء العرقي أو الجنسي وانما الحط من قيمه الثوار البربر أمام الخلافة وقواتها وعدم الاكتراث لمصائرهم أو الشعور بآلامهم أو بعبارة أخرى أوضح تبين لسان حال مؤرخينا تجاه الثوار وهي: ما قيمة هذه الفئة من الثوار وما بلغته أحوالهم الاجتماعية من تدني أمام قيمة وقدسية الخلافة مهما كانت هذه الخلافة، اذ لاحق لاحد أن يخرج عن طاعة أولي الأمر الجورة فضلا عن العدول.

من هنا وجدت المدرسة المغربية ومؤرخوها الذين اهتموا بثورات الخوارج ، الموازين مضطربة، ومنطق الاشياء منتهكا، ولهذا نشعر من خلال كتاباتهم منذ الوهلة الأولى احترازهم من النصوص العربية خاصة عندما تكون القضية مثل قضيتنا التي نحن بصدد دراستها فجوتييه (Gautier) مثلا يذكر أن المؤرخين العرب كلما تناولوا ثورات الخوارج كانوا كالعادة في كتابة التاريخ مقلين ومجحفين في حين يظهرون بموقف واحد إزاء الأحداث الكبرى[١٦].

وتطرقُ جوتييه لثورة الخوارج والاهتمام بها انما لسبب كونها قد جاءت بعد معركة بواتييه (بلاط الشهداء) سنة 114 هـ/732 م ويقول بأنه ينبغي على الفرنسيين أن يعرفوها جيدا، لأنه كان لها تأثير مباشر وعميق على تطور تاريخ فرنسا[١٧] فالنظرة هنا اذن نظرة المدرسة الفرنسية لا غبار عليها.

ان هذه المدرسة ، لما نبشت في المصادر العربية الوسيطة ولاحظت ذلك التحيز الصريح الى جانب الخلافة وجندها العربي المشرقي، وجدت نفسها تلقائيا تقف الى جانب السكان الأصليين لشمال افريقيا، على حد تعبيرها، تفلسف ثورتها وتؤولها وتفسرها تفسيرا تخدم به وجهة نظر المدرسة الغربية.

فإذا كان المؤرخون العرب قد تعصبوا للخلافة ضد البربر الخوارج ، فأن هؤلاء بعكس ذلك نجدهم قد تعصبوا للبربر الخوارج ضد الخلافة الإسلامية والعرب، وهكذا ضاعت الحقائق بين التعصبيين وظهر جليا احتياجنا الحتمي اليوم أكثر من أي وقت مضى الى مدرسة جزائرية للتاريخ تطرح القضايا الوطنية بجرأة وبدون أية عقدة اطلاقا.

وإذا كنا قد عرفنا العوامل التي دفعت المؤرخين القدامى الى موقفهم المذكور فما هي الأسباب التي حفزت المستشرقين الى تبني موقفهم الموالي للبربر الخوارج.
هناك عاملان: أولها: الاعتقاد بأنهم يطبقون طرق البحث الحديثة التي تملي عليهم التزام الموضوعية ونقد جميع النصوص مهما بلغت من قدسية مع احترازهم الشديد من المصادر العربية عموما لأنها في نظرهم متعصبة.
ثانيها: الاعتقاد في أن البربر الخوارج قد ثاروا ضد العنصر العربي يريدون الاستقلال الكلي عن السلطة العربية والمشرق حيث الخلافة الإسلامية.
فإذا كان السبب الأول واضحا، فان السبب الثاني أوضح اذ ان المدرسة الغربية كانت تريد أن تضرب العلاقة الوطيدة والعميقة والرباط المتين الذي يشد بلاد المغرب ببلاد المشرق العربيين ، ذلك الرباط الذي يتمثل في عقيدة البلدين أولا وفي أواصر القربى ثانيا.
ان المدرسة الغربية انما تعمل بإيعاز من المصالح الاستعمارية وبتشجيع منها حيث أنها تمهد لها السبيل وتسهل لها المهمة وتبين لها مواطن الضعف والقوة في هذا الشعب أو ذاك وهذا أمر بديهي لا يغيب عنا طالما عملت المدرسة الغربية على تحقيقه خدمة لمصالح بلدها على حساب مصالح الشعوب المستضعفة.
إن المصادر العربية بموقفها المذكور هي التي أملت لمؤرخي المدرسة الغربية موقفهم، فإذا كنت أجد هؤلاء قد عملوا في اطار مدرستهم دون انحراف ، فأي تفسير يبرر به موقف المؤرخين مغاربة ومشارقة من غير الخوارج لما اعترفوا بأسباب الثورة وانكروا قيامها واعتبروا القائمين بها عصاة، نقضوا الطاعة وخرجوا على أولي الأمر وبالتالي فإن الولاة والخلفاء عندهم معصومون أو شبه معصومين لا تجوز الثورة

عليهم ولا الخروج ضدهم وانما الطاعة العمياء هي الواجب الشرعي.

وفي الحقيقة ان الفكر الخارجي انما نشأ لما نشأ لرفض هذا المنطق بالذات والمدرسة الغربية لما وقفت موقفها المذكور فذلك لانها أدركت هذه الحقيقة وتبق نواياها شيء آخر.

ثم ان المصادر العربية كلها هي التي أملت للمدرسة الغربية موقفها العدائي من العرب والإسلام في هذه الثورة لأن تلك المصادر كانت واضحة في استعمالاتها لألفاظ: العرب والبربر، الحقير والاشراف ، البربري والقرشي ، حصن بربري وخيمة قيسي أو تميمي الخوارج الفتنة النفاق وأولوا الأمر وأمراء العرب وغيرها من التعابير التي مها أوّلناها أو رمنا تهذيبها بقيت تنضخ بالتعصب فضلا عن العداء المذهبي الذي كان آفة العصور الوسطى فأي تفسير أو تهذيب يمكن اجراؤه على هذا النص مثلا عندما يقول ابن سلام متحدثا عن ثورة أبي حاتم المزوزي سنة 155 هـ «سأل أبو حاتم عمن كان مع الجند من البربر فقالوا: معهم مليلة من هوارة فدعا عليهم فلم يزالوا في مذلة من الجند الظالمة لا ينقطع عنهم دون البربر أبدا...»[١٤].

وأي تفسير أو تأويل يمكن به فهم نص ابن خلدون معتمد المستشرقين الأول في كتابة التاريخ الجزائري خصوصا والمغربي عموما لما يذكر تسلسل ثورات البربر ابتداء من ثورة ميسرة سنة 132 هـ الى قيام دولة المرابطين ، وبعد أن يجز ذلك يقول «وركدت ريح الخوارج من البربر من افريقية وتداعت الى الاضمحلال. وانحصدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا للدين فضرب الإسلام بجرانه وألقت الدولة الضربية على البربر بشكلها وتقلد ابراهيم بن الأغلب التميمي أمر افريقية والمغرب من قبل هارون الرشيد ... وكانت لهم (للأغالبة) بافريقية والمغرب الدولة التي ذكرناها من قبل الى أن انقرض أمر العرب بإفريقية على زيادة الله... سنة تسعين ومائتين... وخرج كتامة على بني الأغلب بدعوة الرافضية.. فكان ذلك آخر عهد العرب بالملك والدولة بافريقية. واستقل كتامة بالأمر من يومئذ ، ثم من بعدهم من برابرة المغرب وذهبت ريح العرب ودولتهم عن المغرب وافريقية فلم يكن لهم بعد دولة الى هذا العهد، وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلا بعد آخر، تارة يدعون الى الأمويين الخلفاء بالأندلس، وتارة الى الهاشميين من بني

العباس وبني الحسن ، ثم استقلوا بالدعوة لأنفسهم آخرا...»[١٥].

إن هذا النص صريح في جعل الصراع في بلاد المغرب صراعا قوميا جنسيا: صراعا بين العرب القادمين من المشرق وبين البربر السكان الأصليين لبلاد المغرب، فهؤلاء يريدون الاستقلال بالسلطة لأنفسهم ولا يريدون هيمنة مشرقي عليهم، ورغم طول مدة الصراع بين الطرفين وصل البربر في النهاية الى تحقيق هدفهم في الاستقلال عن السلطة العربية المباشرة ثم عن سلطة الخلافة في المشرق والأندلس.

بهذا يفهم النص ويفسر، والى هذه الحقائق يريد أن يصل ، وهو ما فهمه المستشرقون فعلا ولعلهم أضافوا من عندهم حب البربر الخروج عن الإسلام والمسلمين وهو أمر لم يذكره أحد من القدماء وانما هو محض اختلاف يكشف أهداف المدرسة الغربية بوضوح : فالعلاقة بين المغرب والمشرق هي علاقة الإسلام أولا ثم علاقة العروبة ثانيا، وكلما توطدت وتعمقت علاقة الاسلام وجدت العروبة نفسها تسير في نفس الطريق والعكس غير صحيح في كثير من الأحيان «ووقائع التاريخ تشهد بأن المحرك الأساسي والدافع الرئيسي للتاريخ الجزائري منذ 15 قرنا يتمثل في العقيدة الإسلامية وينبع عن الاختيار النهائي والذي لا رجعة فيه لاجدادنا ، بالانتساب الحضاري لهذه العقيدة الإسلامية والالتزام بخدمة قضاياها»[١٦].

وأود أن أقول ، علينا ألا نحمل المدرسة الغربية كل تبعات وهنات التاريخ التي لم ترق لنا أو لا تنسجم مع طموحاتنا، فإننا مها انتقدنا المدرسة الغربية وغاليا ما يكون في ذلك غلو وغلاء، فان لسان حالنا ومقالنا لا يفتأ يسبح بحمد هذه المدرسة والعودة اليها والى افكارها وطروحاتها واستنتاجاتها نتبناها جميعا وننسبها الينا ونلعن مع ذلك أصحابها.

نعم لقد حرف المستشرقون الكثير من تراثنا وشوهوه ولكن «لا أحد ينكر دور الاستشراق في خدمة تراثنا»[١٧]. فإذا كانوا قد فسروا بعض قضايا التاريخ الاسلامي تفسيرا يخدم أهداف المدرسة الغربية. فلا أبالغ عندما أقول أن المصادر العربية الإسلامية هي التي أعطت لهم المادة الأولية وهي التي أوحت لهم بأفكارهم. ولا أريد أن أعمم القضية أو أبرئ ساحة هذه المدرسة ، وانما هي الحقيقة المرة التي يجب أن نعرفها وأن نواجهها ولا نهرب منها.

ان المدرسة الغربية لما تناولت الثورة البربرية في بلاد المغرب رجعت بالدرجة الأولى الى ابن خلدون وفهمت مقصده بعد التعمق في دراسة نصوصه ولم تعمل أكثر من إعادة ما قال في حلة جديدة تتناسب وفكر القرن العشرين، فإذا كان ابن خلدون قد وقف موقفا عدائيا من الخوارج والبربر الثوار فإن المدرسة الغربية ناقشت أسباب الثورة ولم تجد ما يبرر عدم وقوفها الى جانب الثوار.

وإذا حاولنا أن نحدد في نقاط ما جاء في المصادر العربية وفي كتابات المدرسة الغربية نلاحظ ما يلي:

أولا : في المصادر العربية:

1 ـ التحيز الظاهري للجنس العربي مما يوحي بالشعوبية خاصة اذا علمنا أن فترة ثورات الخوارج هي الفترة التي بلغت فيها حمى الشعوبية ذروتها من كلا الطرفين العربي وغير العربي.

2 ـ الوقوف الى جانب الخلافة ظالمة أو مظلومة اذ لا يحق لاحد أن يخرج على أولي الامر، فأغلب المؤرخين القدامى مدونون لسياسة الخليفة لا غير.

3 ـ التعصب المذهبي وهو مرض العصور الوسطى سواء أكان المصدر سنيا أو أباضيا أو شيعيا: الكل يدعي أو يعتقد أنه الفرقة الناجية.

4 ـ ذكر أسباب الثورة دون الإشارة الى أهدافها الغامضة.

5 ـ البحث عن أسباب هزائم الجند والتغاضي عن انتصارات الخوارج وانهزاماتهم وأسباب ذلك.

6 ـ عدم الاكتراث بالأحوال الاجتماعية لدى الرعية من البربر الخوارج.

أما في كتابات المدرسة الغربية فنلاحظ ما يلي:

1 ـ الوقوف الى جانب البربر والنظر الى ميسرة وكأنه شبيه كسيلة والكاهنة والخلط بين كلمتي عرب ومسلمين بحيث جعلوا العرب هي خير أمة أخرجت للناس وبالتالي فان العرب أساءوا السيرة الى الموالي بسبب عقدة التفوق هذه وجهلوا أو تجاهلوا أن خير أمة هي الأمة الإسلامية التي يشكل العرب جزءا منها.

2 ـ الحط من قُدسيّة الخلافة وقيمة الولاة واعتبارهم المسؤولين المباشرين عن أحداث الثورة.

3 ـ التعصب الى المدرسة الغربية وتبني منهجها القائم على الجوسسة على التاريخ ان صح التعبير خدمة للادارة الاستعمارية.

4 ـ ذكر أسباب الثورة والبحث عن أهدافها الغامضة بطريقة لا تخلو من الغلو.

5 ـ الاهتمام بالهزائم والانتصارات تفسير أسبابها ونتائجها لكلا الطرفين.

6 ـ الاهتمام بالأحوال الاجتماعية لدى الرعية من البربر الخوارج.

7 ـ الربط بين الحركة الخارجية في الإسلام بشمال افريقيا وبالحركة الدوناتية المسيحية قبل الإسلام بشمال افريقيا ، وأول من أشار الى هذه الظاهرة ماسكراي أميل (E. Masqueray) عند تحقيقه لكتاب السير لأبي زكريا الورجلاني، فجاء جوتييه فتوسع في الفكرة وتفلسف فيها وتبعه من جاء بعده من مؤرخي مدرسته بالإضافة الى بعض المؤرخين العرب المحدثين[17]. ولا أستطيع أن أقول هنا شيئا ما دمت لا أعرف بدقة الحركة الدوناتية أسبابها وعواملها وأهدافها ونتائجها ولكن أقول بداية لا نقبل عن طيب خاطر التفسير الذي جاء به جوتييه وبِلْ وغيرهما عن أسباب الحركتين وأنها تعود الى حب البربر الاستقلال في ظل الفوضى وأنهم يميلون الى التمسك بالشعائر دون الشرائع أو بالاحرى التمسك والاهتمام بالعبادات دون العقائد.

8 ـ ربط الثورة البربرية الخارجية بالبتر دون البرانس وبزناته الغربية خصوصا[18] ربما حتى تتوافق مع الحركة الدوناتية أو لاظهار الفروق بين البتر والبرانس وهذه سمة معلومة لدى المدرسة الغربية، واذا عدنا الى المصادر العربية لا نجد إشارة اطلاقا الى فرق بين البتر والبرانس في هذه الثورة ، البربر كلهم شاركوا في الثورة بدون استثناء في أنسابهم أو طبقاتهم الاجتماعية أو مواطنهم.

هكذا نلاحظ أن المدرسة الغربية اهتمت بهذه الثورة وحاولت فهمها رغم قلة المعلومات المتوفرة عنها خاصة فيما يخص طرف البربر الخوارج ، وكثيرا ما أشار مؤرخو الغرب الى هذه الظاهرة ، وبالتالي لما ترك ذلك المجال فارغا حق للباحث أي باحث

ارتداد العرب في اليمامة بعيدا عن الحجاز مركز الإسلام، اذ ثار بنو حنيفة وغيرهم من القبائل العربية ضد السلطة القرشية وما امتناعها عن دفع الزكاة الا لأن هذه الزكاة هي ضريبة تعني وترمز الى التبعية الى سلطة مركزية وبالتالي تقلص الحرية والاستقلال المعهودين لدى القبائل البدوية ، فقبيلة بني حنيفة وغيرها رفضت الاستسلام لسلطة قريش أو لسلطة المدينة لأنها رأت في ذلك إهانة الى كبريائها ، كيف تجرأ قبيلة على السيطرة على جميع القبائل أنه أمر لم يألفه العرب منذ عهود قديمة[23] ونفس هذا المعنى نجده أو يجب أن يكون عند تفسيرنا لارتداد برغواطة وغمارة وغيرهما ، وفي هذا الاطار لا غير يجب أن نضع تلك القبائل المرتدة من البربر.

أخيرا هذه بعض الأفكار التي طالما راودتني وأنا أتعامل مع المصادر العربية وكتابات المدرسة الغربية ، وهي اجتهادات باحث يعرضها أما الأساتذة فهو لا يقرر حقيقة بقدر ما هو يبحث عن الحقيقة فلعل التدخلات الكريمة من أصحاب الاختصاص في هذا العلم يقررون مع الباحث ما ذهب اليه أو يوجهونه وينبهونه الى مزالقه وأخطائه ويقومون أعوجاجه.

ولا شك أن البحث يحتاج الى مزيد من العناية وعمق الفكرة وشموليتها، ولعل الله يوفقنا الى الكتابة في موضوع ثورات الخوارج ببلاد المغرب لنتحدث فيه عن أسبابها وعواملها المساعدة وأحداثها المتداخلة وأهدا، الغامضة ونتائجها المحققة، وذلك عمل ضخم يحتاج الى صبر وعمق فكر ونزاهة باحث، فما أحوجنا اليوم أكثر من أي وقت مضى الى وضع الأسس العلمية الراسخة لمدرسة التاريخ الجزائرية ، ولا يسعنا الا أن نردد مع الدكتور محمود اسماعيل مقولته التي قالها منذ أكثر من عشر سنوات خلت: ان الأمل في مدرسة مغربية «يبرق في جيل جديد يعيد تقييم تاريخه ويتحرر فكرياً من آثار الثقافة الاستعمارية كما تحرر سياسياً»[24] ، ألا ترون معي أن هذا الأمل الذي عقد على «الجيل الجديد قد مرت عليه أكثر من عشر سنين وبالتالي فهو معرض الى التلاشي والخيبة، إن لم نُسرع في إقامة هذه المدرسة ماديا ومعنويا ولاقامتها أقدم هذه المقترحات السريعة:

ولإقامة المدرسة الجزائرية للتاريخ أقدم هذه المقترحات العامة:

1 ـ احياء الدراسات التاريخية وتطويرها وتوفير الوسائل الضرورية لذلك.

أن يصول فيه ويجول وهو ما قام به هؤلاء المؤرخون، فراحوا يؤولون النصوص ، ويقلبون المعاني ويستنتجون ما تهوى اليه نفوسهم ، ويستنبطون ما يريدون أو ما تريد منهم مدرستهم وكل هذا كان في غياب مدرسة مغربية للتاريخ أو بعبارة أخرى دراسات تاريخية مغربية تفند الأباطيل وترد على أصحابها.

فمن استنتاجاتهم مثلا أن البربر ثاروا ضد الوجود العربي وضد الإسلام وقد سبق أن ذكرت أن المصادر العربية هي التي أوحت اليهم بذلك، كما توحي الينا جميعا ، فإذا كان المستشرقون يثبتون ذلك بالأدلة ، فأننا نحن معشر الباحثين جميعا ، ننفيه في أبحاثنا بصريح العبارة ولكننا نؤكده بصريح الإشارة تارة وبالتواءات العبارة تارة أخرى[15].

والرأي عندي أن البربر فعلا ثاروا ضد التواجد العربي وارتدوا عن الإسلام ولكن المسألة هنا تتعلق ببعض القبائل لا كلها. والثورة موضوع هذه الدراسة لم تهدف الى هذا اطلاقا وانما هي ثورة بربرية خارجية ضمت جميع القبائل أو على الأقل السواد الأعظم من القبائل المغربية وأعلنت تمردها عن الخلافة القائمة وعن الولاة الجورة ، فالبربر لما ثاروا انما ثاروا ليقولوا «لا حكم إلا لله» أي أن الفكر الخارجي المعروف عنه التشدد في الدين، احتواهم فعمق ايمانهم بحيث رأوا أن حملة الإسلام اليهم رعاة وولاة وخلفاء قد انحرفوا عن سواء السبيل ووجب عليهم الخروج ضدهم لانهم مغتصبون للحكم لا يحكمون بما أنزل الله فهذه هي مبادئ الخوارج الاساسية اعتنقوها وأخلصوا اليها، وعملوا بالنفس والنفيس على احياء الخلافة العادلة خلافة الراشدين والقضاء على المغتصبين من بني أمية وبني العباس على حد سواء لذلك لم تهدأ ثورتهم بعد انهيار الأمويين سنة 132 هـ/750 م.

أما البربر الأقلية التي ثارت أو تمردت ضد التواجد العربي وارتدت عن الدين الإسلامي مثل غمارة وبرغواطة[20] فإن الإسلام لم يشملها ولم يتعمق فيها وانما تركها الفاتحون في مواطنها الخوف والرعب كما تقول جميع المصادر[21] ، ولم يتركوا الإسلام الذي يعني الأمن والطمأنينة وهذا جانب من جوانب انحراف الفتوحات عن مسارها الحقيقي المتمثل في التبشير بالإسلام وهو سبب أيضا غير مباشر لقيام الثورات ببلاد المغرب، وينبغي أن نفسر ارتداد هذه القبائل[22] وظهور المتنبئين فيها تماما مثلما نفسر

2 ـ التمكن من المخطوطات والوثائق والمصادر النادرة واستنساخ ما هو موجود في المكتبات الخاصة اذا تشبث أصحابها ببقاء الأصل عندهم واثراء المكتبات العامة التي تفتقر الى الكثير من مصادر التاريخ الجزائري.

3 ـ إعادة النظر في المكتبات العامة عموما: تنظيما وترتيبا للكتب واشرافا ومشرفين فقد آن الأوان ليتولى المكتبات أخصائيون يعرفون قيمة الكتاب والمكتبة كما يعرفون قيمة البحث والباحث.

4 ـ العمل على توجيه طلبة الماجستير والدكتوراة الذين يريدون الاختصاص في التاريخ الجزائري توجيها يتماشى ومتطلبات كل مرحلة.

5 ـ وضع حد للمشاكل الاجتماعية والعلمية والمادية التي تأخذ قسطا كبيرا من وقت الباحث في التاريخ الجزائري حتى يتفرغ للبحث لا غير.

6 ـ تنشيط وحدات البحث وضبط أوقاتها ومراقبة أصحابها ومساعدتهم كلما دعت الضرورة ذلك.

7 ـ تنشيط حركة التأليف التاريخي الفردي والجماعي بتوفير المحفزات والقضاء على المثبطات.

8 ـ الاكثار من الملتقيات التاريخية العلمية دقيقة الموضوع، محدودة الأهداف مع طبع محاضراتها وأهم التدخلات فيها.

9 ـ الاكثار من الموائد المستديرة والندوات التاريخية ذات الموضوع المحدد وبث ذلك اذاعيا وتليفزيونيا وصحافيا.

10 ـ الاكثار من المجلات التاريخية المتخصصة الشهرية والفصلية مع الالتزام بتواريخ صدورها بدقة.

11 ـ تناول دراسات المدرسة الغربية وقضايا التاريخ الجزائري بالدراسة والبحث الواحدة بعد الأخرى، لاثبات ما شهدت به الأعداء، ولتنفيذ مغالطهم ومزالقهم بالأدلة العلمية الدقيقة وهذا هو ما تسميه بإعادة كتابة التاريخ الجزائري فهذه العلمية في حد ذاتها سوف تفرز افكارا تكون أساسا للمدرسة الجزائرية للتاريخ.

(12) توفير المطابع الكفأة، وضمان طبع جميع البحوث والدراسات التاريخية في وقت معقول يكون محفزا للباحثين.

13 ـ ضرورة وضع مادة التاريخ الجزائري في كل اختصاص من اختصاصات الجامعة، ترافق الطالب الجامعي من سنته الأولى حتى سنة التخرج ويكون لها من الأهمية ما يكون لمادة الاختصاص لا فرق.

14 ـ الاهتمام بتعليم التاريخ الجزائري في المدارس والثانويات، واشتراط ادراجه في الامتحانات الوطنية كالأهلية والبكالوريا وذلك بعد رفع مستوى الأساتذة بالتربصات.

15 ـ طبع ونشر الكتب والكتيبات والمجلات الخاصة بالأطفال مع الاهتمام خاصة بقضايا التاريخ الجزائري من القديم الى المعاصر بأسلوب سهل مشوق يتناسب ومستوى التلاميذ وأذواقهم.

لتحقيق هذه الغايات وغيرها ينبغي ضبط الأهداف القصيرة والمتوسطة والبعيدة المدى، لوضع أسس متينة ومنهج دقيق للمدرسة الجزائرية للتاريخ وحتى نحاسب أنفسنا في نهاية كل مطاف.

أخيرا هذا ما بدا لي اليوم ولعلني أرى رأيا آخر في غد والله الموفق والسلام.

الهوامش:

(3) عن ثورات الخوارج أنظر: خليفة بن خياط: تاريخ، دمشق 1968، ج 2، ص 525 وما بعدها، الرقيق: تاريخ، ص 109 وما بعدها، ابن عذاري: البيان جـ 1، ص 51 وما بعدها، ابن خلدون: العبر بيروت 1968م م 6، ص 220 وما بعدها، ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب بلا مكان وتاريخ الطبع ص 293 وما بعدها: أبو زكرياء: سير الأئمة ـ الجزائر 1979 ص 37 وما بعدها ـ ابن الأثير الكامل، دار الفكر بيروت 1978 م ج 4. ص 222 وما بعدها. دوزي: تاريخ ملكي اسبانيا. ترجمة حسن حبشي وآخرين. دار المعارف القاهرة 1963 م ص 138 وما بعدها.

Gautier E.F.: Le passé de l'Afrique du Nord, Paris 1964, pp. 267-284.
George Marçais: La Berberie Musulmane et l'Orient au Moyen âge. Paris 1946, pp. 43-53.

الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي ترجمة عبد الرحمن بدوي بيروت 1981، ص 145 وما بعدها، شارل أندري جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي وآخر تونس 1978 م، ص 36 وما بعدها، وانظر كذلك: حسن مؤنس: ثورات البربر في افريقية والأندلس مجلة الآداب، مصر 1948 م، المجلد العاشر ص 143 وما بعدها، محمود اسماعيل: قضايا في التاريخ الاسلامي دار العودة بيروت 1974 م، ص 92 وما بعدها، ابراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، بيروت 1979 م، ص 349 وما بعدها.

(4) الضبي أحمد بن يحيى: بغية الملتمس ـ مجريط 1884، ص 131.

(5) ارجع الى محمود اسماعيل قضايا في التاريخ ، ص 92 وما بعدها.

(6) الرقيق: ص 109.

(7) ابن خلدون: م 6 ص 239ـ240.

(8) المصدر نفسه، ص 220ـ221.

(9) لواب بن سلام: الاسلام وتاريخه ، دار اقرأ بيروت ، 1986، ص 150.

(10) ابن عذارى، ج 1، ص 52.

(11) Gautier, p. 275.

(12) Gautier, p. 271.

(13) ابن سلام، ص 154.

(14) ابن خلدون، م 6، ص 220ـ229.

(15) سعيدوني ناصر الدين ـ نحو نظرة جديدة لتاريخنا الجزائري، مجلة الثقافة عدد 24، الجزائر 1984، ص 46.

(16) محمود اسماعيل ـ الحركات السرية في الاسلام، بيروت 1973م، ص 195.

(17) انظر مثلا حسين مؤنس: ثورات البربر ـ المقال المذكور آنفا.

(18) يوافق بعض الباحثين العرب المحدثين ما ذهب اليه جوتيه في هذه القضية أنظر حسين مؤنس: ثورات البربر ومحمد بن عميرة: دور زناته في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي، الجزائر 1984، ص 91.

(19) انظر مثلا محمود اسماعيل: قضايا في التاريخ الاسلامي ص 104، 106، 116، 122، 129، 136، حسين مؤنس: ثورات البربر، رفعت فوزي عبد المطلب: الخلافة والخوارج في المغرب العربي ـ القاهرة 1973، خاصة صفحة 196، 197 مصطفى أبو ضيف: القبائل العربية في المغرب، الجزائر 1983 م ص 41 وما بعدها، وغيرها من المراجع العربية الحديثة.

(20) البكري أبو عبيد : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر 1857 م ص 100 وما بعدها ص 134 وما بعدها.

(21) الرقيق تاريخ، ص 108، ابن عذارى البيان ج 1 ص 51، ابن الأثير: الكامل، ج 4 ص 222.

(22) يذكر ابن خلدون أن البربر ارتدوا عن الاسلام اثني عشر مرة، العبر، م 6، ص 205.

(23) أحمد بن ابراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، مصر 1968، ص 137ـ149.

(24) محمود اسماعيل: قضايا في التاريخ الاسلامي: ص 105.

موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني

مولاي بالحميسي

كانت الجزائر منذ أن ألحقت بالمملكة العثمانية سنة 1518 م، موضوع اهتمام بالغ ودراسات متواصلة وأبحاث مختلفة من طرف الفرنسيين ، ولم يحظ قطر من أقطار شمال افريقيا بما حظيت به الجزائر من إنتاج أدبي وتاريخي وعسكري[1].

ويعود السبب في ذلك الى ما أثاره نظام البلاد الجديد في العالم المسيحي من حيرة وما لفته من أنظار لدى الساسة والقادة ورجال الكنيسة والمسؤولين على البحريات. فلا غرابة إن تعددت التآليف وتنوّعت حتى ملأت الخزائن.

لقد خرج المغرب الأوسط في أوائل السادس عشر من عزلة أنهكته وتقوقع أنسى الناس في وجوده وما هي الا سنوات معدودة حتى تحوّل الى دولة ذات حدود مرسومة وعاصمة حصينة وجيوش عديدة وبحرية ناشطة أكسبتها وزناً دوليا مرموقا وذات نظم سياسة جديدة بالنسبة لما كان مألوفا في أوروبا ويضاف الى هذا كله أن الحكم الجديد تحدّى بنجاح الدول المسيحية التي اضطرت الى محاربته أو مهادنته أو شراء محالفته[2].

وكلما زاد نفوذ الجزائر على الساحة الدولية، أو في دائرة الأبيض المتوسط كلما تحول اهتمام الغربيين الى تخوف أو الى سخط كانا أقوى دافع الى تتبع كل ما يحدث في

بلادنا ليصبح موضوع دراسة وتحليل ، علّهم يجدون الثغرات لشن الغارات...

وينقسم موقف المؤرخين والكتاب الفرنسيين الى قسمين من حيث الأهداف:

أ ـ ما ألّف قبل 1830. لقد وجدت الأقلام في تلك الفترة ، المادة الخام في تقارير القناصل المقيمين بالجزائر ومكاتبات الجواسيس ومذكرات الرهبان ورسوم التجارة وتصريحات الأسرى وتقاييد الرحالين فتعرضت لجانب من جوانب تاريخنا الحديث ومن طالع هذا الأنتاج الضخم وأمعن فيه النظر تجلت له النقائص العديدة والسلبيات الكثيرة:

1 ـ فإن النزعة السائدة هي الكراهية للجزائر، وقد ملأ كتبهم الجو المعادي والموقف المعاكس لكثرة الأزمات وتوتر العلاقات بين الجزائر ومعظم الأمم الغربية أدت الى حروب ضارية حتى أصبح العصر عصر عداء وحقد ووعيد وتهديد صُبَّ في كتب الأدب والتاريخ ودبّت السموم في صفحاتها والمرارة بين سطورها فتراكمت الأفكار المسبقة والنوايا المغرضة ومال أصحابها الى الشتم والازدراء والاستفزاز والاحتقار. فالعاصمة في مؤلفاتهم «حجر اللصوص وعش الصعاليك وجحيم النصارى وجمهورية قطاع الطرق» ومثل هذا كثير جدا[د] . وحكام البلاد «غيلان إفريقيا ، وهم أهل استبداد. معدومو الأخلاق . همّهم الوحيد هو طلب اللذة ونهب الأموال. وأمّا رُيّاس البحر وعُظماء البحرية فإحصاء عبارات الطعن فيهم وسبّهم يتعذّر... فهم المتعطشون للدماء وهم رعاع القوم وحُثالة الأتراك وهم القراصين الناهبون وهم ... وهم.. وفات هؤلاء المؤرخين ان الحثالة في أوروبا كانت تصل الى أعلى المناصب وأخطرها. فهذا الشوفاليي بول (Paul) لم يكن سوى ابن غسّالة بمدينة مارسيليا قد وُلد على متن زورق وعندما كبر واشتهر بمحاربته للمسلمين عُيّن بعد 1638 قائدا للأسطول. وهذا ميشال ناي (Ney) كان صانع البراميل قبل أن يمسي مارشال فرنسا بعد ثورة 1789. وهذا الاسباني بارسيلو (Barcello) اشتهر بالقرصنة والفتك والتعدّي قبل أن يُعيّن أميرالا على الأسطول الاسباني.

وتفنّن هؤلاء المؤرخون في وصم الجزائريين وقالوا إنهم سرب من النسور الجائعة والسّوقة الشنيعة ، غريزتهم النهب الطمع[ه]. أما قراصنتهم أمثال جان بار (Jean Bart) ودوكاس (Ducasse) وغيرهما ومثل الانكليزي دراك (Franck Drak) الذين سلطوا الضربات على سكان البرازيل والرأس الأخضر فهم أهلٌ للتمجيد والتعظيم والإكرام. فهم أبطال تغنّى بأعمالهم الشعراء وخلّد ذكراهم النحاتون وقالت الكنيسة إنهم جنود الله وأنصار المثل العليا ومليشيا المسيح...

ولهذا التحيّز الأعمى ما يفسره. فالصرّاع الديني قائم ورجال الكنيسة يملون ما يريدون ومصادر المؤرخين رُهبان غلاة أو أسرى حرب في حاجة الى شهرة أو ضباط يحلمون بترقية أو قناصل عُرفوا بالطيش. وهكذا أُطلق العنان للأقلام حتى تستطيع أوروبا أن تجنّد طاقاتها بعد أن ملأ الرعب قلبها وتنقض على زعيمة المقاومة الإسلامية في الحوض الغربي من الأبيض المتوسط وكان المؤرخون ينظرون الى إيالة الجزائر وكأنها منبع الأخطار ومصدر كل شرّ وموطن الأمراض.

كان الأميرال الانكليزي اكسموث (Exmouth) قائد حملة 1816 على مدينة الجزائر يقول متحدّثا عن جنوده : «المحاربون من أجل قضية المسيحية النبيلة» واذا تحدث عن الجزائريين قال: «حشد من المتعصبين»[و] .

وهكذا كان الجو في أوروبة عامة وفي فرنسا خاصة: بغض الجزائر بلادا وعباداً (L’Algérophobie).

2 ـ ورغم تتبع كل ما كان يجري في بلادنا فيُلاحظ سكوت عن أشياء هي من الأهمية بمكان او الاكتفاء بالإشارة الخفيفة مع الميل الدائم الى التشويه.

لقد أغارت فرنسا مراراً على الجزائر وانهزمت في كل مرة[ز] . وأغارت غيرها من الدول عدة مرات وآلت المحاولات بالفشل[ح] ، فلم ترد في كتب الفرنسيين الا كلمات موجزة في شأن هزائم المغيرين واكتفى أصحابها بالتلخيص الجاف والتحليل الغير العلمي. ومن المضحك تفسيرهم لأسباب الفشل ، فلا يعيدون نصر المسلمين

على النصارى لشجاعتهم واستعدادهم ومقاومتهم بل لهيجان البحر.. وسكون الرياح... وانتشار الأوبئة أو غضب الربّ على ما ارتكبه المسيحيون من أخطاء وذنوب والى السحر الذي يلجأ اليه الجزائريون في مثل هاته الظروف الى تحالف هؤلاء مع العفاريت..

كما سكت هؤلاء المؤرخون على ما كانت ملوك أوروبا وأمراؤها وعظماؤها تقدمه من إتاوات وهدايا لكسب صوت الجزائر والحصول على حيادها في النزاعات الناشبة بين دول الغرب ولم يفتحوا ملفات عديدة منها مأساة الأسرى المسلمين ، وسلّطت كتبهم الأضواء على العاصمة دون غيرها. فوصفوها حيّاً حيّاً ونهجا نهجا، ووقفوا عند هندستها وبينوا عُمرانها ونشاط مرساها ورواج تجارتها ، غير أنهم اقتصروا على المدينة وضواحيها في غالب الأحيان، وأهملوا البقية وتمخض عن هذا الاختيار تكرار مملّ وإعادة روتينية حتى ان من طالع كتبا كثيرة لا يشعر بفرق أو جديد. فالروايات والأفكار والأمثلة والطريقة شياع بينهم وأمر مشترك، وان اختلفت العناوين وذلك أن الدوافع بقيت هي هي والأهداف لم تتغير والمواقف لم تتطور ويجد القارئ ذلك الحماس الديني وذلك الاحتقار المطلق لكل ما يخالف أذواقهم وميولهم ومصالحهم وتصوّرهم كما يجد القارئ ذلك الحلم الذي راود الكثير من المؤرخين وهو إزالة الجزائر من المعمورة أو على الأقل انهاكها واذلالها. وقليلون هم الذين حاولوا الاجتهاد والابتكار وفكّروا في التحرر من القول المُعاد والأسلوب المألوف والصور الموروثة ولذا لا نجد الاستقلال في الحكم والجرأة في تحدي التيار السائد آنذاك إلا قليلا.

وقد لاحظ دي غرامون (De Grammont) على سابقيه من مؤرخي الجزائر (وعلى من عاصره) أنهم اكتفوا بالنقل عن بعضهم بعضا "ويبلغ هذا ذاك أقوال أوهم الذي بصفته اسبانيا حكم بقساوة شديدة على تصرفات الباربارسك متجاهلا أن مواطنيه كانوا سبّاقين لمثل هته الأعمال على شواطئ المغرب"[12].

ب – الفترة بعد 1830.

ما أن تم الاحتلال حتى أقبلت جماعة كبيرة على دراسة تاريخ البلاد منذ أقدم

العصور فتهاطلت الدراسات تهاطل الأمطار غير أن الكم غير الكيف!

وسواء أكانت البحوث مقصورة على موضوع أو تاريخا عاما فقد كان لهؤلاء السادة حساب مع الترك حاولوا أن يصفّوه ومهمة سارعوا للقيام بها.

ففي التاريخ العام جنى على الفترة العثمانية الإيجاز. ورغم ان الحقبة طويلة والحوادث هامة داخل البلاد وخارجها ورغم التغييرات الجذرية والنظم الجديدة والعلاقات الخارجية المتواصلة مع أوروبا، فقد تميزت الدراسات بالسطحية وعدم الاكتراث[13] ، صفحات معدودة بين المئات. يحتوي كتاب ڤالبير على 630 صفحة ولكن 70 فقط خصّت للعهد العثماني واكتفى البيرتيني بـ 11 صفحة من بين 375

ونتج عن هذا التلخيص بل هذا الطمس عدم التوازن بين الفترات التاريخية فحظيت اثنتان بالعناية الكاملة والبحث المفصل، وهما العهد الروماني والعهد الفرنسي، وعانت اثنتان من الأهمال حتى اختنقتا بين الروماني والاستعماري[14].

أما المحتوى – مع قلّته – فيدور الكلام فيه على الأقلية الحاكمة وعلى تعسف الحكام وانتشار الجهل والمرض والفقر. فلا حديث عن مواضيع أخرى مثل الطبقات الاجتماعية ، أو الحياة الاقتصادية أو الثقافية أو العمران أو التجارة أو الصناعة الا ما ورد عرضا[15]

وميزة هذا الانتاج هو ذلك الميل المتواجد عند معظم مؤرخي القرنين التاسع عشر والعشرين والمتمثل في لتركيز على العنف والحروب الداخلية والحوادث الدامية والثورات المحلية وعلى الانقلابات والاغتيالات والمؤامرات والفتن والزوابع السياسية وعدم الاستقرار وفقدان الأمن وكأن الجزائر كانت قائمة على بركان أو في طريق عواصف. فهذا داي يُقتل وذاك يُخنق وثالث يُسلخ وهذا باي يُصادر وآخر يُعذّب بسبب ما جمع من المال وهذه طائفة تنقض على طائفة. فلا مجال في مؤلفاتهم لأيام كانت مشرقة ولا لعهد كان زاهرا، ولا ترجمة لعظيم ساس وقاد موفقا[16] . وكأن البلاد لم تُرزق قط شخصيات سمت بالمواهب والحكمة والحزم وحُسن التدبير الى أعلى الدرجات. ولم يقدم الفرنسيون على الدراسة الموضوعية لهيمنة الجزائر على الأبيض

المتوسط ولا للمنافسة البريطانية الفرنسية لكسب قادة الجزائر ومسالمة البحرية.

وشاع المنهج بين الكتّاب حتى أصبح أقبح عيب وأخطر مرض[14] إذ دبت في الكتب التاريخية حكايات واهية وخرافات مزرية وأحاج صبيانية واعتقد أصحابها أنها التاريخ ! فهذه قصة طبّاخ متواضع أمسى باشا البلاد وهذه حكاية عاطفية لفتاة أوروبية جيء بها للجزائر فتزوجها الدّاي!

وإذا كان الهدف من كتب التاريخ قبل 1830 يرمي الى إثارة سخط الأوروبيين على الجزائر، واشعال نار الحقد واعداد جوّ الحروب الصليبية وإرسال السفن لقصف العاصمة، فإن الغرض بعد النكبة الكبرى كان الحطّ من شأن الأتراك والطعن في تظلمهم والفتك بسمعتهم وجاههم ومحو كلّ ما تبق لهم من آثار وما قام من اعتبار.

فإن كانت المدرسة الأولى مهدت الاحتلال فإن الثانية برّرت الغزو الفرنسي وحوّلته الى ضرورة لإنقاذ الأهالي التعساء من مخالب الطغاة والدفع بهم الى فردوس الحضارة وجنة التقدم وتحويل البؤساء الى سُعداء.

ورغم ما توفر لدى هته الفئة من المؤرخين من مصادر عديدة ومتنوعة فإنهم اتخذوا موقفا وبقوا متمسكين به:

1 ـ استغلال ما يخدم مصالحهم من المصادر وما يحقق له الغاية ثم تجاهلوا كل ما يعاكس ذلك أو هو في صالح الفترة المذكورة ورجالها وما أكثر الوثائق في دور الأرشيف والتي لو استخدمت لوصلتنا كتب تاريخ غير ما تركه لنا الفرنسيون وتمتعنا بمؤلفات خالية من التعصّب والحشو والهذيان والتحيّز...

وأكبر خطأ ارتكبه هؤلاء الكتّاب احتقارهم المصادر الإسلامية العربية منها والعثمانية بدعوى أنها غير مجدية أو في حاجة الى الدقة أو أنها تفسح المجال واسعا للافتراض».

وتركوا النصوص التاريخية والجغرافية والأدبية العربية لعجزهم على اطلاعها واستعمالها وفهم دقائقها وصيغها وصورها وعبقريتها واكتفوا بما هو متداول بينهم من

النصوص الغربية. واعترف أحد الغلاة منهم وهو بوايي (Boyer) بالجمود والفشل اذ قال: «ان معرفتنا للجزائر العثمانية لم تتم ولم تتقدم منذ 1887 سنة صدور كتاب دي غرامون» ثم يضيف إن كتب هذا المؤرخ وكتب زميله مرسيي (Mercier) اقتصرت على سرد الوقائع التاريخية وقد تجاوزتها الأحداث الآن»[16].

* * *

غير أن ما أبديناه من انتقادات وملاحظات وتحفظات ليس معناه رمي هذا الانتاج الضخم في سلّة المهملات. فهناك قسم لا نستغني عنه أبدا. ففي كتبهم شهادات وأوصاف دقيقة وتواريخ مضبوطة واحصاءات وقوائم الحكّام وتحليلات لحوادث خطيرة وتقارير وتفاصيل لا تجدها في غير هذه الكتب.

والقسم الثاني في حاجة الى تعديل وتجديد. ولم أر ضرورة أسرع من ضرورة مراجعة ما قيل في شأن هذه الفترة لتراكم الأغلاط المقصودة أو غير المقصودة وهيمنة التحيّز. ولا يمكن تحقيق هذا العمل الا بالبحث المتواصل عن المصادر الهامّة عبر البلدان التي كانت لها علاقات مع الجزائر. فدور الأرشيف هناك كنز مكنون بالنسبة للبحرية الجزائرية وحقيقة أمرها ورياس البحر والحرب الاقتصادية التي يسمونها القرصنة ودور الجزائر في مناصرة المسلمين في الأندلس واليونان والاسرى الجزائريين الذين ذهبوا ضحية الغدر والتعصب كما ذهبوا ضحية مؤامرة سكوت المؤرخين الغربيين[15]. والقسم الأخير الحامل للتضليل الرامي الى تشويه الحقائق ومسخ الوقائع فلم نصبح في حاجة إليه.

وبهذه الطريقة ـ طريقة الفحص والبحث والاختيار ـ يعود للحقبة التي بدأت بخير الدين وانتهت بحسين داي شأنها بفضل الدراسات الموضوعية والشاملة سيّما اذا تكاملت المصادر الغربية والمصادر الإسلامية.

(1) راجع :

Turbet Delof, Bibliographie critique du Maghreb dans la littérature française 1532-1715. Alger, SNED 1976.

(2) راجع :

Belhamissi Moulay, Marine et Marins d'Alger à l'époque Ottomane 1518-1830, Thèse d'Etat, Bordeaux 1986.

(3) راجع :

Arvieux (Ch.d'), Mémoires, V, p. 83 et 288 Dan (Le Père), Histoire de Barbarie... p. 299
Shaw, voyages,... p. 214.
Pananti, Relation d'un séjour à Alger, p. 572 Shaler, Esquisse de l'Etat d'Alger., p. 53.

(4) راجع :

Paul (Chevalier), Mémoires... cité par Charles-Roux, La France et l'Afrique du Nord... p. 145.

(5) راجع : Revue Africaine, 1880, p. 148.

(6) في القرن السابع عشر وحده نذكر:
1664 الغارة على جيجل ـ 1682 و 1683 و 1688 الغارات على الجزائر العاصمة.

(7) الغارات الاسبانية: 1516 و 1518 و1541 و1775 و1782 و1783 ـ والغارات الانكليزية 1620 و1816 و1824.

راجع:

Belhamissi Moulay, Marine et Marins d'Alger (Thèse de Doctorat) III, pp. 322 à 339.

(8) من بين الكتب العديدة التي سارت على هذا المنوال:

- Dan, Histoire de Barbarie...
- Laugier de Tassy, Histoire d'Alger...
- Gramaye, Les cruautés exercées sur les chrétiens en la ville d'Argier en Barbarie.
- La Motte (Philémon), Etat des royaumes de Barbarie.., la manière dont les Turcs traitent les esclaves...

(9) راجع : De Grammont, Histoire d'Alger... p. 51.

(10) راجع:

Galibert, l'Algérie ancienne et moderne depuis les permiers établissements des carthaginois jusqu'à l'expédition du Général Randon en 1835.
Wahl (M.), L'Algérie (1897).

Filias (A), L'Algérie ancienne et moderne 1875.
Bernard, L' Algérie 1929.
Albertini, Yver, Marçais, Pringeant, L'Afrique du Nord française dans l'histoire 1941.

(11) راجع : Clavssoles, L'Algérie pittoresque, Paris 1843, 2 vol.
خصّص الجزء الأول لقرطاج والوندال والعرب والأتراك، والثاني للحملة الفرنسية ، وحذا حذوه كات (Cat) في كتابه : Petite histoire de l'Algérie, Tunisie et Maroc, Alger, 1889, 740 pages.
لم تنل الحقبة العثمانية من هذا الكتاب أكثر من عشرين صفحة.

(12) راجع :

Renaudot (M.) Tableau du royaume de la ville d'Alger et des environs, Paris 1830.

(13) راجع مقالنا: «إرشاد الحيران في أمر الداي شعبان» مجلة الدراسات التاريخية عدد 1986/2 ص 39 ـ 56.

(14) راجع : Mercier (E), Histoire de l'Afrique septentrionale... III, Paris 1888-1889.

Faure Biquet (Gl), Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane, Paris 1905.

(15) راجع من بين هذا الصنف: Dubois Fontanelle. Anedated algériennes, Paris 1775.

(16) «Textes jamais précis et laissant une grande part à l'hypothèse».
(17) «Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger» Revue Historique, 1966, pp. 297-316.

(18) يوجد تحت الطبع كتاب لنا عنوانه: الأسرى الجزائريون وأوروبا المسيحية 1518 ـ 1830. وقد اعتمدنا فيه أساسا على أرشيف فرنسا وإيطاليا.

مكانة مصادر الأرشيف الجزائري
في إعادة كتابة تاريخ الجزائر
في العهد العثماني

ناصر الدين سعيدوني

إن العهد العثماني من تاريخ الجزائر، فضلا عن كونه المعبر الزمني الذي حافظ على التواصل الحضاري للأمة الجزائرية، ضمن رابطة الخلافة العثمانية، فانه في حد ذاته يتميز في نطاق السياق العام للتاريخ الجزائري بكونه فترة حاسمة ارتبطت بدايتها في مستهل القرن السادس عشر ونهايتها في الربع الأول من القرن التاسع عشر بمحاولتين للغزو الأجنبي اتصفتا بدوافع صليبية وتميزتا بأهداف استعمارية، كما أنه خلال هاته الفترة التي استمرت أكثر من ثلاثة قرون (1518 ـ 1830) تم تبلور كيان الشعب الجزائري واستكملت الدولة الجزائرية الحديثة أسسها ومقوماتها فأصبح لها، عاصمة قادرة وحدود مستمرة وأجهزة ادارية ملائمة لطبيعة العلاقات الاجتماعية والأنظمة الاقتصادية، وعرفت هذه الحقبة نوعا من توازن القوى بين الجزائر والدول الأوروبية نتيجة استقلال الجزائر عن الدولة العثمانية وتزايد قوتها البحرية ونفوذها السياسي في حوض البحر المتوسط.

كل هذه الاعتبارات والظروف تدفع الدارس الى المزيد من البحث قصد التعرف على الأحداث التي عرفتها هاته الفترة والخروج منها بصورة واضحة الملامح لمختلف أوجه الحياة الداخلية ولطبيعة العلاقات الخارجية للجزائر في العهد العثماني، وهذا ما يتطلب قبل كل شيء تجاوز المصادر التقليدية الأجنبية منها والمحلية للبحث

عن مصادر أساسية ومراجع أولية، والتي لا تتوفر الا بالرجوع الى وثائق الأرشيف الجزائري.

انطلاقا من كل هذا، سوف يتركز تدخلنا على معالجة نقطتين رئيسيتين، الأولى تتعلق بأهمية الأرشيفات بالنسبة للفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، والثانية تندرج ضمن امكانية استغلال الأرشيفات الأجنبية باعتبارها مصدرا مكملا للوثائق المحلية. فبالنسبة للنقطة الأولى نلاحظ أن هناك اهمالا واضحا وتجاهلا يكاد يكون متعمدا لودائع الأرشيف الجزائري اذ كل ما استغل من وثائق أرشيفية خاصة بالفترة العثمانية لا يتعدى في الواقع، الوثائق الغربية ولا سيما الفرنسية منها، وبالخصوص ما تضمنته أرشيفات محفوظات ما وراء البحار بايكس آن بروفانس والأرشيف الوطني الفرنسي، وكذلك أرشيف وزارة الحربية بفنسان (باريس) والغرفة التجارية بمرسيليا، مع العلم بأن هناك وثائق عديدة تهتم بماضي الجزائر العثمانية في العديد من دور الأرشيفات العربية والأوروبية مثل دار الباي بتونس وعابدين بالقاهرة والخزانة الملكية بالرباط والسمنكاس ببلد الوليد باسبانيا ومالطة والفاتيكان والمدن الايطالية (نابولي، جنوة، ليفورنة، باليرمو) وراغوست بيوغوسلافيا. رغم هذا فان كل ما استغل من الأرشيفات الأوروبية لا يتجاوز في الواقع العلاقات الدبلوماسية ومعاهدات السلم والملاحة والمبادلات التجارية والامتيازات الجمركية. بينما الجوانب المهمة من أحداث داخلية ونشاط اقتصادي وعلاقات اجتماعية لا تجد لها الا عرضا موجزا وتناولا سطحيا والماما مقتطفا مما دفع الكثير من الباحثين الى الاعتماد أساسا على الكتب المطبوعة والتقايد الأوروبية المنشورة، فنكاد لا نجد أي كتاب تعرض لتاريخ الجزائر قبل الاحتلال ولم يعتمد على ما أورده الرحالة والتجار ورجال الدين والقناصل ومبعوثو الدول الأوروبية ابتداء من هايدو D. Haedo وانتهاء بشالر W. Shaler ومرورا بكل من الآب دان P. Dan ، داپر Dapper ، دافيتي Davity ، درائدا D'Aranda ، سيور دولا كروا S. de la Croi ، سانسون Sanson ، دابفيل D'Appeviele ، فاي Fa ، غاسبار Gaspart ، دانكور Dancour ، شاو Sha ، بايصونال Peysonnel ، فانتوردو بارادي F. de Paradis ، بوتان Boutin ، تانفيل Thainville وغيرهم.

كما أنه يندر أن نجد قارئا لأحداث هاته الفترة لم يعد الى ما سجله أو جمعه حمدان خوجة وبيليسي Pellissier ، جانتي دور بوسي G. de Bussy ، وروزي Rozet ، واسترهازي Esterhazy ، وروبان Robin ، فلاندال Flandin ، وفيرو Feraud ، ودوني Dennie ، ورين Rinn ، ودوما D'Omas ، وتروملي Trumelet ، وبلانتى Plantet ، أو لم يرجع الى ما ألفه مرسي Mercier ، فـايـسـات Faysettes ، ومـاسون P. Masson ، واسكير G. Eskoe ، واميري M. Emerit ، وايفيير Yver ، وكولومب Colombe ، وفالنسي Valensi ، وبواي Boyer ، . وياكونو Yacono ، وجوليان Julien وغيرهم.

على أن الشيء الملاحظ، هو أن هاته المصادر ، مع أهميتها ومعاصرتها للاحداث الا أنها لاعتبارات ظرفية وموضوعية لا تمكننا من تجديد نظرتنا للعهد العثماني وإعادة صياغة أحداثه بمنظور مبتكر وتصور موضوعي ، بل تؤدي بنا في غالب الاحيان إلى إعادة صياغة الأحداث من خلال نظرة سطحية قد لا تتماشى والواقع التاريخي في حد ذاته، وهذا ما يدفعنا الى الجزم بأنه من الضرورة إذا أردنا أن نتجاوز ما اعتمدنا عليه من سد الفجوات وملء الفراغات الى تصور متكامل، وتتخلص من اجترار المعلومات التي تضمنتها تلك المصادر التقليدية الى دراسات مبتكرة في تناولها للمواضيع والاشكاليات التاريخية، يجب علينا قبل كل شيء، الرجوع الى الأرشيفات الجزائرية لأنها هي وحدها القادرة على مدنا بالمعلومات الكافية عن مختلف الجوانب التي ظلت الى حد الآن غامضة أو غير محددة رغم أهميتها، مثل مصادر الدخل ونظام الجباية وأوجه الانفاق وجرايات الجند ومداخيل الأملاك العامة والخاصة وتطور التبادل التجاري على المستوى الداخلي والخارجي وتنظيمات الجمارك وبيت المال والدرزية والعملة ومظاهر النشاط الاقتصادي والعسكري والاداري وحالة السكان وتطور الحياة الثقافية والفكرية والاجتماعية.

هذا مع الملاحظة أن وثائق الأرشيفات الجزائرية، حاليا ، تتألف من خمس مجموعات متميزة بموضوعاتها وطبيعة مادتها، الأولى تعرف بسجلات بيت المال

وتشمل 64 سجلا تضمنها 11 علبة وهي أغلبها وثائق تركات وأملاك يعود قسم منها إلى البايليك.

والثانية تطلق عليها تسمية دفاتر البايليك وتضم 386 سجلا محفوظة في 36 علبة تتصل بالقضايا الاقتصادية والمسائل الاجتماعية والعمليات التجارية وينفرد قسم هام منها بتسجيل الأملاك الموقوفة على المؤسسات الخيرية وفي مقدمتها الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) والجامع الأعظم.

والثالثة وتتكون من وثائق المحاكم الشرعية وأغلبها يتعلق أساسا بقضايا الأوقاف والملكيات الخاصة وما يتصل بها من معاملات البيع والشراء والمخاصمات واثبات النسب وتسجيل عقود الزواج والطلاق وتحديد الصداق أو الارث أو الهبة أو الشفاعة، وهي تتوزع على 152 علبة بعضها يحمل ترقيما مزدوجا، أما من حيث الفترة الزمنية التي تعود اليها تلك الوثائق فتمتد بين عامي 1001 هـ و 1272 هـ (1592 ـ 1856 م).

والمجموعة الرابعة وهي عبارة عن وثائق مصورة من دور أرشيفات استانبول (خزانة قصر توبكابي وخزانة الباب العالي الرئيسية وخزانة وزارة الخارجية التركية) يناهز عددها حوالي ثلاثة آلاف وثيقة، جمعها ورتبها الاستاذ أحمد توفيق المدني رحمه الله. أغلبها يتعلق بالعلاقات الدبلوماسية والمراسلات الرسمية بين الجزائر ومركز الخلافة باستانبول.

ومما تجدر الإشارة اليه أن أهمية هذه الوثائق لم تخف عن مؤرخي وكتاب القرن الماضي، اذ حاول بعضهم وضع فهارس لها مثل ألبير ديفو (1850) ودوني G. Deny (1921) وكولومب M. Colombe (1943) وأشاد بها كل من البيروأميريث Emerit على أن ذلك لم يؤدي الى نتيجة ملموسة اذ ظلت ودائع الأرشيفات الجزائرية التي كانت تعرف بالوثائق العربية التركية والتي أدرجت في آخر الفهرس الأبجدي يكتنفها الغموض ويلفها النسيان، وقد كانت توجهات الحكومة العامة للجزائر آنذاك وميول المؤرخين الفرنسيين الرافضين اعادة الاعتبار للفترة السابقة للاحتلال وتجاوزهم مصادرها المحلية الى المصادر الفرنسية بصفة خاصة والوثائق الأوروبية بصفة عامة، كل ذلك أدى الى هذا الاهمال الذي

تكرّس اثر الاستقلال بفعل غياب الفهارس المفصلة لها والدراسات التحليلية لمضمونها والجهل بفك رموزها الأساسية. وتحديد مصطلحاتها وحصر مادتها في جداول وفهارس محددة ومضبوطة تفي بالغرض وتجنّب الباحث مشقة بذل الجهد وضياع الوقت.

كل هذا يؤدي بنا الى القول بأن وثائق الأرشيف الجزائري مصدر لا غنى عنه ومادة أساسية للتعرف على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والادارية والفكرية والثقافية للجزائر في العهد العثماني شريطة الاعتكاف على قراءتها وبذل الجهد في تحليل مضمونها وهو ليس بالأمر السهل ولا المهمة الهينة.

هذا وحتى نتأكد من ذلك، نختم هذا العرض بتوضيح مسألة ظلت حتى الآن غامضة، وكثيراً ما أثارت التساؤل، الا وهي وضعية سهل متيجة في أواخر العهد العثماني.

إذ حسب المصادر الأوروبية والتقارير الفرنسية وبعض شهادات الرحالة والمسافرين وأقوال بعض الجزائريين أمثال محمد بن سيدي ضيف الله وحمدان خوجة فان سهل متيجة كان في أواخر العهد العثماني يتميز بكونه منطقة غير صحية تتخللها المستنقعات وتغطي قسم كبير منها الحشائش. بينما الأراضي المستغلة منه تكاد تنحصر في المساحة الصغيرة لبعض الأحواش أو المزارع التي كانت في ملكية البايليك وسكان المدن وبعض العائلات ذات النفوذ. بينما باقي المساحات تكاد تكون خالية من السكان الا من بعض التجمعات الصغيرة والدواوير المتناثرة. ومما زاد في شقاء وتعاسة هؤلاء السكان انتشار حمى المستنقعات ولا سيما في الأماكن المنخفضة كل ذلك نستنتجه من كتاب بتيات أوغسطين A. Petiet وهيق Hygues وأمبير Imber وفيالار Vialar وقارني Garnie وفرني Vergnes وتروملي Trumelet وسرجان Sergent وفران Frane.

لكن ملامح الصورة تتغير تماما إذا رجعنا الى وثائق الأرشيفات الجزائرية، التي نستنتج منها أن سهل متيجة كان يعج بالسكان من مختلف الجماعات والقبائل ويساهم في انتاج وفير من الحبوب ومختلف المنتوجات الزراعية. وأن المساحات الرطبة منه كانت تخصص للمراعي الصيفية، ولعل أحسن دليل على ذلك نستنتجه من عدد الأحواش والمزارع العامة والخاصة التي ورد ذكرها في وثائق الأرشيفات الجزائرية والتي بلغ عددها الإجمالي 862 موزعة على الأوطان التي يتألف منها سهل متيجة كالتالي: وطن حجوط (السبت) 138 وطن بني خليل 219 وطن بن موسى 220 وطن الخشنة 135 وطن يسر 100. وهذا ما يؤكد وجهة نظرنا وان الوثائق الجزائرية هي وحدها القادرة على مدّنا بالمعلومات الصحيحة والجديدة دون غيرها من المصادر التاريخية.

نظرة حول تقييم بعض المصادر الغربية لسياسة الجزائر الخارجية خلال العهد العثماني

عائشة غطاس

تبذل مجهودات جادة منذ ما يقرب من ربع قرن لإزالة التشويه والتحريف اللذين ألصقا بتاريخ الجزائر عبر مختلف مراحله. وهذا من خلال إعادة النظر فيما ألفه المؤرخون الغربيون والفرنسيون، على الخصوص، حينما كان ميدان التأليف حكرا عليهم.

ولقد أصبحنا اليوم في أمس الحاجة الى نظرة تقييمية لذلك الرصيد من الانتاج الأدبي المتنوع والمتشعب، ونتجت هذه الحاجة عن ادراك واضح لامرين، الأول هو أن غاية الفرنسيين من التأليف كانت لخدمة هدف واحد وهو السياسة الاستعمارية، والأمر الثاني يتمثل في استحالة الاستغناء عن المادة التاريخية الهائلة التي تضمنها ذلك الانتاج.

وقد انصب التقييم لمنهج الفرنسيين، خاصة، على جوانب عديدة منها الأهداف التي انطلقوا منها، والمنظور الذي كتبوا به، والمصادر التي اعتمدوها[1].

وتندرج هذه الدراسة المتواضعة ضمن العنصر الأخير هو المصادر. وهي مركزة على البحث عن تقييم بعض المصادر الغربية لسياسة الجزائر الخارجية قبل 1830 وتشمل الدراسة النقاط التالية:

أ ـ خصائص سياسة الجزائر الخارجية.

ب ـ المصادر المختارة.

جـ تقييم القرن السابع عشر : كريماي و دان.

د ـ تقييم القرن الثامن عشر: لوجي دي تاسي، لي رواف سو، فونتو رداي بارادي.

هـ ـ تقييم القرن التاسع عشر: شيلر وبانتي.

و ـ المدرسة الغربية والاستمرارية

ـ الخلاصة.

أ ـ خصائص سياسة الجزائر الخارجية:

قبل البدء في الحديث عن تقييم بعض المصادر الغربية لسياسة الجزائر الخارجية، رأيت من الضروري اعطاء بعض خصائصها البارزة . لقد نتج عن الهجمة الصليبية ضد بلاد المغرب بزعامة كل من اسبانيا والبرتغال وبمباركة من الكنيسة صراع مستميت، بين القوتين، المغربية الإسلامية من جهة والايبرية المسيحية من جهة أخرى، وقد شاءت الأقدار أن تلعب الجزائر الدور البطولي في تلك الملحمة. واستطاعت أن ترجح ميزان القوى لصالحها. وأصبحت صاحبة الكلمة الأولى والفاصلة في حوض المتوسط الغربي، فوصف صاحب تحفة الزائر هذا الوضع بقوله : «... فقد كانت لها اليد الطولى في البحر الرومي وكانت بعوثها وغوازيها كثيرا ما تسم الثغور الافرنجية بالخسف والدمار... وربما حاول بعضهم مقاومتها وتحرك للانتقام فلا يصادف نجاحا فيضطر الى مسالمتها»[2].

سمحت هذه الوضعية المتفوقة للجزائر أن تملي شروطها على غيرها من الأمم بحيث أصبحت الدبلوماسية الجزائرية ترتكز على ميدأين أساسيين:

أولهما: كل دولة لا تعقد معاهدة صداقة وسلام تعتبر في وضع حرب مع الجزائر .

وثانيهما: لا يصادق على أي معاهدة لا تعترف بتفوق الجزائر[3].

وتجلى اعتراف الدول الغربية بذلك في تعهدها والتزامها بدفع الأتاوات والهدايا حسب ما يتفق عليه (كيفية ادائها ونوعيتها الخ) وبابرامها للاتفاقيات

والمعاهدات. وقد حظيت الدول الغربية بمقتضى تلك الاتفاقيات بضمانات شتى كأمن تجارتها وسفنها في الحوض الغربي للمتوسط، واعتماد التمثيل الدبلوماسي للسهر على مصالح دولهم وجاليتهم، وحقوق رعاياهم القضائية والدينية[*].

لكن الجزائر لم تعمد الى التمثيل الدبلوماسي الدائم في الدول الغربية حالها حال الولايات العربية وقتذاك للاعتبارات التالية:

إن المسلم عموما لم تكن تراوده فكرة الإقامة في البلدان الأوروبية حيث اعترضته موانع عدة منها الدينية والاجتماعية والثقافية.كما ان التجارة التي كانت وسيلة لاحتكاك بغيرهم لم تكن من نصيب الجزائريين بل فسح المجال فيها لغيرهم[*].

وهكذا ولتضمن الدول الغربية وجودا آمنا لسفنها ورعاياها وازدهارا لتجارتها في حوض المتوسط الغربي لجأت الى ابرام المعاهدات والالتزام بدفع الأتاوات لحكومة الجزائر. فما موقف الغربيين وقتذاك من وضع جعل دولهم تشتري مناعة وحصانة سفنهم مقابل مبالغ مالية باهظة؟ وبعبارة أخرى كيف قيمت المصادر الغربية سياسة الجزائر الخارجية خلال هذه الفترة؟

ب ـ المصادر المختارة:

يتميز تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية، بتنوع المصادر فضلاً عن غزارتها، وهي ذات جنسيات مختلفة منها الإيطالية والاسبانية والفرنسية والأمريكية، الخ.. وهي عبارة عن رحلات أو تقارير أو مذكرات ألفت من طرف قناصل أو رحالين أو جواسيس أو رهبان تعرفوا على المنطقة[*]. وهذه المصادر من الضخامة بحيث تتجاوز طاقة مجهود الباحث الواحد. لذا انتقيت نماذج منها. وهي تمتد على مدى قرنين، من السابع عشر الى التاسع عشر. ويعود اختياري لهذه المصادر دون غيرها للأسباب التالية:

1 ـ قيمتها الاخبارية.
2 ـ اعتمادها من طرف جل المؤرخين.
3 ـ الايديولوجية الخفية التي تضمنتها هذه المصادر.

وهذه المصادر هي:

-- GRAMAYE (J.B) Africae illustratae, Tournai, Aquinque 1622.

اعتمادا على دراسة الهادي بن منصور، المنشورة بمجلة التاريخ رقم 20. النصف الثاني من 1985، وهي تحت عنوان :

«Le regard du captif ou le bestiaire
Algerien. de J.B. GRAMAYE»
«Le regard du captif ou le bestiaire Algerien. de J.B. GRAMAYE».
-- DAN (le père), Histoire de Barbaire et de ses corsaires, Paris Pierre Rocolet, 1649.
-- SHAW (M.D), Voyages dans plusieurs provinces de la barbarie et du levaut, Trad, LAHAYE, Jeau - Neauline, 1743.
-- LAUGIER DE TASSY, Histoire d'Alger et du bombardement de cette ville, Paris, PILTAN, 1830.
--LEROY, Etat gnral, et particulier du Royaume et de la ville d'Alger. LAHAYE, Autoine VANDOLE, 1750.
-- VENTURE de Paradis, Alger au XVIII siècle, Alger, Fagnan, 198.
-- PANANTI (F), Relation d'un sjour à Alger, Paris le normant, 1820.
-- SHALER (W), Esquisse de l'Etat d'Alger, Paris, ladvocat, 1830.

ج ـ تقييم القرن السابع عشر «كريماي» والراهب دان»

كان لظهور التيار الديني المتعصب بأوروبا أثر جلي على ايديولوجية أدب تلك الحقبة. وقد استمدت هذه الايديولوجية جذورها من الأحداث الصاخبة المتمثلة في الصراع بين المسيحية والإسلام. فجاء أدب تلك الحقبة أدبا ملتزما. وكان الالتزام يعني الالتزام لفكرتين: المناداة بتوحيد أوروبا المسيحية أولا والقضاء على خطر الاسلام والمسلمين ثانيا[*]، فتجسد ذلك في ظهور المخططات العديدة والمتنوعة لتفكيك الامبراطورية العثمانية وتحطيمها والقضاء على الخلافة الإسلامية وفي تبني الأحكام المسبقة ضد المسلمين فنعتوا بشتى الألقاب وصوروا في أبشع الصور[15] ويعتبر كريماي في ذلك، صورة صادقة لعصره وقد كان أسره بمدينة الجزائر، الفرصة السانحة لأن يعلن حربا شعواء ضد المسلمين ولا سيما الجزائريين. فجاءت كتاباته عبارة عن نداءات صريحة للقضاء على مسلمي المغرب، ويعدم السياح بوحشية وفظاظة بل ويرجس المسلمين على حد تعبيره. فالجزائر في نظره حيث جمعت مختلف

المصائب، فهي مصدر بلاء أوروبا ومغارة اللصوص، ومهد القساوة والفظاظة بشتى صورها». وبنفس المنظور راح يقيم بحارتنا ومدى وفائهم بالعهد «ان هؤلاء نهاب البحر مثلهم كمثل الحيوانات المتوحشة، ينقضون على الغنائم وهم يصرخون بكل شراسة ثم يستولون على السفينة وما احتوته طمعاً بالثروة حتى لو كانت السفينة لأحدى الدول المرتبطة بمعاهدة صداقة معهم»[11] أما الراهب «دان» ـ عشر خاصة) ـ فقد برع براعة فائقة ، وتفنن تفننا لا نظير له في تشويه صورة الجزائر. وكان كتابه السلاح الذي تسلحت به الدعاية الفرنسية ـ أي الصليبية ـ ضد بلاد المغرب، وهو أمر يجب ألا يندهش له القارئ كثيرا، خاصة حينما يعلم أن الغاية من تأليف كتابه كانت، إثارة الحماس الديني وكسب عطف أوروبا المسيحية من أجل تخليص الأسرى المسيحيين من جحيم الجزائر. وهو ما دفعه الى تحريض أوروبا المسيحية على القضاء على الجزائريين، «الذين ليسو سوى قراصنة لا عهد لهم ولا صدق، ولا يتورعون لنقض المعاهدات المصادق عليها ، لأول فرصة حينما يتعلق الأمر بمصالحهم، بل أنهم يفتعلون الأسباب لنكثها»[12].

د ـ تقييا القرن الثامن عشر: لوجي دي تاسي، لي روا شو فونتو ردي بارادي.

شهد القرن الثامن عشر ظهور تيار فكري نادى برفض الذهنية الموروثة عن القرن السابع عشر، وبإعادة النظر في تقييم الغير، تاركين جانبا الأحكام المسبقة[13] ومن الذين نادوا بهذه الأفكار بيصونال ((J. A. PEYSONNEL)) ولوجي دي تاسي (LAUGIER DE TASSY) ولي روا LEROY .

لقد انطلق لوجي دي تاسي من مبدأ وهو أن الانسان واحد في مختلف الأمم تقريبا، ولذا يجب القضاء على الأحكام المسبقة[14] وحذا حذوه LEROY اذ يذكر في مقدمة كتابه أن هدفه الأساسي من تأليف كتابه، هو اعطاء نظرة جديدة عن الجزائر ـ اي تصحيح النظرة القديمة وهو ما عبر عنه بما يلي: «ستغمرني سعادة كبرى اذا استطاع كتابي أن يقدم نفعا للدول الأوروبية المتعاملة مع الجزائر، واذا نجح في القضاء على الادعاء غير العادل الناتج عن تعصب مبالغ فيه ضد كل من هو تركي».

«Pour deraciner la prevention injuste et ridicule contre tout ce qui s'appelle turc, comme si ce n'etait pas des hommes comme nous».

ويعتبر LEROY من الشواذ الذين حاولوا انصاف حكومة الجزائر في هذه الحقبة فهو يميز تمييزا دقيقا بين مسؤولية الحكومة ومسؤولية بعض البحارة الخواص في أعمال القرصنة وهو ما عبر عنه بما يلي: «إن أعمال القرصنة لا تمارس إلا ضد الأعداء، وإذا تضررت، أحياناً، بعض الدول الصديقة منها فهذا يرجع إلى تصرفات بعض البحارة الخواص، ولا مسؤولية للحكومة في ذلك[15]».

لكن هذا التيار بقي محصورا في فئة معينة بينما استمرت ذهنية القرن السابع عشر راسخة عند معظم الأوروبيين، وهو ما يبرز بصورة جلية عند كل من شو[16]، وفونتوري بارادي[17] وكلاهما أقام بمدينة الجزائر مدة معينة. ورغم ان اقامة الأول كانت لغرض التحقيق في بعض النظريات العلمية في مجال العلوم الطبيعية فانه لم ير مانعا في آن يدلي هو الآخر برأيه في سياسة الجزائر الخارجية وموقف دول أوروبا منها.

فالدول الأوروبية ـ في نظره ـ باختيارها طريق التفاوض وابرام معاهدات السلام مع (البربريسك) قد اخفقت، لان معاهداتهم متزعزعة وغير ثابتة، وكان من الأفيد لاوروبا أن تتحد للقيام بعمل هجومي ضد الجزائر «مركز اللصوصية». وحتى يعزز «شو» مقولته أورد في كتابه، رد أحد الدايات على احتجاجات قنصل انكليزي ضد اعتداءات البحارة الجزائريين: «أنهم يشكلون عصابة وأنا رئيسها»[18].

أما فونتوري داي بارادي «فيرى بأن الالتزام بالمعاهدات من قبل الجزائريين ضرب من الخيال فالجزائريون ـ حسب تعبيره ـ لا يعرفون معنى احترام نصوص الاتفاقيات[19] بل أنه يذهب الى أبعد من هذا، حيث يقترح أن تتلخص نصوص الاتفاقيات في بندين لا غير: أولها السلام وثانيها التأكيد على المعاملة المتبادلة بين الطرفين ولا داعي للاتفاق حول قضايا مختلفة. فما يزعج الجزائريين لا يكتب له الدوام»[20].

هـ ـ القرن التاسع عشر:

لقد أصبح تعزيز وتدعيم الآراء السالفة الذكر أمرا ضروريا بل حيويا في عصر

بلغ فيه التكالب الاستعماري أوجه. وهو عصر عرفت فيه الجزائر فترات عصيبة كتقهقر بحريتها وتكالب الدول الأوروبية عليها.

وواكب شيلر هذه المرحلة، ورغم ذلك، فقد أذهلته قوة الجزائر، لكنه أشاد بذلك في حقد وسخرية بقوله: «ان القارئ ليندهش حقا حينا يعلم أن حق عرقلة وإعاقة تجارة العالم، وفرض الضرائب قد ترك لهذه القوة التافهة والحقيرة في ذاك الوقت. كما يندهش لسماح الدول الأوروبية لهذه الحفنة من القراصنة بالتمتع بأجمل جزء من العالم». ثم يخلص شيلر الى أن سياسة الجزائر الخارجية ـ المتمثلة في الزام الدول الأوروبية بعقد معاهدات صداقة وسلام ـ سياسة غطرسة وغير شرعية[23]

أما الأسير بانتي ـ وهو معاصر لشيلر ـ فقد راح هو الآخر يؤكد آراء بني جلدته، اذ نقرأ في مقدمة كتابه ما نصه:

«Alger, violateur effrené des droits des nations»

ثم يؤكد على أن الوضع الطبيعي لهذه الأمم أن تكون في حرب دائمة مع الأمراء المسيحيين. ان كرهها لأية صناعة ولاي عمل نزيه وجشعها الطبيعي تدفعها الى ممارسة القرصنة. والجزائر في نظره، عقبة في وجه ازدهار التجارة الأوروبية يجب القضاء عليها[24].

المدرسة الغربية والاستعمارية:

غني عن الذكر أن المصادر المشار اليها أعلاه كانت المنهل الوحيد الذي نهل منه المؤرخون الغربيون بعد رفضهم الاعتماد على المصادر الأهلية أي المحلية التي شككوا في قيمتها واتهموها بالتجريدية والمبالغة[25]. فكان تأثير المصادر الآنفة الذكر، على منظور المؤرخين الغربيين الذين كتبوا عن الجزائر في العهد العثماني واضحا جليا. إلى حد يشعر الدارس لهم، أنه يقرأ للراهب دان أو غيره. غير أنني سأقتصر على ذكر من شهد لهم بطول الباع في التاريخ العثماني.

فدي غرامون وهو صاحب كتاب «تاريخ الجزائر تحت الهيمنة التركية (1516 ـ 1830)»[26] لم يكلف الباحث مشقة البحث عن موقفه من الوجود العثماني بالجزائر، ومن سياسة الجزائر الخارجية في هذه الأثناء حيث أفصح عن ذلك في أول

صفحة من كتابه بقوله: «لقد كانت الجزائر مصدر الرعب والملجأ المفضل للقراصنة البربريسك،» وقد أبرز ذلك بوضوح أكثر في ثنايا كتابه: «ان سياسة القرصنة التي سلكتها الجزائر كانت أمرا حيويا لوجودها واستمراريتها. فهي دولة لا تتوفر لا على تجارة ولا على صناعة ولا زراعة»[27].

أما شارل روكس، وله كتاب في العلاقات الفرنسية ـ المغربية قبل 1830، فقد كان منطلقه واضحا بينا، وهو تبرير الاستعمار الفرنسي للجزائر واضفاء الشرعية عليه. وهذا يجعل الاستعمار الفرنسي للجزائر نتيجة حتمية للقضاء على عش القرصنة وما فيه من همجية وبربرية. وقد أجزم على أن تصدع العلاقات بين الجزائر وفرنسا، يعود الى تصرفات الجزائريين ـ وكثيراً ما يتهم بالبرابرة ـ الذين لا يعرفون معنى الالتزام واحترام المعاهدات والاتفاقيات. ثم يخلص الى أنه لا جدوى من الاحتراس والحذر لجعل السلام ثابتا ومستقرا. ولا يمكن تصديق يمين الجزائريين، حيث لا فرق بينها وبين يمين السكير[28].

أما بوبي، فأننا نستشف موقفه من سياسة الجزائر الخارجية من خلال تقييمه العام للجزائر في العهد العثماني والذي عبر عنه بما يلي: «لقد أصبحت الجزائر في القرن السادس عشر أوجاقا حيث السلطة المطلقة فيه للرياس والانكشارية، في حين يشاركهم الأهالي بنشاط وشهوة في عمليات اللصوصية البحرية[30]»، وأجزم روتالبي أن نكث المعاهدات أمر غريزي لدى الجزائريين ولا يتسنى للجزائر أن تعيش الا عن طريق الحرب لما توفره لها من ثروات[31].

والنظرة نفسها نجدها عند غير الفرنسيين، ففايرونغ ذهب مثل غيره الى أن السلم والحرب مع الجزائر مرهونتان بوضعية الخزينة[32]، وأن القرصنة كانت أساس النظام الاقتصادي والاجتماعي بل السياسي لدول المغرب[33].

مجمل القول:

ان هذه المصادر رغم تعدد مشاربها اذ منها ما ألف من طرف الرحالين ومنها ما ألف من طرف القناصل، ومنها ما ألف من طرف الأسرى فقد أجمعت على أن لا سياسة للجزائريين ما عدا القرصنة واللصوصية.

1 ـ لقد أطلق هؤلاء العنان لأفكارهم وأقلامهم لمهاجمة الجزائر ولتصويرها في أحلك وأبشع صورة لأنهم كانوا **على يقين أن** آراءهم سيكون لها الصدى المنشود، لأنهم كانوا يتكلمون عن دراية.

2 ـ ان هذا التقييم نابع من ذاتية مشحونة بالحقد والكراهية لحكومة الجزائر، وقد غذاها عاملان أساسيان، العامل الأول: الجو الصاخب وقتذاك والناتج عن الصراع بين الاسلام والمسيحية. فكانت مصادر تلك الحقبة مصادر ملتزمة هدفها الوحيد: خدمة المسيحية والعامل الثاني يكمن في عجز الدول الأوروبية عن المواجهة والتصدي لقوة البحرية الجزائرية. فتحول العجز الى ازدراء وسخط واحتقار.

3 ـ لقد مهدت هذه المؤلفات للنظريات الاستعمارية التي تزعمتها المدرسة الغربية فيما بعد. وبعبارة أخرى لقد ضمت بين طياتها منظور المدرسة الفرنسية على الخصوص.

4 ـ اذا استثنينا بايصونال ولوجي دو تاسي ولي روا فاننا لا نلاحظ أي تطور في تقييم المصادر الغربية لسياسة الجزائر الخارجية. فخلال مدة قرنين لم يحد الغربيون عن الفكرة نفسها «البربريسك لا عهد لهم ولا صدق» الخ.

5 ـ ان التطابق يكاد يكون تاما بين وجهتي نظر المصادر الغربية والمدرسة الغربية فيما يخص سياسة الجزائر الخارجية. وهكذا انتهى الطرفان الى الاجماع على أن الجزائر لا تفقه في الدبلوماسية ولا تعير أدنى احترام للمعاهدات. فالمحرك الأساسي لسياسة الجزائر هو الجشع والطمع، ومن ثمة فلا سياسة للجزائر عدا اللصوصية البحرية. ان هذا التقييم افتراء واضح على فترة من تاريخنا فسياسة الجزائر كانت لها خصائصها ومميزاتها. اذ كانت تربط علاقات ود وصداقة مع الدول التي اختارت طريق السلم، وعلاقات عداء مع الدول التي رفضت الاعتراف بها وابرام معاهدات معها.

وانه لمن الغريب حقا أن يتنكر هؤلاء لواقع تاريخي عاشته الجزائر وكانت له انعكاساته الواضحة على دولهم نفسها والتي كانت تتسابق للحصول على معاهدة سلام وتتنافس فيما بينها لكسب ود وعطف الجزائر. لكن هذا الانكار له ما يبرره، اذ كيف تعترف أوروبا ماضيا أو حاضرا بتبعيتها وخضوعها لشروط كانت تملى عليها من

طرف حكومة الجزائر. ثم كيف تعترف أوروبا وخصوصا فرنسا بشخصية الجزائر الدولية وبهيبتها العالمية قبل 1830 خاصة بعد انتصار الاستعمار في القرن التاسع عشر.

الهوامش:

(1) من بين الباحثين الذين عنوا بهذا الموضوع نذكر:

-- DJENDER (M), Introduction a l'histoire de l'Algerie -- Alger, SNED.
-- SAHLI (M.Ch), Dcoloniser l'histoire, introduction à l'histoire du maghreb, Paris, Maspero. 1965.

ـ بالحميسي (م)، المؤرخون الفرنسيون والجزائر في العصر العثماني، الأصالة عدد 14ـ15 ماي ـ جوان ـ جويلية 1973. ص.ص 71ـ79.

ـ سعد الله (أ) ، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر. الأصالة عدد 14ـ15 ماي ـ جوان ـ جويلية. 1973 ص.ص 7ـ26.

ـ سعد الله (أ)، الاستاذ جوليان والتاريخ الجزائري، في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ط 1 الجزائر. ش.و.ن.ت. 1978.

ـ سعيدوني (ن)، طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، في دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ـ العهد العثماني. الجزائر. 1984.

ـ شنيتي (م.ب) ، تاريخ الجزائر القديم من خلال المصادر الفرنسية، مجلة التاريخ رقم 20. النصف الثاني من 1985. ص.ص 7ـ19.

ـ وللأستاذ جمال قنان، دراسة حول الموضوع، نشرها في جريدة الشعب منذ نحو أربع سنوات.

(2) عبد القادر الجزائري (الأمير محمد): تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، بيروت، دار اليقظة العربية، 1964 ـ ص. 126.

(3) سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط 1 ، الجزائر ش.و.ن ت. 1978. ص 205.

(4) انظر معاهدة 1666 بين الجزائر وفرنسا، ومعاهدة 1689 وهي المعاهدة المثرية وغيرها كثير . حول المعاهدات راجع:

-- ROUARD (DE CARD), Traits de la France avec les pays de l'Afrique du Nord, Paris, Pedone, 1906.

(5) غطاس عائشة، العلاقات الجزائرية ـ الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1619 ـ 1694)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1986. ص 15.

(6) بالحميسي، المؤرخون الفرنسيون، ص 72.

(7) وهو من رجال الأدب والسياسة كان مؤرخا رحيا للبلاد المنخفضة. أسر من طرف البحارة الجزائريين. دام أسره بالجزائر خمسة أشهر (ماي ـ أكتوبر 1619).

ترك كتابين : الأول بعنوان :

DIARIUM RERUM ARGELAE GESTARUM ANNO 1619.

وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية بعنوان:

Les Cruouts excerces sur les chretiens en la ille d'Alger

لكنه في حكم المفقود وله كتاب آخر:

Africae illustratae, tournai A.

(8) من أبرز رجال الدين، كان راهبا بدير الماثورين بفونتينبلو Fontaine bleau كلف سنة 1634 بفداء الأسرى ببلاد المغرب، أقام بمدينة الجزائر من 15 جويلية الى 31 سبتمبر 1634، كما زار أثناء إقامته بالجزائر، المناطق الداخلية وخاصة شرق البلاد حيث كانت المؤسسات والمراكز الفرنسية، ظهرت أول طبعة لكتابه في باريس عام 1637، ثم ظهرت طبعة ثانية له عام 1649، وهو تاريخ وفاته وهي طبعة منقحة.

(9) حول هذا الموضوع أنظر:

DELUMEAU (J), La peur en occident XIV--XVIII S. une cité assiege, Paris, Fayard, 1978, pp. 269 et sq.

(10) حول هذا الموضوع أنظر:

--DJUVARA (T.G), Cent projets de partage de la Turquie, 1281--1913, Paris, 1914.

-- BRAHIMI (D), opinions et regards des Europens sur le Maghreb aux XVIII siècle Alger, SNED, 1978.

-- Voyageurs Français du XVIII siècle en barbarie, Thèse. lettre. Paris, 1976.

(11) BENMANSOUR, «le regard... p. 11 et sq.

(12) DAN, Histoire... p. 121.

(13) Brahimi Opinions...

(14) BRAHIMI , Opinion...

(15) LEROY, Etat gnral, Preface.

(16) شو، SHAW رحالة انكليزي (1692 ـ 1751) زار سوريا ومصر وبلاد المغرب ودامت اقامته بمدينة الجزائر اثني عشر سنة (1720 ـ 1732).

(17) وهو فرنسي (1739 ـ 1799)، كانت له دراية كبيرة بقضايا المشرق والمغرب نظرا لطول اقامته بالدولة العثمانية حيث قضى مدة عشرين سنة، اشتغل أثناءها مترجما.

وفي 1788 كلف من طرف وزير البحرية دو كستري بتسوية خلاف نشب بين الجزائر وفرنسا استغرقت

اقامته حولين، مما سمح له بالتعرف على أحوال البلاد، فكتب كتابه، الذي يعتبر من أهم مصادر الجزائر خلال القرن الثامن عشر.

(18) SHAW, p. 414.

(19) VENTURE DE PARADIS, Alger... p. 156.

(20) ...... Tunis et Alger au XVIII siècle-mmoire et observations rassembles et prsents par Joseph Cuoq, Paris, Sindbad, 1983, p. 20.

(21) ديلوماسي أمريكي، كان قنصلا عاما في الجزائر (1815 ـ 1824).

(22) كاتب تسكياني (1766 ـ 1837). أسر عام 1814 من طرف الرايس مراد، لكن تدخل القنصل الانكليزي أدى الى الافراج عنه. وهو من الذين نادوا بتوحيد الجهود الأوروبية للقضاء على الجزائر.

(23) SHALER, Esquisse... p. 53 et Sq.

(24) PANANTI, Relation... p. 480.

(25) سعد الله، منهج ، ص 14.

ـ سعيدوني ، طبيعة الكتاب، ص 33.

(26) يعتبر هذا الكتاب من الدراسات الأولى حول الوجود العثماني بالجزائر. وبغض النظر عن وجهة نظر صاحبه ، فهو من الدراسات الثرية والجادة اذا أخذنا بعين الاعتبار فترة التأليف.

(27) (27) GRAMMONT, Histoire d'Alger, p. 210.

(28) (28) CHARLES Roux, France et A.N, p. 124.

(29) من المتخصصين في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، له عدة دراسات تتعلق بالنظام السياسي والاداري في الجزائر.

(30) MOULLIESCAUX (L), Histoire de l'Algerie - Texte de J, lassus, G. Marcais, P. Boyer, Paris, les productions de Paris, 1962, p. 187.

(31) ROTALLIER. (ch. de), Histoire d'Alger et de la piraterie des Turcs dans la Mediterrane à dater du seizième siècle, Paris, Paulin, 1841. 2 Tons.

(32) أرونغ ري، العلاقات الديلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة، (1776 ـ 1816)، تعريب إسماعيل العربي ش.و.ن.ت. 1978.

(33) نفسه، ص 29.

مدرسة التاريخ الاستعماري
بين
الايديولوجية والموضوعية
حول بعض قضايا تاريخ الجزائر المعاصر

جمال قنان

شهدت الدراسات التاريخية في الجزائر انطلاقة نسبية منذ قرابة ربع قرن، وتركز اهتمامها أساسا بالموضوعات التي تتعلق بالتاريخ الوطني، ويلاحظ على هذه الدراسات أنها في مجملها تحمل تأثيرات مدرسة التاريخ الاستعماري، الفرنسية، ومتأثرة بالقوالب والصيغ والاتجاهات التي أعطتها للدراسات التاريخية في بلادنا.

ويبدو أن الوقت قد حان لالقاء نظرة نقدية على أعمال هذه المدرسة للتعرف فيما إذا كانت الأسس التي وضعتها للدراسات التاريخية للجزائر هي أسس صالحة يمكن اعتمادها والبناء عليها وتوسيعها بتطويرها، أم أنها أسس غير صالحة كلية أو صالحة في بعض جوانبها يمكن اهمال الغير الصالح والاحتفاظ بالباقي؛ وباختصار يجب وضع حوصلة لهذه التركة الفكرية وتقييمها. وهذه الحوصلة هي من الضرورات القصوى في المرحلة الراهنة،وعليها يتوقف توظيف جهود البحث في الحاضر والمستقبل توظيفا إيجابيا مفيدا يساهم في حركة التطور العامة للمجتمع.

ولكن قبل مواجهة أعباء هذه المهمة علينا أن نتساءل فيما إذا تتوفر لدينا الشروط الموضوعية، كفيلة لتحقيق هذا الهدف الكبير والثقيل في نفس الوقت. وهل لدينا من الامكانيات البشرية والوسائل المادية ما يسمح بالتطلع الى هذه الغاية؟ وإذا نظرنا إلى المسألة من الزاوية الاحصائية ومن جانبها البشري، فإننا نجد أن الجامعات

الوطنية تتوفر اليوم على بضع مئات من الباحثين في مختلف درجات التأهل والخبرة، هم قادرين موضوعيا على تحمل هذا العبء والبدء في تحقيق هذه الغاية. ومن ناحية الامكانيات والوسائل، فإن العقبة الكبيرة التي تجابه الباحث، وتشل نسبة عالية من قدراته وامكانياته تتمثل في التوثيق. وهي صعوبة تبدو في الفترة الراهنة عسيرة الحل ومرتفعة التكاليف. والحلول الوسطى المقترحة لتذليلها أثرت وستأثر بدون شك في نوعية ومستوى الدراسات التي تنجز. وبالرغم من هذا،فإننا نعتقد أن الباحثين الجزائريين قادرين على تخطي القوالب وآفاق مدرسة التاريخ الاستعماري على الأقل، بنبذ وصاياتها الضمنية على الدراسات التاريخية في البلاد وفتح آفاق جديدة أمام البحث التاريخي لم تطرقها ولم تكن تدخل ضمن محاور اهتماماتها. ومن المفيد الملاحظة بهذا الصدد، أن التعاون في هذا الميدان (الدراسات التاريخية) خاصة في جانبه المعنوي والتوجيهي لن يكون ذا جدوى ان لم يؤد الى عرقلة جهود الباحثين المحليين في سعيهم نحو هاته الآفاق الجديدة.

قد يبدو ربما للبعض، أننا نطرح اشكالية هي غير قائمة ونتصور شيئا هو محض افتراض وليس حقيقة فعلية راسخة، وهل يوجد ما يسمى بمدرسة التاريخ الاستعماري، فعلا؟ إذ أن هذا التشخيص قد يبدو مستهجنا ومتحيزا في منظور أن البحث التاريخي هو بحث علمي، وما دام كذلك فهو لا يحتمل هوية ولا تشخيصا، اننا لا نعتقد أننا اليوم في حاجة الى تدليل على وجود هذه المدرسة فهي حقيقة ناصعة ليس من الموضوعية ولا من النزاهة نكرانها ونفيها. ونلاحظ بهذا الصدد أننا نميز بين المدرسة الفرنسية في التاريخ التي لا يمكن نكران فضلها في خدمة التاريخ العام بوجه عام والتاريخ الأوروبي بصفة خاصة. واننا محتارين ومتأسفين في نفس الوقت، عن انعدام امتداد تأثيرات هذه المدرسة إلى الدراسات التاريخية التي تخص الجزائر. إذ نلاحظ أن هناك نوع من القطيعة وانعدام التواصل بين المدرستين في أساليب عملها وطرق معالجتها لقضايا التاريخ، ليس هنا محل تعميق هذه الظاهرة وتفسير أسبابها، فاختلاف ظروف النشأة لكليهما هو واحد من الأسباب الهامة التي ميزتها عن بعضها البعض.

إن الصفة البارزة والمسيطرة في مدرسة التاريخ الاستعماري هي كونها

مدرسة تحمل طابعا ايديولوجيا بالدرجة الأولى قبل الصفة العلمية. لقد طغى الطابع الايديولوجي على أعمالها منذ النشأة وواكب هذا الطابع مسيرتها عبر الزمن على مدى أربعة أجيال. ونعتقد أنها الآن في طورها الأخير قبل استيعابها من طرف المدرسة الفرنسية لانتفاء الظروف الموضوعية التي أوجدتها.

ويبدو أنه من الضروري توضيح ما نقصده بصفة الايديولوجية التي تتصف بها مدرسة التاريخ الاستعماري. فهذه الكلمة تحتمل كثيرا من الالتباس وتحتوي على قسط من الغموض لا يساعد على تحديد المفهوم الدقيق للمدلول الذي نقصده منها. كما أنها تثير عددا من الاعتراضات عند استعمالها دون تحديد مدلولها في الظرف الذي تلتصق به، ونقصد بكلمة ايديولوجية مجموع الأحكام المسبقة والآراء المبدئية والنظرة المتحيزة لبلد أو حضارة أو تاريخ مجتمع ما، وتوجيه الأبحاث في اتجاه تأكيد الآراء والأحكام المسبقة هاته. هذا عن جانبها المبدئي أما جانبها السلوكي والميداني فيتجلى في سعيها لتهميش المجتمع الجزائري وتحجيمه وتقليصه في أضيق نطاق، ليس فقط بالنسبة لفترة الاحتلال وانما أيضا بالنسبة لجميع فترات التاريخ عبر العصور[1]. وقد يبدو أن هذا نوع من التحامل ما لم يستند على أدلة يمكن رصدها ومعاينتها. وسنعود الى هذا الموضوع فيما بعد. وقبل ذلك، فإن القاء نظرة سريعة على ظروف نشأتها والعناصر المكونة لها في البداية ثم تطورها في اتجاه معين، سيساعد بدون شك على فهم الدوافع التي تسببت في تحريف مسيرة هذه المدرسة المفترض أن تكون علمية وموضوعية.

يمكن أن نقول بأن الفترة الواقعة بين عامي **1830 ـ 1880** هي الفترة التي سجلت بدايات ظهور هذه المدرسة في الدراسات التاريخية الجزائرية. وهي ككل نشأة ضمت في أكنافها تعددا في اتجاهات وتفرعا في الاهتمامات والأهداف التي يبدو عليها شدة تأثير المحيط اللحظي والاحتياجات الميدانية القائمة على أعمالها وطبعها

---

(1) للتعرف على حوصلة أعمال مدرسة التاريخ الاستعماري وانجازاتها التي تخص الجزائر، راجع : Histoire et historiens de l'Algérie 1830-1930, Paris, 1931, 426 p. أنظر على الخصوص المدخل الفصول 10.5.1. وحول الأعمال التي أنجزت بعد عام 1930 أنظر Revue Africaine العدد الخاص بالعيد المئوي لجمعية التاريخ الجزائرية 1956 ص.ص. 190.5.

بهذه الخصوصية التي ميزت فترة النشأة هاته عن الفترة التالية. كما أن التركيبة البشرية لعناصرها كان هو الآخر عاملا مؤثرا في صياغة هذه النشأة بالشكل الذي ظهرت عليه. وبالرغم من هذا التنوع من صنع ذلك فإننا نلاحظ أن أعمالها تلتئم في خطوط محورية ونقاط ارتكاز مشتركة تصب فيها منذ هذه الفترة. ومما يجدر الإشارة اليه وملاحظته أن مدرسة التاريخ الاستعماري في مرحلة نشأتها لم تكن موضع المؤرخين المحترفين وانما هي نتاج عناصر جاءت من آفاق مهنية مختلفة وذات مستويات تعليمية هي في المعدل تتراوح بين متوسطة إلى ضعيفة وليس إلى أعلى. فقد تشكلت في البداية أي نواتها الأولى من مترجمين معظمهم ذوي مستوى تعليمي محدود جدا ونسبة كبيرة من بينهم ليسوا بالفرنسيين، فعلى عاتق هؤلاء وقع، في البداية، عبء تعريف قوات الاحتلال والادارة الاستعمارية بالمجتمع الجزائري ومؤسساته وثقافته وتاريخه، ثم اتسعت دائرة النشأة لتشمل العسكريين وخاصة أولئك المهتمين منهم بالشؤون الأهلية والإداريين المباشرين للشؤون الجزائرية وحتى بعض المسؤولين على المصالح الفنية التي لها علاقة بالإدارة الجزائرية.

قد يقال ان الكلام عن الاحتراف والإشارة الى المورخ المحترف، كما هو متعارف عليه اليوم، في هذا الوقت المبكر هو شيء سابق لاوانه وأن هذا الشرط كان لا يتوفر في التأليف التاريخي حتى في أوروبا نفسها في هذا العصر. وإذا كنا لا نجادل في حقيقة هذا فإننا نلاحظ فقط بأنه إذا كان المنهج التاريخي لم يستكمل بعد أدواته فانه قد خطا خطوات مهمة في هذا الاتجاه في الفترة نفسها. وأن أهم مكسب حققه في هذا المجال هو تطويره لتقنية نقد النص وتنويع وسائل استقصائه واستنطاقه، هذا من جهة. ومن جهة ثانية فانه قد تأكد منذ هذا الوقت مبدأ أساسي في البحث التاريخي الذي يقضي بعدم المجازفة في القاء الأحكام والتسرع في اثبات النتائج قبل استكمال توفر الشروط الضرورية التي تسمح بالتعامل مع الوقائع والأحداث على هذا المستوى. وهذه المبادئ لم نلاحظها لدى هذه المدرسة في مرحلة نشأتها هاته. كما أن هناك جانب آخر يتعلق بنوعية التأهل وكذلك المؤسسات التي تفرز الكفاءات التي تهيأ للدخول في هذا المضمار. ومن هذا الجانب فإننا نلاحظ أن هناك فرقا كبيرا في المستوى بين الكفاءات التي سخرت نفسها لخدمة التاريخ في أوروبا والتي اقتحمت هذا الميدان في المستعمرات.

وبالرغم من هذه النقائص التي أشرنا الى بعض منها وهي أهمها في نظرنا ومع ذلك فأننا قد نكون متحاملين إذا أعتبرنا أن أعمال مدرسة التاريخ الاستعماري في مرحلة النشأة كانت كلها سلبية وغير مفيدة. فالجانب الإيجابي يتمثل في نظرنا في عنصرين: أولهما توسيع دائرة التوثيق ليشمل جمع المادة حول الجزائر والمجتمع الجزائري في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين من جوانبه المختلفة، وهذا بقطع النظر عن كون المادة المجمعة تكتسي طابع التحيز في بعض المجالات، ولكن نظرا لتنوعها وتعدد مصادرها فإن الباحث يستطيع الاستفادة منها إذا أحسن التعامل معها وعرف كيف يستغلها . والعنصر الثاني يتمثل في توسيع دائرة الاهتمام ليشمل العصور التاريخية المختلفة ولم تقصر جهودها على عصر أو فترة معينة كما حدث بعد ذلك، وليس من قبل الصدفة أن نلاحظ أن معرفتنا لتاريخ الجزائر في العصر الحديث كانت حتى إلى وقت قريب لا تزال تعتمد بالدرجة الأولى على ما كتبه جيل النشأة هذا، عنه.

بعد عام 1880 نلاحظ أن هناك تطورا نوعيا طرأ على هذه المدرسة والتي نقلها من مرحلة النشأة الى مرحلة النضج. وبهذا الصدد فمن الضروري أن نشير الى المساهمة الكبيرة التي قدمها المعربون في النقلة النوعية هاته في بداية هذه المرحلة على الخصوص. لقد فتحت هذه المساهمة مضمار البحث التاريخي على مصراعيه، وتحددت ضمنيا بعض المقاييس ووضعت بعض الشروط التي يجب أن تراعى في مؤهلات واستعدادات من يتصدى للاهتمام بالبحث التاريخي للخروج بدراساته من مرحلة الهواية أو الضرورة الوظيفية إلى مرحلة أكثر نضجا تستدعي الاحتراف والتخصص. وكان من نتائج التركيز على صفة التخصص، أن تقلص نفوذ المعربين فيها وتأثيرهم عليها، بحكم طبيعة تأهلهم واهتماماتهم، وجدوا أنفسهم وكأنهم أقلية غير مؤثرة وسط تيار قوي ينمو بسرعة داخل المدرسة، الذي يتجه نحو التخصص وتحديد مجال اهتمام الطرفين.

ويواكب هذا التطور من الناحية السياسية تبني سياسة الادماج وفرنسة الجزائر التي اعتمدتها الجمهورية الثالثة. ان تشجيع الاهتمامات بالتراث الفكري والحضاري للمجتمع الجزائري وما يتطلب ذلك من تشجيع اللغة العربية والنهضة بثقافتها وآدابها

سيشكل حاجزا أمام أهداف هذه السياسة وبالتالي يجب وضعها على الهامش وتقليص دورها في أضيق الحدود الممكنة تمهيدا لمحوها وطمس معالمها في المستقبل، فالمدرسة وعنصر الزمن كفيلان بتحقيق هذه الغاية.

وعند أواخر القرن سنلاحظ ظهور المؤرخين المحترفين الأوائل من أتباع هذه المدرسة. وهم الذين سيقع على عاتقهم استكمال بنائها بالكيفية التي هي عليه الآن. وهم الذين يستجرأون على اقتحام ميدان التأليف (العلمي) حول تاريخ الجزائر دون الشعور بنقص الأدوات التي بين أيديهم للقيام بهذه المهمة على خير وجه والتي أهمها بالنسبة لتاريخ الوسيط اتقانهم للغة العربية . لقد اعتقدوا أنهم مؤهلين لذلك لمجرد أن أصبحت بين أيديهم تراجم غير دقيقة لبعض الحوليات ولعدد قليل من المؤلفات التاريخية، ولم يشعروا في أي وقت بأي نقص من هذا الجانب. وحتى أن وجد هذا الشعور في ضمائر بعض منهم فانه لم ينعكس إيجابيا على الأعمال التاريخية التي أنجزوها.

عند هذه المرحلة من الطرح، قد يبدو ضروريا التعرف على مواقف هذه المدرسة من قضايا التاريخ الوطني. وسنقتصر فقط على بعض من هذه القضايا التي تخص تاريخ الجزائر المعاصر، وهذا لا يعني أن هذه الاتجاهات تقتصر فقط على الفترة المعاصرة ولا تشمل العصور والفترات الأخرى. إذ هي في الحقيقة مواقف محورية ثابتة في تعامل هذه المدرسة مع قضايا تاريخ البلاد في جميع العصور، على أن لكل عصر خصوصياته وطبيعته جعلها تعمد الى صياغة قوالبها ومفاهيمها وفق طبيعة كل عصر. ونلاحظ من جهة أخرى أننا لن نعمد الى تشخيص هذه المواقف والاتجاهات لانها ليست اتجاهات لافراد معزولة غير مؤثرة بل هي مواقف مدرسة ، والمستثنى عنها هو القليل والغير المؤثر. وهي لا تعدو كونها مجرد بدايات محتشمة لمحاولات التعامل مع وقائع التاريخ بروح أكثر تجردا وأقل تحيزا لكنها سرعان ما جرفها التيار العام السائد أو أسدل عليها ستار النسيان وهذا يعني أنها لم تؤثر في أعمال هذه المدرسة وانجازاتها.

ومما يثير الانتباه حقا، تمادي هذه المدرسة على نكران الهوية الوطنية للجزائر ونفي وجود أي مؤشر عنها عند احتلال فرنسا للبلاد والتأكيد على أن هذه الشخصية

لم تبدأ في البروز الا عند نهاية الحرب العالمية الأولى وقد كان لفرنسا حسب ادعائها بعض الفضل في بعث هذه الشعور بالشخصية الوطنية،وهذا الموقف يشكل اتجاهات تبنتها على مر أجيالها المتعاقبة. وإذا ما حاولنا أن نتعرف على الأسس والبراهين التي اعتمدتها في تأكيد هذا الموقف والدعوة له الى أن أصبح الجزائريون أنفسهم، ومن المتعلمين، يرددونه الى وقت قريب وربما لا يزال البعض يردده حتى الآن فاننا نفاجئ عندما نكتشف أنه لم يكن يستند على أي أساس علمي. فهو لم يستخرج لا من الدراسة المتمعنة للوثائق الدبلوماسية الجزائرية ولا على انتاج الجزائريين الفكري. إذ يكفي استعراض نماذج من الرصيدين أو من رصيد واحد لاثبات عكس ذلك. فنحن إذن في هذه المسألة أمام موقف كان في الأصل سياسيا ثم تحول إلى مبدأ ايديولوجي. وردده أجيال من المؤرخين كل أخذ على عاتقه مهمة تغليفه بأدبيات هي أقرب الى المشقشقة اللفظية منها للمعالجة العلمية ليكون أكثر تأثيرا وأسهل قبولا وقد بالغ بعضهم في هذا المجال الى درجة التنطع الغير المسؤول عندما كتب مؤكدا أن الجزائر هي من صنع فرنسا، وقد كانت شيئا سديميا مجهول الهوية حتى أن اسمها كان منحة منها.

إن موقف هذه المدرسة من المجتمع الجزائري ومن ثقافته ومؤسساته وتقاليده وباختصار من كل مقوماته، لم يكن اوفر حظا من موقفها من الشخصية الوطنية، على أننا نلاحظ أن طريقتها في التعامل مع هذه الجوانب تختلف عن تلك التي اتبعتها في المسألة السابقة. لقد حلت روح التعالي والنظرة من الأعلى محل النكران، لقد سيطر عليها النظرة الاوروبيانية المركزية للأشياء واعتبار أن الحضارة الأوروبية هي الحضارة الإنسانية المثلى التي يجب أن تنضوي تحتها الانسانية كلها وما عداها من الحضارات هي نماذج متخلفة غير صالحة وقد عفى عليها الزمن. ومن الضروري أن نشير بهذا الصدد أن النظرة الأوروبيانية المركزية هي نظرة غير علمية لكونها غير تاريخية لأنها تتجاهل عنصر التطور في الحركة التاريخية في داخل الحضارة الأوروبية نفسها. فالتاريخ المقارن للنظم والمؤسسات يزعزع هذه الرؤيا من أساسها. هذه النظرة التي هي محل مراجعته الآن، كانت حتى إلى وقت قريب تتمتع بسلطة معنوية هائلة وقوة تأثير ضخمة ليس في أوروبا وحدها وانما في جميع مناطق العالم الأخرى.

لقد أدّى الانجرار وراء هذه النظرة إلى ارتكاب أخطاء كبيرة في فهم تاريخ الشعوب الغير الأوروبية والحاق تشويهات خطيرة بماضيها وتراثها وحضاراتها.

وبالطبع ، لقد تعرض تاريخ الجزائر الحضاري لكثير من التشويه وسوء الفهم الناجم عن هذه النظرة الايديولوجية وزاد عليها تأثير تلك الحساسيات الخاصة القائمة بين الإسلام والمسيحية من جهة وبعلاقات الجزائر بأوروبا والمتوسطية منها بشكل خاص من جهة ثانية.

وبالنسبة لهذا العنصر الأخير، أي عنصر الحساسية الخاصة فأننا عندما نتصفح أعمال هذه المدرسة نخرج بانطباع غريب ومستهجن اذ يستبد بنا الاحساس بالشعور بأن عملها يشوبه نوع من الرغبة في تصفية حساب قديم وليس دافعه الحرص على اكتشاف حقائق تساعدها على فهم المجتمع الذي وضعته الأقدار تحت رحمة فرنسا. وفي هذا الصدد، نريد أن نلفت الانتباه بكوننا لا نلقي الكلام على عواهنه كما أننا مدركين كل الادراك لقيمة ومسؤولية كل كلمة تقال في هذا المجال. فرغبتنا في تسمية الأشياء بأسمائها وحرصنا على توضيح الرؤيا في مجال لا يختلف على أهميته اثنان هو الذي جعلنا نقول ما نعتقده حقائق والتي لم نصل اليها بدافع الحماس ولا نتيجة للرغبة في التحامل.

لقد عمدت هذه المدرسة الى محاولة طمس مآثر الشعب الجزائري وأمجاده عبر التاريخ لنكران وجوده ذاته ومنازعته حقه في أن يكون له تاريخ وماض مثل أي شعب ، ولقد بذلت كل ما في وسعها في هذا المجال لدعم جهود سياسية الاحتلال الرامية الى طمس معالم شخصيته ومقوماته بتقديم الأدلة والحجج العلمية على انعدام هذه المقومات عبر التاريخ وتسهيل مهمة الادارة الاستعمارية الهادفة إلى تحويل شعب بكامله من حالة مجتمع الى أفراد مدجنين. وكما مهملا لا يستحق الإشارة اليه أو تلمس ماضيه الا بالقدر الذي تدعو اليه الحاجة في منظور علاقاته بالمستوطنين أو بإدارة الاحتلال.

هذه بعض نقاط ارتكاز في عمل مدرسة التاريخ الاستعماري وهي كما تبدو وكما هي في الواقع ليست نابعة من احتياجات البحث العلمي ومتطلباته وليست

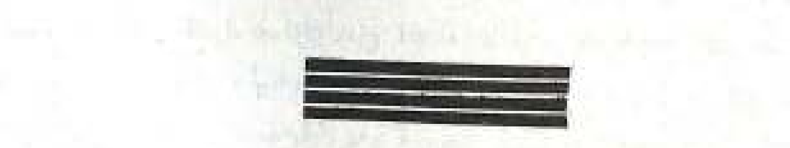
ناجمة عن الرغبة في اثراء المعرفة التاريخية وتطويرها ، وانما هي مسلك يهدف الى تحقيق غايات سياسية مكشوفة ومصرح بها.

وقبل أن نشير الى بعض الملاحظات تتعلق بجوانب النقص في منهج عمل هذه المدرسة نريد أن نوضح بأننا لا ننكر كل قيمة للأعمال التي أنجزتها وبصفة مطلقة. فالشيء الذي توخيناه من وراء الإشارة الى بعض السلبيات هو لفت الانتباه والتأكيد على ضرورة تجاوز المنهج والآفاق التي وضعته للدراسات التاريخية في البلاد. ومع هذه الملاحظات نستطيع أن نقول بكونها تركت لنا رصيدا لا يستهان به من الدراسات والأبحاث حول الاستيطان الأوروبي في البلاد وعن الاحتلال ومراحله وسياسته وتطور مؤسساته وباختصار عن كل الجوانب التي تخص الوجود الأجنبي، سواء في شكله العسكري والسياسي والاداري أم في شكله الاستيطاني والثقافي. وهذا في حد ذاته يشكل مساهمة معتبرة في اثراء المعرفة التاريخية خلال فترة الاحتلال هاته ونضيف الى هذه الانجازات الكمية الهائلة للمادة الوثائقية المحفوظة وأدوات البحث المتنوعة التي هيأتها وجعلتها في متناول الباحثين، بحيث نستطيع القول بأن النقص الذي لاحظناه في أعمالها التاريخية ربما يجد ما يوازيه في العمل الوثائقي الضخم الذي أنجزه مؤرخون وموثقون من تلامذتها.

إن النقص الذي يلاحظ في منهج عمل مدرسة التاريخ الاستعماري يمكن حصرها في العناصر التالية: التركيز على بعض الجوانب لبعض الفترات واهمال الباقي، الاختيار وتفضيل بعض أدوات البحث عن الأخرى أو اهمال هذه الأخرى بعدم ذكرها أو بتجريحها وتسفيهها عند ذكرها ، والتجرأ على كتابة تاريخ عصر أو عصور بكاملها وفق قالب تم رسمه مسبقا لصب الوقائع والاحداث فيه صبا. الاهمال الخطير للجانب الوثائقي الذي يخص الطرف الجزائري ومساعدة عناصرها بطريق مباشر وغير مباشر على تبديد ما كان موجودا. التجرأ على التفسير والتسرع الى التنظير في قضايا تاريخ البلاد قبل استكمال الشروط الضرورية التي تسمح بذلك. وهذه النقائص المنهجية ليست نقائص عرضية بل هي عضوية وجزء أساسي في تكوينها، واكب نشأتها ومرحلة نضجها على السواء.

وهناك ملاحظة أخرى قد تثير بعض الدهشة، وهو أن بعض الجوانب الإيجابية، مثل اتساع الأفق وتعدد الاهتمامات ووجود بعض التجرد في معالجة الوقائع والأحداث كانت قد ظهرت بعض البوادر لها في فترة النشأة لتختفي في المرحلة التالية. وهو شيء يتعارض مع قانون التطور. وهذه النقائص لا يمكن أن تكون عفوية أو أنها ناجمة عن غير قصد لأنها لو كانت كذلك لوقع استدراكها مع الزمن وهذا ما لم يحدث. وقد يعترض معترض بالإشارة الى أن أعمال بعض المؤرخين من الجيل الثالث والجيل الأخير لها خصوصيات تميزها عن التيار السائد داخل هذه المدرسة. وإذا كنا نقر أعمال بعض المؤرخين فإننا نلاحظ بأن هذه الخصوصية انما تثور وتندد بالغلو داخل هذه المدرسة ولكنها لا تضع طريقة عملها ولا منهجها محل مراجعة. مراجعة. ومن جهتنا فإننا لا نجد تفسيرا لهذا القصور المنهجي الخطير سوى كون هذه المدرسة تعتبر نفسها جزءا لا يتجزأ من كيان قائم متمثل في الوجود الاستعماري. وهي ما دامت كذلك فأنه ترى أن من واجبها أن تقوم بدورها في تدعيم هذا الكيان وترسيخ دعائمه في مجال اختصاصها.

وأريد في الختام أن أشير بكوننا ورثنا عن الاحتلال حالة التخلف في جميع المجالات ، والدراسات التاريخية واحد منها. ولن تتحقق الانطلاقة في هذا الميدان ما لم تتم القطيعة مع هذه المدرسة وشل كل تأثير لها على توجيه الدراسات التاريخية في البلاد.



نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري

أبو القاسم سعد الله

في المدة الأخيرة صدر كتاب بعنوان (خلال العيون الأجنبية : وجهات النظر الغربية نحو افريقيا الشمالية) [1]. وقد تعاون على اخراجه بعض المؤرخين الأمريكيين المختصين في تاريخ المغرب العربي. وبعد المقدمة التي كتبها له آلف أندرو هيقوي **Alf A. Heggoy** اختص كل باحث بموضوع معين. فعالجت السيدة أوري ميلر **Aurie H. Miller** الجزائر في نظر وليام شيلرمستندة في ذلك على مراسلاته الكثيرة الرسمية وغير الرسمية، بالاضافة الى كتابه المعروف (ملخص تاريخ الجزائر) واحتل السيد جيمس كوك **James J. Cook** بدراسة عن المغرب العربي في نظر الفرنسيين من 1880 إلى 1929. أما الدراسة الأخيرة فكانت للسيد بول زينق **Paul J. Zingg** عن وجهة النظر الأمريكية نحو افريقية الشمالية.

وقد لخص السيد هيقوي الذي أشرف على موضوعات الكتاب، وجهة النظر العربية نحو أهل افريقية الشمالية في عبارات قصيرة مركزة، وهي القسوة والأفكار المسبقة وسوء التفاهم والتعالي الثقافي. والدوافع الى ذلك في نظره لا تكاد تخرج عن لجوء الكتّاب الى أسلوب المبالغة والاثارة لبيع كتبهم وترويجها بين الناس، ولجوء القساوسة الذين كانوا يعملون على افتداء الأسرى المسيحيين بجلب عواطف

جمهورهم للتبرع والبذل في سبيل أهداف دينية ومادية. والسيد هيقوي متمرس على هذا الأجواء وخبير في شؤون الجزائر والمغرب. فهو من مواليد الجزائر لابوين نرويجيين كانا يعملان في ميدان التبشير في بلادنا، ولذلك فهو خبير بطبائع العرب والفرنسيين معا، يعرف لغتيهم وصراعهم الثقافي والسياسي والاقتصادي. ومنذ الستينات استقر هيقوي ودرّس في أمريكا، واختص بتاريخ الجزائر فألّف فيه عدة مؤلفات، كما درّسه في الجامعات [2] قبل أن يحصل على الجنسية الأمريكية.

أما زميله بول زينق فقد جعل عنوان بحثه الرمال والجمال.والولايات المتحدة الأمريكية: النظرة الأمريكية لشمال افريقية» مستعيرا جزءا من عنوانه من مقولة قالها له صديق أمريكي عندما عرف منه أنه يشتغل بتاريخ افريقية الشمالية، فقد تعجب منه ذلك الصديق قائلا: «كيف يتسنى للمرء أن يستلذ البحث عن الرمال والجمال؟» معبرا بذلك عن العقيدة الشائعة لدى الأمريكيين من أن كل ما يعرفه الانسان الأمريكي العادي عن شمال افريقية هو ما تقدمه له الأفلام والروايات المثيرة.

ولكن العرض التاريخي الذي قدمه السيد زينق عن النظرة الأمريكية لأهل افريقية الشمالية لم يبدأه بعصر الأفلام، بل انه رجع فيه الى السنوات الأولى من ميلاد الجمهورية الأمريكية أيام كانت دول المغرب العربي تمثل صورة الأسد الإسلامي بالنسبة للأوروبيين والأمريكيين على السواء. وإذا كان استعراض السيد زينق يشمل كل بلدان المغرب العربي، فإن حظ الجزائر فيه ضعيف لان الاحتلال الفرنسي الطويل المدة قد قطع حبل العلاقات بين الجزائر وأمريكا منذ 1830، ومن ثمة ارتكزت السياسة الأمريكية في المغرب العربي على المغرب الأقصى بالذات، إلى أن رجعت هذه العلاقة بعد استقلال دول المنطقة. والخلاصة التي انتهى اليها السيد زينق أن النظرة الأمريكية نحو بلدان المغرب العربي كانت تتحكم فيها عدة عناصر: الجهل بتاريخ وثقافة المغرب العربي والتعالي الحضاري والعسكري، والتأثر بالنظرة الأوروبية التقليدية نحو الحضارة الإسلامية وأهلها بما في ذلك فكرة القرصنة. ثم التمسك بمبدأ عدم التدخل بين فرنسا والقوى الوطنية، ولكن ومنذ الحرب العالمية الثانية دخل عنصر جديد في الصورة وهو الخوف من سلطان الشيوعية.

ومن الواضح أن عمل السيد زبتق يدخل فيما نسميه نحن اليوم إعادة كتابة التاريخ. ومن ثم يظهر أن هذا المصطلح ليس خاصا بنا وبتاريخنا، بل ان الدول الأخرى أيضا، بما فيها فرنسا وأمريكا، تحاول أن تعيد كتابة تاريخ علاقاتها مع الجزائر، ليس فقط باستعمال وثائق جديدة، ولكن باعطائها تفسيرا جديداً يتناسب مع التوجه الجديد لمصالح جميع الأطراف، ورفض أغلب ما كتب سابقا في الموضوع على أنه لا يمثل الحقيقة أو حتى نصف الحقيقة أحيانا.

* * *

إن نظرة سريعة الى تاريخ العلاقات الجزائرية الأمريكية يجعلنا نقسمها الى هذه المراحل: المرحلة الأولى من 1776 إلى 1830 أو من استقلال أمريكا الى احتلال الجزائر. والمرحلة الثانية من التاريخ الأخير الى 1842. والمرحلة الثالثة من هذا التاريخ الى استقلال الجزائر، والمرحلة الأخيرة منذ 1962. ولنقل كلمة عن كل مرحلة قبل أن نستنتج التفسير التاريخي الذي انتهت اليه.

لقد بدأت المرحلة الأولى بتفوق الجزائر وانتهت بتفوق أمريكا، وذلك يظهر في الشروط التي أملتها الجزائر على أمريكا عندما كانت هذه في أول طريق الاستقلال، ضعيفة الأسطول، معزولة عن العالم القديم، تعاني من القهر الانكليزي والغيرة الأوروبية بما في ذلك صديقتها فرنسا. وقد انتهت هذه المرحلة، كما ذكرنا، بفرض معاهدة 1815 (التي لم يصادق عليها الكونغرس الا سنة 1822) بالقوة البحرية الأمريكية. ولذلك فان هذه المرحلة قد انتجت مؤلفات عديدة من الجانب الأمريكي (وللأسف لم نعرف أن الجزائريين ألفوا شيئا في الموضوع لا عن تفوقهم ولا عن ضعفهم). ودخلت الجزائر الأدبيات الأمريكية بشكل قوي. فبالاضافة الى المراسلات الرسمية، وجدنا المؤلفات التي كتبها الأسرى الأمركيون الذين وقعوا في قبضة الجزائريين ؛ ومن بين هذه المؤلفات أعمال «تاريخية» تصف تاريخ الجزائر وحكومتها واقتصادها وثقافتها وعلاقاتها، ومعظمها كانت غير منصفة، كما لاحظ السيد هيقوي، لان الهدف منها الإثارة الدينية والوطنية والاستعطاف للفداء

والانتقام [3]، وإلى جانب ذلك انتجت هذه الفترة أدبا أمريكيا عن الجزائر في شكل مسرحيات وروايات كان موضوعها الاساءة الى سمعة الجزائر، ومن أشهر ذلك: رواية (الجاسوس الجزائري في بنسلفانيا) لبيتر ماركو و (الأسير الجزائري) للدكتور أندرهيل [4].

ولا شك أن خاتمة هذه المرحلة يمثلها كتاب وليام شيلر: مختصر تاريخ الجزائر الذي نشره سنة 1826. والغريب أن هذا التاريخ (1826) يذكرنا نحن المسلمين بسحق السلطان محمود الثاني لطائفة الانكشارية في اسطانبول، وهي السنة نفسها التي ألف فيها ابن العنابي كتابه (السعي المحمود في نظام الجنود) داعيا فيه الى اصلاح الجيش وتجديد الحياة العسكرية والعلمية لدى المسلمين لمواجهة الخطر المحدق بهم. ففي الوقت الذي كان ابن العنابي يدعو الى ضرورة الاصلاح قبل فوات الأوان، كان شيلر يقترح في كتابه على الدول الأوروبية احتلال الجزائر، كاشفا لهم عن عيوب نظامها وضعف قوتها و«قابليتها» للاستعمار. وبدل أن يقرأ حكام الجزائر كتاب ابن العنابي ويترجموا كتاب شيلر «لجّوا في طغيانهم يعمهون» فلم يدخل (السعي المحمود) الجزائر حتى مخطوطا حسب علمنا قبل 1830 [5]، بينما أخذت به القنصلية الفرنسية بالقاهرة علما، وسارع الفرنسيون الى ترجمة كتاب شيلر وتطبيق اقتراحه قبل أن يسبقهم الى ذلك منافسوهم الأنجليز [6].

إن الكتابات الأمريكية اللاحقة التي عالجت تلك المرحلة من العلاقات مع الجزائر لجأت، في غياب الطرف الآخر (الجزائر) الى كيل المدح بالجزاف لابطال أمريكا على الساحل البربري الذين شقوا لبلادهم طريق الدبلوماسية والتجارة وفتحوا أمام أسطولها مضائق جبل طارق وحتى مضائق الدردنيل والبوسفور. فلمعت في كتاباتهم أسماء الدبلوماسيين: جول بارلو **J. Barlow** وجيمس كاثكارت **J. Cathcart** ووليم شيلر. أما أمراء البحر فظهرت أسماء ديكاتور (قاتل الرييس حميدو) ووليام بامبريدج، واسحاق شونسي، الخ. ولقد تصنّع الكتّاب الأمريكيون الى الوقت الراهن، كما لاحظ ذلك السيد زبتق، الاشادة بأبطالهم بشكل فضفاض يجعل معظم كتبهم لا تناسب حتى تلاميذ الثانويات ، اذ أن

عناوينها نفسها توحي بذلك، مثل كتاب دونالد شيدسي D. Chidsey **الحروب في افريقية الشمالية، القرصنة العربية وميلاد البحرية الأمريكية** (1971)، ومثل كتاب هـ. بارنباي H. Barnby : **مساجين الجزائر: كتاب عن الحرب الأمريكية ـ الجزائرية المنسية 1785 ـ 1797**. (1966).

أما المرحلة الثانية فلا نكاد نعرف تآليف تعبر عن وجهة النظر الأمريكية في تطور التاريخ الجزائري. لقد استمر القناصل الأمريكيون في مراسلاتهم الرسمية، ولا شك أن وثائق وزارة الخارجية الأمريكية مليئة بالملاحظات والمعلومات عن أوضاع الجزائر منذ الاحتلال. ومن القناصل الذين نشروا عن الجزائر بعد احتلالها وليام هودسون، الذي ولع بالخصوص بالأحوال الاجتماعية واللغوية والجغرافية والتاريخية للجزائر. ومن مؤلفاته المنشورة في هذا الصدد: خلاصة القواعد النحوية للغة البربرية، ورحلة الأغواطي، وملاحظات عن شمال افريقية والصحراء والسودان(6)، الخ. وبالإضافة الى هودسون، نلاحظ تردد العديد من السواح الأمريكيين الذين قصدوا الجزائر للإقامة بها فترة من الزمن وتركوا وراءهم انطباعاتهم، مثل جاك كنيدي، الذي ترك كتاباً في أجزاء عن الجزائر وتونس. ويحدثنا جول كامبون، سفير فرنسا بواشنطن بعد أن تولى حكومة الجزائر فترة طويلة، عن إشادة الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت بالمهمة الفرنسية الحضارية في الجزائر وقضاء فرنسا على القرصنة الجزائرية وتخليص أمريكا وأوروبا من الجزية التي كانت مفروضة عليها(8). أما الرئيس وودرو ويلسون فلا نعرف أنه أجاب الأمير خالد والوفد المرافق له، عن طلبهم تطبيق مبدأ تقرير المصير على الجزائر الذي تضمنته عريضتهم اليه سنة 1919.

أما التأليف التاريخي فقد ظهرت منه بعض الأعمال العامة المركزة على ظهور البحرية الأمريكية على حساب القراصنة المغاربة. ومن بينها غاردنر آلان G. W. Allen (بحريتنا وتجارة افريقية الشمالية) ـ 1905، ثم، أروين Ray W. Irwin عن (العلاقات الأمريكية الدبلوماسية مع دول المغرب العربي 1776 ـ 1816) 1931 وكلها أعمال تظهر تفوق الأسطول الأمريكي على أساطيل دول

المغرب العربي من جهة وصعود النجم الأمريكي على المسرح العالمي ولا سيما عالم البحر الأبيض المتوسط، مركز الثقل في العالم القديم. وعندما رجعت شخصيا الى الحياة الأكاديمية لم أجد في الرسائل الجامعية الأمريكية المقدمة عن الجزائر بين الحربين في ميدان التاريخ سوى رسالتين الأولى بقلم جيمس سوين J. Swain عن (العلاقات الأنجليزية ـ الفرنسية حول الجزائر 1830 ـ 1848)، ط. 1926، والثانية بقلم جوان مكارثي بعنوان (السياسة الفرنسية نحو الأهالي والكنيسة في الجزائر)، ط. سنة 1938 وكلتاهما في حدود 75 صفحة(9).

ومنذ 1942 أخذ الأمريكيون يهتمون أكثر فأكثر بالجزائر والمغرب العربي عموما. فقد نزلت قواتهم العسكرية بلادنا في آخر ذلك العام وبقيت فيها الى ربيع السنة الموالية. وحل بها أيضا الرئيس فرانكلين روزفلت، وممثله روبيرت مورفي، وانطلقت منذئذ أجهزة المخابرات العسكرية وأجهزة السلك الدبلوماسي وأجهزة البحث الأكاديمي ورجال الصحافة تبحث في تاريخ الجزائر، ولا سيما القريب منه. وإذا حكمنا من المنشورات التي صدرت عن تلك الأجهزة، فإننا لا نجدها تخرج عن وصف النظام الاداري والاقتصادي والتجاري والاجتماعي القائم عندئذ في الجزائر، وقد حاولت الصحافة والمراسلات الدبلوماسية أن تصف أيضا المشاعر الوطنية وحالة الأهالي، الجزائريين تحت السلطة الاستعمارية. ومنذ البداية أعلن الأمريكيون أنهم لن يحاولوا التأثير على النظام الاستعماري الفرنسي أو المس بوحدة الامبراطورية الفرنسية. وقد ظهرت هذه السياسة في مواقف الدبلوماسيين المتصلين بالحركة الوطنية أيضا. فالسيد روبير مورفي والسيد دوليتل، قنصل أمريكا في تونس، عبرا عن ذلك في اتصالاتهما مع زعماء الحركة الوطنية. ومع ذلك ظهرت تفاسير لمواقف فرحات عباس ومصالي الحاج على أساس أن الأول معتدل يميل الى النظام الغربي بينما الثاني متطرف يميل الى النظام الشيوعي. ولكن الحركة الوطنية كانت ما تزال في نظر أولئك القوم ليست من القوة بحيث تهدد الوجود الفرنسي(10).

ولكن هذا لا يعني أنهم أغفلوا التطور التاريخي للجزائر، فأحداث الثامن مايو 1945، وميلاد الأحزاب بعد 1946، قد تصادفت مع الحرب الباردة التي تولدت

عن الحرب العالمية الثانية. ولذلك اهتم المحللون الأمريكيون بتوجهات الجزائر، وعلاقتها بأحداث الجارتين تونس والمغرب، والجامعة العربية، والمعسكر الاشتراكي ومن جهة أخرى ظهرت مجلة الشرق الأوسط 1948 التي خصصت قسما لأخبار شمال افريقية. وفيها نشر مانفريد هيلبورن M. Halporn مقالتين احداهما عن أحداث الثامن من ماي والأخرى عن أحدث الكتب الفرنسية عن الجزائر، وكلتاهما تحتوي على نقد مقنّع للسياسة الفرنسية[11]. ولم يهمل الأمريكيون، مع ذلك، تاريخ علاقاتهم البعيدة بأهل شمال افريقية، اذ نشر باحثان (L. W. Wright و J. N. Maclead) كتابا بعنوان (أول الأمريكيين في افريقية الشمالية: كفاح وليام ايتون من أجل سياسة قوية ضد قراصنة افريقية الشمالية، 1799 ـ 1805) ط. 1945.

ومن المعروف أن السياسة الأمركية بعد الحرب العالمية الثانية كانت تقوم على إحلال النفوذ الأمريكي محل النفوذ الاستعماري التقليدي. ويستوي في ذلك الاستعمار الفرنسي والانجليزي الخ. وما دامت موجة الاستعمار التقليدي قد أخذت في الانحسار عن طريق الثورات والكفاح السياسي وهيئة الأمم المتحدة الخ. فإن سياسة الدولار والمساعدة التكنولوجية والمعونة الاقتصادية . بالإضافة الى التدخل العسكري اذا اقتضى الحال. قد حلت محل النفوذ الأوروبي التقليدي. وقد ظهر ذلك أيام الثورة التحريرية اذ قامت أمريكا بتزويد فرنسا بالسلاح والعتاد عن طريق الحلف الأطلسي ومساندتها في الأمم المتحدة. ونحو ذلك.

وبينما السياسة الرسمية تسير في الاتجاه المذكور كانت البحوث والكتابات الصحفية والدراسات تتجه نحو التحضير لما بعد رحيل الفرنسيين عن الجزائر. ومن ضمن ذلك . الاتصال غير الرسمي ببعض قادة الثورة. وفتح مكتب لجبهة التحرير في نيويورك. ومنح الطلبة الجزائريين منحا دراسية. وتشجيع المنظمات الخيرية والدينية على التبرع للاجئين الجزائريين. وقد هز تصريح السناتور جون كنيدي سنة 1957 الكونغرس الأمريكي بدعوته لتغيير سياسة بلاده نحو الجزائر والاعتراف لها بحق تقرير المصير والاستقلال. وظلت الكتابات الصحفية والأعلام عموماً موزعاً. منه ما كان يقف مع فرنسا الصديقة القديمة للجمهورية الأمريكية واعتبارها حامية

الجناح الجنوبي للحلف الأطلسي ضد الشيوعية، ومنه ما كان يقف مع حق الجزائر في الاستقلال والحرية اقتداء بكل الشعوب الأخرى وانسجاماً مع مبدأ الديمقراطية وحقوق الإنسان، دون التخلص طبعاً من الاعجاب بفرنسا ناشرة الحضارة والعدالة والمساواة وصديقة أمريكا التقليدية.

وتطول القائمة لو أننا استعرضنا هنا مختلف الكتابات التي ظهرت في هذه الأثناء (أيام الثورة) بأقلام أمريكية ، ولكن يكفي أن نذكر نموذجا للاتجاهين، الاتجاه الأول يمثله مايكل كلارك في كتابه (الاضطراب في الجزائر)[12] ، الذي عبر عن اتجاه يمكن أن نسميه يمينيا متطرفا بمساندته لاعمال الجيش الفرنسي في الجزائر ووقوفه إلى جانب مطالب الكولون. اما الاتجاه الثاني فتمثله السيدة جوان قلسباي في كتابها (الجزائر تمرد وثورة)[13] ط. 1959 وهو الكتاب الذي حكمت فيه حكما قاسيا على الاستعمار الفرنسي في الجزائر متتبعة مراحله ومنتهية الى أنه إلى زوال، ومنتصرة للثورة الجزائرية. ومن الأكيد أن السيد ريتشارد بريس R. Brace[14] يدخل في الاتجاه الثاني اذ كتب كتابين على الأقل لصالح الثورة الجزائرية وكان على اتصال ببعض رجالها. والغريب أنه باستثناء اطروحة قلسباي التي كانت في العلوم السياسية، لا نكاد نجد أطروحة واحدة أمريكية عن الجزائر خلال فترة 1942ـ1962، سواء في العلوم السياسية أو التاريخ أو غيرهما. ولكن هذا لم يمنع من ظهور بعض الأبحاث التاريخية الرصينة عن الموضوع، مع مناقشة عميقة لمصادر تاريخ الجزائر والتساؤل عن جدوى الاعتماد على النص الفرنسي فقط، ومحاولة اعطاء تفسير جديد لمشاكل تاريخ الجزائر.

أما المرحلة الرابعة من النظرة الأمريكية نحو الجزائر فقد شهدت تحولا كبيرا في الاهتمام والدراسات . فالجزائر بلد انتزع حريته بالقوة ومن ثمة فهو بلد صعب المراس يحتاج الى طرق مختلفة للترويض. ومن جهة أخرى فالجزائر واسعة الأرجاء وغنية بالموارد الطبيعية التي يسيل لها لعاب رجال الأعمال. وهي بلد ذات عمق كبير في المغرب العربي والعالم العربي وافريقية. وأخيرا فهي في نظرهم أكثر البلاد العربية تغربا في المذاهب والثقافة والنظم بحكم الفترة الاستعمارية الطويلة. وإذا كانت الدراسات غير التاريخية التي تعكس هذا الاهتمام لا تعنينا هنا، رغم كثرتها، فانه يكفينا ان نركز

على الدراسات التاريخية التي انطلقت منذ 1962.

تحتل الجزائر مكانا مرموقا في أقسام التاريخ في الدراسات الافريقية والعربية في الجامعات الأمريكية، بل أن بعض الجامعات اهتمت بتنشيط مراكز بحث متخصصة عن شمال افريقية. وبالإضافة الى التدريس والبحث الأكاديمي توجد المكتبات والترجمات والزيارات والجماعات المتخصصة، ويضاف الى ذلك تدريس اللهجات الشائعة في افريقية الشمالية. أما الجزائر بالذات فقد ظهر عدد من الباحثين المتخصصين في تاريخها مركزين اهتمامهم على الحقبة المعاصرة. ومن الملاحظ أن المؤرخين الأمريكيين قلما اتجهوا إلى دراسة تاريخ الجزائر القديم أو الوسيط.

أما الفترة العثمانية (التي يسميها البعض حديثة) فلم يهتم بها الا عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. ومن بينها كتاب أندرو هيس A. Hess الذي سماه (الحدود المنسية) والذي أعطى فيه تفسيرا جديدا للحدود الحضارية بين الشرق والغرب في الصراع الذي حدث بين الدولتين العثمانية والاسبانية ممثلا في شخصيتين بارزتين في غربي البحر الأبيض، هما: خير الدين بربروس وشارل الخامس. وكانت الجزائر في نظر السيد هيس تمثل الحدود الشرقية لصراع الحضارتين، ولعل كتاب جون وولف (الجزائر تحت الأتراك) الذي قمنا بترجمته[١٤]، يعتبر ضمن اهتمامات الباحثين الأمريكيين أيضا بالجزائر، رغم ان السيد وولف لا يوضح ذلك، ويذكر أن اختياره للجزائر كان بمحض الصدفة تقريبا. وقد تجلت في كتابه النظرة الغربية عموما، ولكنه جردها الى حد كبير من العاطفة الدينية والاستعمارية، وعوضها بعاطفة القوة والتعالي الحضاري.

بينما حظي العهد الفرنسي بعدة أطروحات أصبح بعضها كتبا تباع في الأسواق، كما نوقشت رسائل تناولت عهد الاستقلال أيضا. وقد أحصينا حوالي عشرين رسالة دكتوراة متخصصة في تاريخ الجزائر منذ 1830. تناول بعضها الحركة الوطنية وبعضها نظام القضاء الإسلامي، وبعضها ملكية الأراضي وقوانين انتزاعها واستغلالها بالإضافة الى الاستيطان الأوروبي وسياسة بعض الفرنسيين مثل بوجو وسوستيل، بل أن بعضهم اختص في تاريخ بني ميزاب. ومن ثمة أصبح لأمريكا مؤرخوها المختصون في تاريخ الجزائر بمفردها[١٥]. وهناك أيضا اطروحات نوقشت في

العلوم السياسية لها صلة وطيدة بالتاريخ مثل الحركة المصالية لزاقوريا، والنخبة السياسية الجزائرية، لكوانت، والارهاب الثوري الذي يعني به صاحبه السيد (هاتشنسون)، جبهة التحرير الوطني.

ومنذ سنوات قليلة ظهرت مؤسستان تحتيان بتاريخ المغرب العربي، أولاهما في تونس والثانية في أمريكا. أما مؤسسة تونس فهي (المركز الأمريكي للدراسات المغربية) وأما مؤسسة أمريكا فهي (جماعة الدراسات المغربية). وفي الظاهر فان الأولى ما تزال في مرحلة تأسيس مكتبة عمل واستقبال الباحثين الأمريكيين فيها ومنح لبعض المختصين في البحث عن أحوال المنطقة، وتشجيع الزيارات والندوات، وحضور المؤتمرات المهتمة بتاريخ المنطقة الخ. وأما المؤسسة الثانية فيجتمع أعضاؤها مرة في السنة في احدى الجامعات ويلقون أبحاثهم ويناقشون ما جدّ من المؤلفات والنظريات، ولهم كتابة عامة ومقر. ويقومون بالترشيح للجوائز ونحوها في ميدان الاختصاص. ومعظم كتابات هؤلاء تتسم بالتعاطف مع تاريخ المغرب العربي في مقابل الموقف السلبي الذي وقفه منه مؤرخو الاستعمار الفرنسي وحتى المؤرخون الأمريكيون الأولون. والظاهر أن أصحاب هاتين المؤسستين يهدفون الى اعطاء تفسير جديد لتاريخ المنطقة ينتج عنه ربط علاقات جديدة بين بلادهم وبلدان المغرب العربي. وهذا التفسير بالرغم من أنه يرضي طموحات أهل هذه المنطقة في الغالب الا أنه في النهاية غير محايد كل الحياد.

* * *

والخلاصة هي أن النظرة الأمريكية لتاريخ الجزائر قد مرت بمراحل المرحلة الأولى تميزت بطابع تمجيد المواقف الأمريكية من رفض دفع الجزية وفرض المعاهدة وقوة الأسطول، ووسم حكام الجزائر بالقرصنة والرشوة، وضعف الضمير والتعصب الديني والتخلف الحضاري.

وتميزت المرحلة الثانية باهمال يكاد يكون تاما لتاريخ الجزائر أثناء العهد الاستعماري، مع الاستسلام المطلق للمقولة الفرنسية بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من الأراضي الفرنسية. وأما المرحلة الثالثة فقد أخذ فيها الاهتمام بتاريخ الجزائر ينمو

تدريجيا، من نقطة المجال العسكري الى نقطة المجال السياسي والاقتصادي والاستراتيجي، ومع ذلك فقد كان الأمريكيون خلال ذلك على طائفتين: طائفة رسمية تراعى العلاقات الدولية وتحافظ على الصداقة مع فرنسا، وطائفة أخذت تمد يدها نحو المستقبل وتعمل على تمهيد الطريق لاحلال النفوذ الأمريكي في الجزائر محل النفوذ الفرنسي بعد رحيله.

وأخيرا انطلقت الدراسات التاريخية المتخصصة حول الجزائر منذ استقلالها وتدعمت بمراكز البحث والمكتبات والمنح والزيارات والترجمات. ولم تعد هذه الدراسات مقتصرة على التاريخ المعاصر فحسب. بل تناولت أيضا الفترة العثمانية، ولا نعرف أن أحدهم قد تخصص حتى الآن في تاريخ الجزائر قديما أو وسيطا. ولعل ذلك يرجع الى غياب أمريكا عندئذ والى صعوبة البحث كلما توغل الباحث في أعماق التاريخ. ويقيننا أن اهتمام الأمريكيين سيصل الى ذلك العهد أيضا، اذا رأوا الضرورة الى ذلك. فهم، كما يبدو، يوظفون التاريخ في حياتهم اليومية كما يوظفون العلوم الأخرى طبقاً لفلسفتهم البراغماتية. ولا يفعلون فعلنا نحن عندما ندرس التاريخ للشهرة واللذة وحتى للبركة.

الهوامش:

(1) Through Foreign Eyes, Western Attitudes Toward North Africa, Washington, DC., 1982, 196 p.

(2) يعمل حاليا استاذا في جامعة جورجيا. واخر كتاب له صدر هذه السنة (1986) بعنوان: (الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830) الذي أصدرته جامعة أوهايو.

(3) في مكتبة كيلمنس (جامعة ميتشيغان) مجموعة من الكتب القديمة النادرة في طبعاتها الأولى حول العلاقات الجزائرية - الأمريكية مثل (يوميات الأسر والمعاناة لجون فوس J. Foss) و(تاريخ أسر ومعاناة مريا مارتن M. Martin) الخ. الأول مطبوع سنة 1798 والثاني سنة 1911.

(4) أنظر عن ذلك مقالنا (أثر الجزائر في الأدب الأمريكي) مجلة الثقافة. عدد 86 (مارس - أبريل 1985) ص 37_69.

(5) قمنا بدراسة هذا الكتاب وحياة ابن العنابي، أنظر ذلك في (ابن العنابي رائد التجديد الإسلامي) ط. 1، 1977. وقد قام الأخ محمد بن عبد الكريم بتحقيق ونشر نص كتاب (السعي المحمود في نظام الجنود)، الجزائر 1981.

(6) ترجم اسماعيل العربي كتاب شيلر الى العربية بعنوان (مذكرات وليام شيلر)، 1982. كما ترجم كتاب لانكارت الآتي بعنوان (مذكرات أسير الداي: كاثكارت قنصل أمريكا مع المغرب) الجزائر. د.ت.

(7) أنظر عنه مقالنا المذكور (أثر الجزائر في الأدب الأمريكي) ص 59_66.

(8) جول كامبون (حكومة الجزائر العامة)، باريس - الجزائر، 1918، أنظر المقدمة. كان كامبون حاكما عاما على الجزائر من 1891 - 1897.

(9) أنظر مقالنا (رسائل الدكتوراة الأمريكية عن الجزائر) في مجلة التاريخ، عدد 6، يوليو، 1978.

(10) أنظر كتابنا (الحركة الوطنية الجزائرية) جـ 3، ط. 3، الفصل 7، 8. وكذلك كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) جـ 2، بحث (موقف أمريكا والجامعة العربية من حوادث 8 مايو 1945).

(11) المقالة الأولى في نفس المصدر (مجلة الشرق الأوسط) أبرل 1948، والثانية في نفس المصدر أبريل 1949.

(12) كان يرأس جريدة (النيويورك تايمز) من شمال وغرب افريقية مدة أربع سنوات وطبع مرتين 1959 - 1960.

(13) ترجم هذا الكتاب الى العربية عن الانجليزية. وقد نالت به صاحبته شهادة الدكتوراه في الديبلوماسية والقانون من كلية فلاتشر سنة 1959، وماتت قبل طبع الكتاب.

(14) نشر ريتشارد بريس مع زوجه (عذاب الجزائر وأصوات جزائرية) الأول سنة 1960، والثاني 1965.

(15) ترجمناه بعنوان (الجزائر وأوروبا 1500 - 1830)، 525ص.

(16) من المؤرخين المختصين بالجزائر، الان كريستيلو (مختص بالقضاء الاسلامي ونخبة القرن التاسع عشر) كتابه مطبوع، ودونالد هولسنقر (مختص بتاريخ بني ميزاب) في العهد العثماني وأوائل الفرنسي)، مخطوط. وقد أشرنا الى بعض كتب الفهيقوي، ومنهم أيضا جيمس كوك (الذي ألف عن غلاة الاستعمار الفرنسي في القرن الماضي وأوائل القرن الحالي في الجزائر).

حروب المقاومة بالجزائر

كما صورتها الكتابات الفرنسية

يحيى بو عزيز

أيها السادة الزملاء الأفاضل:

يشتمل موضوعي هذا على أربعة محاور أساسية مرتبطة ببعضها البعض حسب اجتهادي، ولو أن الأول شارد نوعا ما. ويعتبر تمهيدا للمحاور الباقية:

أولا: صلات الجزائر وباقي بلدان المغرب العربي بالأتراك والدولة العثمانية:

فقد اقليم المغرب العربي وحدته السياسية الكبرى خلال القرن الثالث عشر الميلادي، بعد سقوط دولة الموحدين وانقراضها، على أيدي الزعامات المحلية: الحفصية، والزيانية، والمرينية، التي كونت لنفسها دويلات صغيرة دخلت فيما بينها في صراع وتطاحن، وفي حروب مرهقة أنهكتها وأضعفتها، ونشرت فيها التفسخ والانحلال. فشجع ذلك الأوروبيين على شن المزيد من الغارات والحروب المدمرة على كامل المناطق الساحلية للاقليم.

وفي خلال القرنين 15 و16 الميلاديين، اشتدت غارات الاسبان والبرتغاليين. وتكثفت على مدن وموانئ الشمال الافريقي من طنجة غربا الى طرابلس الغرب شرقا، وعجز السكان بوسائلهم الخاصة على رد هذا العدوان. وهذه الغارات. فاستنجدوا بالأتراك العثمانيين الذين تمكنوا من انقاذهم وانقاذ بلادهم. وحمايتها من أخطار

الاحتلال الأوروبي، ومن التنصير، والتمسيح اللذين كان يتحمس لهما هؤلاء المغيرون والمهاجمون من الاسبان، والايطاليين، وحلفائهم.

وقد استقر الأتراك بمدينة الجزائر عام 1516 م، وألحقوها بالدولة العثمانية عام 1518 بطلب من السكان، وإشارة وتشجيع من خير الدين، على أساس أنها أكبر القوى الإسلامية التي يمكنها أن تقدم العون والحماية والمساعدة[1].

ولعبت الجزائر، ابتداء من هذه الفترة دورا هاما وبارزا وفعالا في مقاومة هذه الغارات والغزوات الأوروبية بفضل قواتها البحرية الحديثة وتمكنت من انقاذ عشرات الآلاف من مهاجري الأندلس، المطرودين والمطاردين، ومن ردع العدوان الأسباني الأوروبي، وإيقافه وافشال كل الحملات الاسبانية على مدينتي الجزائر وشرشال وتلمسان في أعوام 1516 و1519 و1531 و1541 و1543 و1544.

كما تمكنت الجزائر ومعها القوات البحرية العثمانية في بعض الحالات، من تصفية كل الجيوب الاسبانية المحتلة في كامل سواحل الشمال الافريقي، عدا المغرب الأقصى، مثل: جيجل عام 1513، وقلعة البينون أمام مدينة الجزائر عام 1529، وطرابلس الغرب عام 1551، وهنين وتلمسان، والمهدية عام 1554، وبجاية عام 1555 وجزيرة جربه عام 1560 وتونس وحلق الوادي عام 1574 ووهران والمرسى الكبير 1792.

كما لعبت الجزائر دورا فعالا، مع القوات العثمانية، في تأديب القراصنة الأوروبيين، ووضع حد لاطماعهم، ونشاطاتهم الصليبية العدوانية، ضد المدن والموانئ الساحلية، لبلدان الشمال الافريقي الإسلامية، وتتبعهم الى عقر ديارهم بالسواحل الأوروبية الجنوبية في اليونان، وإيطاليا وكورسيكا وسردينيا، وصقلية، ومالطة، واسبانيا، والبرتغال، وفرنسا، بل الى بعض بلدان شمال أوروبا كالدانمارك، وبريطانيا، وألمانيا.

وقد مر العهد التركي في الجزائر، بأربعة أدوار ومراحل أساسية وبارزة، كان نفوذ الدولة العثمانية في بدايتها قويا، ومحكما، وفي النهاية أصبح رمزيا وشرفيا، بعد أن برز مجلس ديوان الأوجاق كقوة جديدة في القرن السابع عشر وما بعده. وعمل على الاحتفاظ لنفسه بالسلطة والنفوذ الفعليين في المشاكل الداخلية وفي السياسة

الخارجية، وطبعا كان لبعد الجزائر عن مركز الدولة العثمانية بالمشرق دور في هذا الأمر.

ولكن الشعب الجزائري بصفة عامة، كان شديد التعلق بالخلافة العثمانية، على غرار كل الشعوب الإسلامية، التي لم تكن تتصور السلطة والدولة بدون الخلافة الإسلامية، التي انتقلت الى أيدي الأتراك العثمانيين منذ عام 1517 م بعد أن تم ايقاف آخر الخلفاء العباسيين بمصر وتسليمه شارات الخلافة الى السلطان العثماني سليم الأول.

وفي اطار هذه العلاقات المادية والروحية شاركت الجزائر بقواتها البحرية النشيطة في كثير من معارك الدولة العثمانية في شرق البحر المتوسط وغربه طوال قرون العصر الحديث، وكنموذج ومثال على ذلك: معركة مالطة عام 1546م، وطرابلس عام 1551م، وجربة عامي 1551 و1560 م، ومالطة مرة أخرى عام 1565 م وليبانتو عام 1571 م، وتونس وحلق الوادي عامي 1569 م و1574 م ونافارينو عام 1824 م.

ورغم الخلافات والمشاكل التي كانت تظهر وتبرز بين الحين والآخر، فان العلاقات الروحية لم تتأثر، واستمر سكان الجزائر في تعلقهم بالدولة والخلافة العثمانية، وفي تعاطفهم معها حتى في أزماتها السياسية والعسكرية المختلفة، وفي نشدانهم لنجداتها بعد سقوط بلادهم تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي عام 1830 م وما بعده.

غير أن الكتاب الأوروبيين عامة، والفرنسيين بصورة خاصة حاولوا بكل جهودهم وإمكانياتهم أن يشوهوا هذه العلاقات الطيبة والحسنة، ويصوروا الاتراك في أبشع صورة وأخسها. فنعتوا الحكم التركي بكونه اقطاعيا وطاغيا ومتخلفا، وزعموا أن الأتراك غزاة أجانب استعماريون لا هدف لهم سوى الغزو والقرصنة البحرية وأدعى بعضهم بأن دولتهم وامبراطوريتهم هي: دولة الانتحار العسكري. وأصروا على هذه المزاعم الى حملة الاحتلال الفرنسية لمدينة الجزائر عام 1830 وما بعدها، حيث وزع ضباط هذه الحملة منشورا زعموا فيه للسكان بأنهم قدموا الى الجزائر لتحريرهم من ظلم الأتراك وحكمهم الطاغي المتعجرف.

وهي دعوى متحيزة وباطلة، لا أساس لها من الصحة ، تعمدوها ليبرروا غزوهم، واحتلالهم للجزائر وكل البلدان الإسلامية التي كانت تحت حكم الأتراك والدولة العثمانية، أما الأتراك فهم اخوان في الدين جاءوا الى الجزائر وكل بلدان الشمال الافريقي بطلب من السكان لينجدوهم ، ويردوا عنهم وعن بلدانهم الغارات والهجومات الأوروبية الشرسة والمكثفة، وأدوا هذا الدور بكل جدارة.

ومن مظاهر تعلق الجزائريين المستمر بالأتراك والدولة العثمانية طلباتهم المتكررة للنجدة منهم ومنها ضد الغزاة الفرنسيين الاستعماريين، وتبشير زعمائهم للجماهير الشعبية بقرب وصول هذه النجدات العثمانية خلال كل ثورات التحرير المختلفة التي خاضوها ، وما أكثرها، في القرن التاسع عشر.

فبعد حملة الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر عام 1830م حاولت الدولة العثمانية استعادتها بالوسائل الديلوماسية ، والعسكرية باعتبارها إقليما عثمانيا[٢]، وسعى معظم زعماء الثورات التحريرية للحصول على نجدات منها لمقاومة هذا الاحتلال الفرنسي الأوروبي وطرده وما ذلك الا بفضل تلك الأخوة الدينية المتينة، وتلك الوشائج القوية التي كانت وما تزال تربط بين الأتراك وسكان الجزائر المسلمين وكل بلدان العالم الإسلامي، وصقلتها الظروف والأزمنة الطويلة.

فالحاج أحمد باي الذي تزعم المقاومة في بايلك قسنطنة والشرق الجزائري، راسل السلطان العثماني محمود الثاني عدة مرات، وطلب منه النجدة والمساعدة فأرسل اليه. كامل بك مبعوثا ووجه له نجدة عسكرية على أربعة مراكب بحرية تحمل اثني عشر مدفعاً وكميات من الذخائر الحربية ومجموعة من العساكر، ولكن باي تونس حجز هذه النجدة بضغط من السلطات الفرنسية، ولطمعه في ضم اقليم قسنطينة إليه كما أكد ذلك الحاج أحمد باي نفسه في مذكراته[٣].

والأمير عبد القادر راسل السلطان العثماني عبد الحميد، والصدر الأعظم، وطلب منهما العون والمساعدة بنفس الروح والرغبة[٤]، وزعم أحد شيوخ الدين في ثورة سكان الزواغة وفرجيوة بالبابور، والشمال القسنطيني عام 1846، بأنه تلقى تعليمات من السلطان العثماني بالبلاد المقدسة بأن يتزعم هذه الثورة ويحث الناس عليها، على أن تصلهم نجدات منه في الوقت المناسب[٥].

وعندما ظهر محي الدين بن الأمير عبد القادر في منطقة الحدود الشرقية للجزائر أو اخر عام 1870 وأوائل 1871 أشاع أتباعه وأنصاره بأن جيشا عثمانيا من ستة آلاف جندي في طريقه الى تونس والجزائر لتحريرها وإعادة سيطرة الدولة العثمانية عليها ولوحظ فعلا وجود ضباط أتراك يجيدون العربية في الجنوب التونسي يقومون بالدعاية لصالح الدولة العثمانية ووصلت الى ميناء تونس أسلحة وذخائر لصالح الثوار الجزائريين ولكن باي تونس حجزها وأمر الضباط الأتراك بمغادرة تونس تحت ضغط السلطات الفرنسية الاستعمارية بالجزائر(*).

وقد ادعى الباشا غا المقراني زعيم ثورة 1871 نفس الفكرة وأشاع في الناس قرب وصول نجدة السلطان العثماني (7)، وظهرت بالجزائر خلال هذه الثورة «الجمعية الخيرية الاسلامية للجزائر المحمية» وراسلت الصدر الأعظم محمد نديم باشا وطلبت منه ومن الرسميين العثمانيين الدعم والمساعدة لمحاربة جيش الاحتلال الفرنسي وطرده ولامت بعض الشخصيات العثمانية التي وعدت بتقديم الدعم ولم تف بوعدها وعرضت على السلطان العثماني واحد من ثلاثة أمور كحل لمعضلة الجزائر وهي:

1 ـ توسيط بعض الدول الأوروبية لكي تسلم فرنسا بسيادة السلطان العثماني على الجزائر.

2 ـ مطالبة فرنسا بالتنازل على الجزائر مقابل مبلغ مالي تعهدت الجمعية بدفعه.

3 ـ اعلان الحرب على فرنسا لطردها بالقوة إذا رفضت أحد الحلين الأولين.

وأشادت هذه الجمعية بشجاعة سكان الجزائر واستعدادهم التام لمحاربة الفرنسيين اذا توفرت لهم الأسلحة الكافية(*).

وخلال حروب الدولة العثمانية ضد الروس عام 1877 م تعاطف الجزائريون معها وفكر بعضهم في الذهاب الى هناك للمشاركة في هذه الحرب الى جانب العثمانيين وتحدث الضباط الفرنسيون على هذا التعاطف ومنهم الضابط تروملي في الجنوب الوهراني(*).

وحتى في مطلع القرن العشرين لم يتوقف أمل الجزائريين في نجدة الدولة العثمانية

لربط رجال الحركة الوطنية الأوائل، نشاطهم بها وأطلقوا على أول هيئة سياسية أسسوها اسم: «حزب الجزائر الفتاة» على غرار حزب تركيا الفتاة، وذلك عام 1912.

ان كل هذه الأمثلة والنماذج تؤكد مدى تعلق الجزائريين بالأتراك العثمانيين ودولتهم، وما ذلك إلا بفضل الصلات الدينية الوثيقة والعلاقات الأخوية المتينة التي بدأت منذ مطلع القرن السادس عشر ولم تنقطع أبدا حتى اليوم. وفي الجزائر اليوم مجموعة من الباحثين، يؤكدون على هذه الصلات ويلحون على تعميقها وتمتينها **اعترافاً بالدور البارز والمشرف الذي لعبه الأتراك في حماية الجزائر من الاحتلال الاسباني، ومن التمسيح والتنصير.**

ثانيا: مظاهر المقاومة وروادها بالجزائر في القرن التاسع عشر

بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر العاصمة عام 1830 م واجه الفرنسيون صعوبات كثيرة ومتنوعة في التوسع والاحتلال الى الغرب الوهراني والشرق القسنطيني. بسبب عدة عوامل أهمها ثلاث:

أولا: الطبيعة الجغرافية التضاريسية الصعبة التي تتمثل في كثرة الجبال ووعورة اختراقها والتنقل عبرها خاصة في الشرق القسنطيني وفي اتساع الهضاب العليا، أو السهول في الغرب الوهراني مع صعوبة اختراقها كذلك.

ثانيا: بروز الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي، بمقاومتها البطولية التي دامت ثمانية عشر عاما في شرقي البلاد وغيرها.

وأخيرا: صلابة المقاومة وشدتها التي أبداها الشعب الجزائري في سائر أنحاء البلاد واستمرت وتواصلت قرابة سبعين عاما الى مطلع القرن العشرين.

فقد اعتصم بمختلف أرجاء البلاد معظم المقاومين الجزائريين الكبار والصغار والبسطاء وذوي الشأن وتحولت الجبال والهضاب والسهول والواحات الى معاقل للكفاح المسلح طوال سبعين عاما تقريبا، وبرز أبطال وزعماء، بذلوا النفس والنفيس وقادوا جماهير السكان الى الجهاد المقدس والمعارك الكبرى، ضد القوات

الفرنسية الاستعمارية الغازية ولم يبخلوا في تقديم أية تضحية مهما كانت صعبة أو غالية الثمن.

ولقد مرت المقاومة المسلحة الجزائرية في القرن الماضي بمرحلتين اثنتين أساسيتين الأولى تدخل في اطار مقاومة الأمير عبد القادر، والحاج أحمد باي، في عقدي الثلاثينات والأربعينات، والثانية جاءت بعدها وتلتها في مظهر شعبي صرف، امتدت الى نهاية القرن.

أما المرحلة الأولى: فقد امتدت عقدين من الزمن تقريبا، وتتصف بكثير من التعقيد، والتشابك والاضطراب، بسبب الصراع الحاد الذي كان قائما بين رائدي المقاومة الجزائرية: الحاج أحمد باي، والأمير عبد القادر، والذي لم يكن على أي حال في صالح المقاومة الجزائرية.

وأما المرحلة الثانية: فطويلة امتدت الى حوالي خمسة عقود، أو نصف قرن من الزمن، وبرز خلالها عدد كبير من الأبطال والزعماء قادوا جماهير السكان الى الكفاح المسلح وتزعموا ثورات وتمردات وانتفاضات ضد جيش الاحتلال الفرنسي الاستعماري اختلفت في الظروف، والوسائل، والطول، والقصر، والضحايا، والنتائج، ولكن اهدافها واحدة تتمثل في طرد الغزاة الاستعماريين وتحرير البلاد واستعادة حريتها واستقلالها الوطني.

ففي واحة الزعاطشة جنوب غرب بسكرة، برز الشيخ بوزيان والحاج موسى الأغواطي وغيرهما عام 1849 وقادوا ثورة بطولية بلغت الذروة في التضحية والفداء والصمود رغم العزلة الشديدة، وانعدام الامكانيات المادية وضخامة القوات الاستعمارية التي كانوا يواجهونها وكان عددها حوالي عشرين ألفا واستطاعوا أن يصمدوا أكثر من خمسين يوما في داخل الواحة المعزولة والمحاصرة وأن يكبدوا القوات الاستعمارية خسائر كبيرة مادية وبشرية(11).

وفي الأغواط وورقلة وتوقرت وحواض واد سوف برز الشريف محمد بن عبد الله، ورفاقه في مطلع عقد الخمسينات وخاضوا معارك بطولية ضد كتائب الجيش الفرنسي التي كان يقودها كل من بيليسي، وماكماهون، ويوسف، وغيرهم من الضباط والعقداء وتمكنوا من الاستقلال بالمنطقة مدة من الزمن الى أن اهتدى

الفرنسيون الى الاستعانة ببني حمزة ولد بو بكر ولد سيدي الشيخ وقومه، وكافؤوه على عمله معهم بتعيينه خليفة لهم على كل الجنوب الوهراني(12).

وخلال أحداث الشريف محمد بن عبد الله برز الثائر بن ناصر بن شهرة، بحركته الثورية في كل واحات الجنوب من فيقيق غربا الى اقليم الجريد التونسي شرقا، وتعاون مع ثوار أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الواهراني في الستينات كما تعاون مع ثوار المقراني والحداد عام 1871 عندما امتدت ثورتهم الى الصحراء(13).

وفي أواخر الستينات ظهر الشريف بوشوشة بحركته الثورية في اطار ما عرف بجماعة «المداقانا»، وتعاون مع بن شهرة والمقرانيين وأثاروا كل سكان الواحات الصحراوية انطلاقا من عين صالح(14).

وفي جبال جرجرة والبابور وحوض الصومام برز الشريف بوبغلة، والشريف بوضبع، وبو حمارة، ومولاي ابراهيم، والحاج عمر وفاطمة نسومر، وخاضوا حروبا طاحنة ضد قوات جيش الاحتلال الفرنسي وفتكوا بالكثير منها وكلفوها ضحايا كثيرة ولم تستطع أن تتوغل الى أعماق جرجرة وقراها الا بعد أن جند الفرنسيون عشرات الآلاف من الجنود، وكلفوا الجنرال راندون باقتحام المنطقة في ربيع وصيف عام 1857 بعد أن عادت قواتهم العسكرية من حروب شبه جزيرة القرم شمال البحر الأسود في شرق البحر الأبيض المتوسط(15).

وفي جبال الحضنة، وبريكة، والحنقة، وبسكرة، برز محمد بن بوخنتاش البراكني، والشيخ الصادق الرحماني، أواخر عقد الخمسينات وقادا جماهير السكان الى الكفاح المسلح ضد القوات الاستعمارية في معظم مناطق الهضاب العليا الشرقية وأبدوا من الشجاعة والبطولة والفداء ما جعل شعراء الملحون يتغنون بمعاركهم ومنها: «معركة أم حمام»(16).

وفي الغرب الوهراني برز الأخوة الأربعة: سليمان، محمد، واحمد، وقدور، زعماء لثورة أولاد سيدي الشيخ التي اندلعت عام 1864 وامتدت الى عام 1883 وعمّت كل الغرب الوهراني ومعظم واحات الصحراء الجنوبية من فيقيق غربا الى واد سوف شرقا وتدعمت هذه الثورة بعمي الأخوة الأربعة: سي الأعلى، وسي الزبير، وبابراهيم بن عبد الله، والفضيل بن علي، في مناطق أولاد نايل والحضنة كما تدعمت

بثورة سكان عروش فليته بجبال الونشريس، وحوض الشلف، وجبال الظهرة، بزعامة الشيخ المتصوف سي الأزرق بلحاج، وسي عبد العزيز. وعمّت كل المنطقة ومد زعماؤها أيديهم الى ثوار أولا سيدي الشيخ وتضامنوا معهم ضد قوات جيش الاحتلال الفرنسي[13].

وفي الوقت الذي اندلعت فيه ثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني عام

وكان من ضمن حوافزهم للثورة ثورة اخوانهم في الغرب الوهراني، وثورة علي بن غذاهم ورفاقه في تونس ضد الباي التونسي الذي أصبح لعبة في أيدي القناصل الأوروبيين الأجانب[14].

وفي أواخر عام 1870 اندلعت حركة ابن خدومه في منطقة سور الغزلان وامتدت الى جبال جرجرة وحوض الصومام وكانت بمثابة بداية وتمهيد لثورة المقراني والحداد عام 1871 م التي عمت كل الشرق الجزائري ووسطه، من مليانة وحجوط، وشرشال غربا، الى القل وسوق أهراس شرقا، والى عين الطيبة في أعماق الصحراء جنوبا، وتجند فيها كل السكان وخاضوا أكثر من 340 معركة كبيرة فضلا عن المعارك الصغيرة، والجانبية ودامت ثورتهم هذه قرابة عام وكبدت جيش الاحتلال الفرنسي خسائر كبيرة وفادحة في الأرواح والعمران وفي الامكانيات الاقتصادية ومن أبرز زعمائها الباشاغا محمد المقراني، وأخوه بومزراق، والشيخ محمد أمزيان بن علي الحداد، وابناه: الشيخ عزيز، والشيخ محمد الجعدي، ومحي الدين ابن الأمير عبد القادر، وزعماء عائلة رزقي، وأولاد خليفة، بالشريعة وتبسة، وزعماء بني مناصر في منطقة شرشال، وأولاد عيدون في الميلية، وسكان بالازمة في الأوراس.

وشارك في هذه الثورة حتى الصبايحية الموظفون لدى القوات الفرنسية في زمالات: بجبر والطارف، وعين قطار، وبو حجار، في وسط البلاد وشرقها[15].

وفي عام 1876 اندلعت ثورة سكان واحة العامري جنوب شرق بسكرة بزعامة الشيخ محمد يحيى، والمقدم الرحماني الشيخ عايش وأبدى السكان بطولة

وشجاعة منقطعة النظير رغم العزلة وانعدام الامكانيات المادية كالمؤن والأسلحة[20].

وبعد ثلاث سنوات من هذه الثورة اندلعت ثورة سكان جبال الأوراس الغربية عام 1879 بزعامة الشيخ المقدم الرحماني محمد امزيان وتحولت جبال وشعاب المنطقة وقراها الى معاقل للثوار والمجاهدين الذين ضحوا بكل ما لديهم في سبيل انجاح قضيتهم الوطنية، وعانوا وتحملوا ما لا يتصور حاليا من الأتعاب والمشاق والمآسي[21].

وفي عام 1881 اندلعت ثورة الشيخ بوعمامة في الجنوب الوهراني مرة أخرى كاستئناف وامتداد لثورة أولاد سيدي الشيخ الأولى عام 1864 ، ودامت الى مطلع القرن الحالي العشرين رغم الاتفاق الذي حصل عام 1883 لوضع حد لها من الناحية النظرية[22].

ثالثا: ميزات وخصائص هذه المقاومة الجزائرية:

هكذا كانت الجزائر برقعتها الواسعة مسرحا لعدد كبير من الثورات والانتفاضات، دامت كما ذكرنا حوالي سبعين عاما وتتصف بالمظاهر والخصائص التالية:

أولا: كانت أحداث هذه المقاومة كثيرة ومكثفة في العقدين الأولين: الثلاثينات والأربعينات، وفيما بعد ذلك أخذت تقل وتتقلص بسبب الضغط الاستعماري المتزايد، والمكثف، ماديا وبشريا، وتطبيقه لسياسة التقتيل والطرد الجماعيين وأسلوب التجويع والتفقير، والتجريد من الأملاك العقارية والمنقولة.

ثانيا: زعماء هذه المقاومة تنقصهم فكرة التخطيط وتعوزهم الأسلحة الكافية والمتطورة على عكس عدوهم، ولم يكونوا يملكون سوى الحماس الديني والوطني كسلاح معنوي والفؤوس والعصي، والخناجر، وبعض بنادق الصيد العتيقة، كسلاح مادي وهي ضعيفة الفعالية طبعا.

ثالثا: لعب القادة والشيوخ الدينيون وخاصة الرحمانيون دورا مهما وبارزا وفعالا في هذه المقاومة وكانوا يرتمون فيها أفواجا وجماعات دون تردد ومن ضمنهم:

الشيخ بوزيان، والحاج موسى الأغواطي، بالزعاطشة، وبن عزوز في واحة البرج ومحمد بن عبد الله في توقرت وورقلة والأغواط، والجعدي والحاج، عمر في جرجرة، والحداد وعزيز في صدوق، وبن فيالة، ومولاي الشقفة، وعمر بوعرعور في البابور، وبن التواتي وسي الصديق في بالازمة، وسي الصادق في الحنقة وبسكرة والشيخ عايش في العامري، والشيخ محمد أمزيان في الحمام بالأوراس، وبوعمامة في المقرار الفوقاني والتحتاني، وأولاد سيدي الشيخ في الأبيض سيدي الشيخ.

لقد لعب الدين دورا بارزا في المقاومة الجزائرية وارتبطت كل الثورات بشيوخ الدين واعتمدت عليهم في تجنيد الناس لها. وحفزهم على حمل السلاح، لان الجزائريين في القرن الماضي، والحالي، لم يكونوا يفرقون بين الدين والوطنية خاصة تجاه الغازي الأوروبي المسيحي، النصراني.

رابعا: ان المقاومة الجزائرية في القرن الماضي وان ارتبطت بأسماء أشخاص وزعماء عائلات كبيرة ارستقراطية، في معظمها الا أن الذين اكتووا بنيرانها وارتموا فيها بصورة جماعية ولعبوا الأدوار البارزة والمؤثرة فيها، هم العمال والفلاحون من الطبقات الشعبية الكادحة شيوخا وشبابا رجالا ونساء، ولم تكن لهم مصالح أو امتيازات يدافعون عنها، ويضحون في سبيلها عندما حملوا السلاح وثاروا وانما هو الوازع الوطني الصرف الذي كان ممزوجا بالعامل الديني كذلك لان الدين والوطنية شيء واحد عندهم كما هو كذلك في العقيدة الاسلامية.

رابعا: مزاعم وادعاءات الكتاب الفرنسيين تجاهها:

لقد حرص الكتاب الفرنسيون المعاصرون والمحدثون، ومعظمهم من الضباط والعقداء والجنود، على ابعاد العنصر الوطني عن هذه المقاومة الجزائرية ورجالها وقادتها وعملوا على ربطها بالأسباب الاقتصادية والاجتماعية الصرفة حتى يفرغوها من محتواها وأهدافها الوطنية، وحاولوا بالتالي أن يصلوا الى النتائج التالية:

أولا: ادّعوا أن الجزائريين عنصريون متعصبون دينيا، وعرقيا ولا يستطيعون أن يتعايشوا مع الأجانب الأوروبيين المسيحيين ولذلك كانوا يثورون باستمرار ضدهم وهو مصدر ثوراتهم المتعددة ضد الفرنسيين والدليل في ادعائهم هذا هو كثرة رجال

الدين الذين يرتمون في هذه الثورات ويقودونها ويدعمونها ويؤيدون زعماءها السياسيين والعسكريين.

وهي دعوة باطلة بالأدلة التاريخية القاطعة لأن الجاليات الأوروبية المسيحية كانت تقطن وتعيش بالجزائر قبل حملة 1830 بقرون عديدة في أمن وسلام ومنها الجالية الفرنسية التي تمركزت بالقالة وعنابة، والجزائر العاصمة منذ تأسيس مراكز صيد المرجان الفرنسية بساحل القالة وعنابة في منتصف القرن السادس عشر، **وتمارس نشاطها الديني والاقتصادي بكل حرية طالما احترمت قوانين البلاد واعرافها** وتقاليدها ودينها، ان الجزائريين عنصريون متعصبون ضد الغزاة الأجانب الاستعماريين ليس إلا.

ثانيا: ادعوا أن الجزائريين لا يثورون الا عندما يشتد عليهم الفقر والجوع والعري والخصاصة أما عندما تتحسن أوضاعهم الاقتصادية وينمو ثراؤهم وغناهم فانهم يخلدون الى الهدوء والسكينة ويرضون بحكم الأجانب لهم واحتلالهم لبلادهم ومنهم الفرنسيون وهذا يعني في نظرهم طبعا أن الجزائريين لا يثورون الا من أجل بطونهم الجائعة وأجسامهم العارية أماالفكرة الوطنية والدافع الوطني فبعيد عنهم وغير ذي موضوع.

وهو ادعاء استعماري بحت وخطير في نفس الوقت تبناه معظم من كتب على ثورات الجزائر في القرن الماضي والحالي أمثال: لويس رين، وروبين، وشاتولي، ولوسياني، وهيربيون، وبول أزان، وفواتو، وفيرو، وتروملي، ولاباسي، وماقون، وقارو، وبيليسي، وشارل ريشار، وأوقيستان بيرنار، وسوسي، ولالمان، وبريبوا، وقورشود، ودوتي، وبيكي، وفيليير، وغيرهم. وحتى الذين كتبوا عن هذه الثورات في القرن الحالي ممن لا يزالون أحياء لم يتخلوا عن هذه الفكرة بل أخذوا بها وتقمصوها، وتبنوها[23].

ثالثا: ادعوا ان معظم هذه الثورات في زعمهم ليست وطنية جزائرية لأنها اندلعت بسبب ايحاءات وايعازات من الخارج من طرف قوى أجنبية، فاتهموا المقراني والحداد ومحي الدين بن الأمير عبد القادر بعمالتهم للبروسيين الألمان والدولة العثمانية، واتهموا الشريف بوشوشة وبن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله

بعمالتهم للسنوسيين، واتهموا آخرين بعمالتهم للانجليز المنافسين لهم في النشاط الاستعماري وهي نفس المواقف والادعاءات التي حاول الفرنسيون عبثا، أن يلصقوها بثورة أول نوفمبر 1954 عندما ادعوا أن متزعميها فلاقة وقطاع طرق خارجون عن القانون دفعوا من جهات أجنبية ليقلقوا أمن البلاد، وراحة السكان.

وعلى أساس هذا الزعم وتلك الادعاءات أعدوا مشروع قسنطينة الاقتصادي ليقضوا به على الثورة على أساس أن أسبابها اقتصادية واجتماعية ولكن الثورة سفهت أحلامهم وكذّبت ادعاءاتهم وأثبتت للعالم أجمع أن قضية الاستقلال الوطني الكبرى هي أهم أسباب هذه الثورة الكبرى وكل ثورات الجزائر الأخرى قبلها طوال القرن التاسع عشر.

وقد لعب الدين فيها كلها دورا بارزا وفعالا باعتباره احدى الركائز الكبرى القومية للشخصية الوطنية الجزائرية وذلك من مظاهر الفخر والاعتزاز لكفاحنا الوطني.

ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن السلطات الفرنسية الاستعمارية خلال عهود: ملكية جويلية (1830 ـ 1848) والجمهورية الثانية (1848 ـ 1852) والامبراطورية الثانية (1852 ـ 1870) اتبعت سياسة استمالة العائلات الارستقراطية اليها واسناد وظائف كبيرة لزعمائها مثل: القايد، والآغة، والباش آغة، والخليفة، وشيخ العرب. لتتمكن بواسطتهم من اخضاع السكان اليها بسهولة الى منتصف عقد الستينات ثم أخذت بعد ذلك في تغيير سياستها وأصبحت تميل الى تطبيق الحكم المباشر والاستغناء عن وساطة هذه العائلات الكبيرة وزعمائها. بعد أن قضت حاجتها ونالت وطرها منها ومنهم.

فعمدت الى التقليل من نفوذها وتقليم أظافر زعمائها وتحطيم كبريائهم وانزالهم من مركز الخليفة وشيخ العرب. الى الباش آغا ومن الآغا الى القايد وهكذا. وهو ما فعلته مع زعماء عائلات: أولاد مقران في مجانة. وأولاد سيدي الشيخ في الأبيض سيدي الشيخ. وأولاد المختار في المدية. وأولاد بن صيام في مليانة. وأولاد بن عاشور في فرجيوة. وأولاد بن عز الدين في الزواغة. وغيرهم. وهو مصدر ثورة بعضهم.

وقد ألح الفرنسيون كثيرا على هذا الجانب وركزوا عليه وعلى رأسهم: رين، مؤرخ ثورة 1871 ليؤكدوا الطابع الشخصي لثوراتهم ويبعدوا عنهم العنصر الوطني ولكننا بينا ووضحنا أن الجماهير الشعبية هي التي لعبت الأدوار البارزة والرئيسية فيها وهي ليست لها مصالح وامتيازات تدافع عنها وانما الفكرة الوطنية الصميمة هي التي حفزتها الى ذلك وهو مما يسفه هذه الادعاءات الباطلة ويدحضها ويهدمها من أساسها. ومع ذلك فلا بد من التوضيح أكثر.

فقد اتصف الاستعمار الفرنسي للجزائر بالقسوة، والشراسة، في الميدانين: العسكري والسياسي. وكان من ضمن أهدافه الكبرى: القضاء بصفة نهائية على الشخصية الوطنية الجزائرية ومسخ قوميتها العربية الاسلامية.

ومن أهم الوسائل التي استعملها لتحقيق ذلك، تطبيق سياسة «الفرنسة» بمفهومها الواسع. فألحق البلاد بفرنسا بواسطة تشريع قوانين خاصة لذلك، وعمل على تجنيس الشعب الجزائري، وتنصيره، لتحويله الى مجتمع أوروبي مسيحي، واجتهد في هدم أمجاد الجزائر الفكرية والحضارية، ومسخها وطمسها.

واشترك في هذه العملية الضخمة والخطيرة، فئات كثيرة من المجتمع الفرنسي، عسكريين، ومدنيين، ومنهم عدد كبير من الكتاب والمؤرخين، القدماء والمحدثين، الذين حاولوا بكل ما أوتوا من قوة، ومن حيل، أن يطمسوا الحقائق، والوقائع الناصعة، عن بطولة الشعب الجزائري، وماضيه التليد. فأسالوا أنهار من المداد، واستهلكوا ملايين الأطنان من الورق، لدعم أفكارهم، وادعاءاتهم الاستعمارية. وشوّهوا وزيّفوا ما شاء لهم أن يشوهوا ويزيفوا، وأصدروا أحكاما باطلة، وابتدعوا نظريات هي والحقيقة على طرفي نقيض.

ومن ضمن وسائلهم في ذلك. اهمال الوثيقة الوطنية الجزائرية أو استغلالها استغلالا منحرفا. والاعتماد فقط على الوثيقة الفرنسية «المتحيزة» في أغلب الأحيان. وانجر عن هذا الأسلوب الخطير. تغليط عدد كبير من الباحثين. والمنصفين. الذين كان بامكانهم أن يخدموا الحقيقة. ولكنهم ذهبوا ضحية هذا الزيف. والتضليل الاستعماري المقصود.

وحتى يكون الموضوع جليا وواضحا، نورد ثلاثة أمثلة: ونماذج لثلاثة من

هؤلاء الكتاب القدماء والمحدثين منهم، ليكونوا خير شاهد على ما نقول. وذلك تجاه المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي في القرن الماضي، والقرن الحالي.

فلقد اتفقت آراء معظم الكتاب الفرنسيين العسكريين والمدنيين على أن هذه المقاومة ليست وطنية تحريرية، وانما هي عبارة عن انتفاضات وتمردات نابعة من المصالح الشخصية، والتعصب الديني والعرقي.

ـ فلويس رين الذي أرخ لثورات عام 1871 نعت قادتها السياسيين، وعلى رأسهم الباش آغا المقراني، بالاقطاعيين، وادّعى أنهم لم يثوروا لغاية وطنية، وانما تمردوا ضد السلطة للدفاع عن مصالحهم الشخصية، ونعت قادتها الدينيين، وعلى رأسهم الشيخ الحداد، واخوانه الرحمانيين، بالتعصب الديني، والعرقي، ضد النصارى والمسيحيين. ونفى أن يكونوا قد ثاروا وحملوا السلاح من أجل تحرير بلادهم، وطرد الاستعمار الغاصب، وانما من أجل مشاكل شخصية، اقتصادية، واجتماعية، في أغلبها. وهذا الادعاء خطير لانه يهدف الى افراغ المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي من محتواها الوطني.

ـ وبول أزان الذي أرخ لمقاومة الأمير عبد القادر، اختار لكتابه العنوان التالي: «الأمير عبد القادر 1808 ـ 1883، من التعصب الاسلامي الى المواطنة الفرنسية» وهو عنوان فيه ما فيه من الخبث، والمكر، والخداع، والتضليل. والا هل يصدق العقل أن الأمير عبد القادر ثار وحمل السلاح ضد الاستعمار الفرنسي بسبب تعصبه الديني والعرقي. وهل يصدق العقل أن الأمير عبد القادر أصبح مواطنا فرنسيا بعد أن وضع السلاح وسلّم نفسه للفرنسيين.

ـ وشارل أندري جوليان المعاصر الذي يعتبره البعض معتدلا ونزيها، سار في هذا الاتجاه وعلى نفس المنوال، عندما أرّخ للحركات الوطنية في كتابه: «افريقيا الشمالية تسير»، حيث ما انفك يدافع عن الاستعمار الفرنسي، ويشيد بأعماله ومنجزاته، بينما دأب على التحريض بالوطنيين الجزائريين، وإثارة روح التفرقة العنصرية والطائفية بينهم باستعماله كلمات: البربر، والعرب، عن قصد وتعمد.

إن جوليان يحاول أن يفاضل بين الفتح العربي الإسلامي، وبين الغزو الفرنسي الاستعماري للجزائر، ويحاول أن يقارن بين مجازر الحجاج بين يوسف في العراق،

وابن الخطاب المعافري في ليبيا، وبين مجازر الجيش الفرنسي بالجزائر. انه لمنطق غريب حقا من مؤرخ يزعم لنفسه النزاهة، والحياد.

إن الفتح العربي الاسلامي للجزائر، والشمال الافريقي، جاء بعقيدة التوحيد، ونور العلم والمعرفة، والحرية بمفهومها الواسع، والآخاء والمساواة، والاستقرار. وفتح المجال للعمل الحضاري الخلاق في أوسع مجالاته.

أما الغزو الفرنسي فقد جاء ليقضي على الحرية نفسها ويقتل الناس بالجملة، ويجردهم من أملاكهم العقارية، والحيوانية، ويطردهم من أراضيهم، الخصبة الى قمم الجبال الجرداء، والصحاري القاحلة، ويحرمهم من نعمة الحرية، ونور العلم والمعرفة، وحياة الاستقرار. ويفرض عليهم حياة التشرد والترحيل، والفقر، والجهل، والمرض، والحرمان، ويطبق فيهم سياسة الفرنسة والتنصير والتمسيح، والعنصرية العرقية والاجتماعية.

إن مجازر الحجاج بين يوسف في العراق، وابن الخطاب المعافري في ورفجومة، ونفزاوة بليبيا والجريد، كانت ضد الذين أصروا على عبادة الأوثان والأصنام، وعلى حياة الجهل، والخمول والطبقية المقيتة.

أما مجازر ضباط وجنود الجيش الفرنسي الاستعماري بالجزائر، فكانت من أجل القضاء على الشعب الجزائري، وعلى شخصيته القومية العربية الاسلامية، وأمجاده الحضارية، وذلك بإذابته في المجتمع الفرنسي الأوروبي المسيحي مع ابقائه في الدرجة الثانية، أو الثالثة، ولربما الرابعة.

فهل هناك بعد كل هذا مجال للمفاضلة والمقارنة؟

إن جوليان قد أعطى الدليل بأفكاره هذه، على أنه أكثر الكتاب الفرنسيين عنصرية، وتحيزا، بل وتطرفا في الأفكار الاستعمارية، والا فكيف سمح لنفسه أن يفاضل بين الفتح العربي الإسلامي الذي جاء ليخدم الحرية، والحضارة، وبين الغزو الفرنسي الذي جاء ليقضي على الحياة من أساسها ويعدم الحرية. وكيف سمح لنفسه أن يدعي ويسلم بأن الجزائريين لا يؤلفون مجتمعا موحدا، وانما هم أشتات من البربر، والعرب، وأن يدعي أن العرب الفاتحين، وعرب بني هلال، لا يختلفون في شيء عن

موجات الأوروبيين الذين هاجروا الى الجزائر، ووطنوا بها من طرف الاستعمار الفرنسي.

وعلى غرار رين Louis Rinn وأزان Paul Azan وجوليان Charles-André Julien فعل معظم من كتب وأرّخ للمقاومة المسلحة الجزائرية أمثال: شارل فيرو Ch. Feraud وتروملي Trumelet وروبين Robin ومارقون De Margon ولوسياني Luciani وفاشي Wachi وهيربيون Herbillon وبيكي Victor Piquet وقارو Henri-Garrot وبورجـــاد Bourjade وشاتولي Chatellier وفوانو Voinot وغيرهم.

وكما كافحت الجزائر، وناضلت، وقاومت، بلا هوادة، من أجل استرجاع استقلالها القومي، وسيادتها الوطنية، التي تحققت والحمد لله عام 1962، فانها تكافح اليوم، وتناضل وتقاوم كذلك بلا هوادة، من أجل بعث وابراز أمجادها القومية، كواجب قومي، يدخل في اطار استكمال السيادة القومية الوطنية.

أ ـ الوثائق

توجد الوثائق التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة في الأرشيف التالية:

أرشيف ولاية قسنطينة (ا.و.ق).

أرشيف الحكومة التونسية بالوزارة الأولى (أ.ح.ت).

أرشيف وزارة الحرب بقصر فانسان في باريس (A.M.G)

أرشيف باريس الوطني (A.N.P.) .

أرشيف ما وراء البحر بجامعة ايكس آن بروفانس (A.O.M.)

ب ـ المراجع العربية:

ـ بوعزيز (يحي):

(1) الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ط 2 (دمشق 1964) .

(2) ثورة 1971 دور عائلتي المقراني والحداد (الجزائر ـ 1978) 471 ص،

(3) ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، (الجزائر ـ 1980)، 580 ص،

(4) من كفاح الجزائر في القرن التاسع عشر أربعة أحداث في ثلاثة وثائق المجلة التاريخية المغربية عدد 2، «تونس ـ جويلية 1974 ص 94 ـ 102).

(5) وثائق جديدة عن ثورة بن ناصر بن شهرة (1851 ـ 1875) عدد 31، (فيفري ـ مارس 1976) ص 39ـ48.

(6) أضواء على انتفاضة سكان واحة الزعاطشة والشيخ بوزيان عام 1949، الثقافة، عدد 32، (أبريل ـ ماي 1976) ص 39ـ50.

(7) وثيقتان جديدتان عن كفاح الشريف محمد بن عبد الله (1841 ـ 1895)، الثقافة عدد 33 (يونيو ـ يوليو ـ 1976) ص 11ـ28.

(8) أضواء على كفاح الشريف بوشوشة، الثقافة، عدد 34، (أوت ـ سبتمبر 1976) ص 85ـ99.

(9) وثائق جديدة عن دور محي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871 وعن موقف أبيه والسلطات التونسية منه. الأصالة. عدد 35 (أكتوبر 1976) ص. 25ـ62.

(10) نماذج من مقاومة سكان الواحات، الاصالة عدد 41 (جانفي 1977) ص 117ـ134.

(11) دور الأخوان الرحمانيين في ثورة 1871 بمنطقة باتنة. وأثر المقراني والحداد فيها. الثقافة، عدد 38 أبريل ـ ماي 1977 ص 11ـ27.

(12) وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871، الثقافة. عدد 39 (يونيو 1977) ص 11ـ24.

(13) ثورة سكان الزواغة وفرجيوة والبابور ضد الاستعمار الفرنسي وقضية الحاج بن عز الدين الثقافة. عدد 40 (أوغسطس ـ سبتمبر 1977). ص 11ـ21.

(14) جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية، الأصالة عدد 48 (أوت 1977) ص 2_42.

(15) المجهولون من زعماء المقاومة في الشرق الجزائري، الأصالة، عدد 55/54. (فيفري ـ مارس 1978) ص 31_58.

(16)٬ مواقف الرسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكبلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871. **الأصالة، عدد 60 ـ 61. (أوت ـ سبتمبر 1978) ص. 57_202.**

(17)

(17) انتفاضة سكان الأوراس الغربي عام 1979 **الأصالة** عدد 61/60 (سبتمبر 1978) ص 233_233.

(18) أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864_1881) **الثقافة**، عدد 46 (أوت ـ سبتمبر 1978 ص 11_32، وعدد 51 (ماي ـ جوان 1979 ص 31_63.

ـ البيطار (عبد الرزاق): حلية البشائر في تاريخ القرن الثالث عشر 1253 ـ 1335 هـ. تحقيق البيطار (محمد بهجة) مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ـ 1963) جـ 3. 511 ص.

ـ التيمي (د ـ عبد الجليل) : بحوث وثائق في التاريخ المغربي، تونس، الجزائر، ليبيا، من 1816 ال 1871. (تونس ـ الدار التونسية للنشر، مارس 1972). 358 ص.

ـ تشايجي (د. عبد الرحمن): المسألة التونسية والسياسية العثمانية 1881 ـ 1913 ـ ترجمة التيمي (عبد الجليل). تونس ـ دار الكتب الشرقية 1913) 329 ص.

ـ الزبيري (محمد العربي): مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة (الجزائر: الجزائر. ش.و.ن.ت. 1973) 2901 ص.

ـ الصلح (عادل) : سطور من رسالة تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة 1877 (بيروت، دار العلم للملايين 1966) 207 ص.

ـ ماكاهون (الماريشال): فتح الجزائر: ترجمة مصطفى (حامد). (بغداد ـ الشركة الإسلامية للطباعة والنشر، بدون تاريخ) 230 ص.

ـ محمد (الأمير): تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (الاسكندرية 1903) جـ 1. 314 ص.

ـ المرزوقي (محمد): صراع مع الحماية: (تونس ـ دار المكتبة الشرقية 1973) 454 ص.

جـ)المراجع الأجنبية:

– ACTE D' ACCUSATION:
Assises du département de Constantine (Alger – Imp. de l'Association ouvrière V. VALLAND Cie) 81 p.
– AGERON Charles-Robert:
– Les Algériens Musulmans et la France 1871 – 1919. (Paris – P.U.F. 1968) 2 volumes. 1283 p.

– Histoire de l'Algérie contemporaine 1830-1970. 4ème Edition. (Paris – P.U.F. 1970) 126 p. Que-sais-je. N° 400.
– AZAN (Le Général Paul)):
Les grands soldats de l'Algérie (Orlean – 1930) 124 p.
L'Emir Abdelkader 1808. Du fantatisme musulman au patriotisme français. (Paris – 1925) 311 p.
– BASSET(RENE): L'Insurrection Algérienne de 1871 dans les trois chansons populaires Kabyles (Louvain. 1892) 60 p.
– BERNAARD (ARISTIDE):
L'Algérie: sa situation présente, son avenir (Paris – 1868) 16 p.
– BEZY (J.C): La vérité sur le régime militaire en Algérie. (Alger-Avril 1870) 64 p.
– BURZET (L'ABBE): Histoire des désastres de l'Algérie 1866 1867, 1868. Sauterelles, Tremblement de terre, Choléra. Famine. (Alger – 1869) 112 p.
– CHATELIER (LE): Les medaganats. R.A.N° 175, 176, 178, 179, 180, 181.
(Alger – 1886-1887).
– CREMIEUX (ADOLPHE): Réputation de la pétition du M. du Bouzet. (Paris – 1871) 30 p.
– Consistoire central des Israelites en France: Note sur la projet de loi relatif - la naturalisation des Israelites indigènes de l'Algérie (Paris – 13/7/1871) 12 p.
– De l'Algérie au point de vue de la crise actuelle. (Lyon – Avril 1868) 92 p.
– DOMINIQUE (L.C.): Un gouverneur général de l'Algérie l'Amiral de Gueydon: (Alger – 198) 563 p.
– DUCOS (LE): L'Algérie. Quelques mots de réponse à la brochure La vérite sur l'Algérie par le général Ducrot (Paris – 1871) 39 p.
– DUCROT (A): La vérité sur l'Algérie (Paris – 1871) 77p.
– DU BOUZET (Charles): Les Israelites indigènes en Algérie. Pétition à l'Assemblée Nationale contre le décret du 24/10/1870 (Paris – 13 Juin 1871) 14 p.
– DUVAL (JULES):

Réflexion sur la politique de l'empereur en Algérie (Paris – 1866) 148 p.

- DE GUEYDON (Sous l'Amiral):
  Rapport de M. sous l'Amiral de GUEYDON A.M. Ministre (Alger – 29 Avril 1871) A.N.P.
- EMERIT (MARCEL):
  Les mémoires d'Ahmed Bey dernier Bey de Constantine. R.A. Nº 418 (Alger – 1949) p. 65-125.
- FERAUD (CHARLES):
  Le Sahara de Constantine (Alger – 1886) 525 p.
  Histoire des villes de la Province de Constantine, Setif, Bordj-Bou-Arreridj, Messila, Boussaada. (Constantine – 1872) 379 p.
- Notes historique sur la province de Constantine R.A. (Alger – 1886) p. 107 et suivante.
- FOREST (LOUIS):
  La Naturalisation des Juifs Algériens et l'insurrection de 1871.
  Etude historique (Paris 1896) 55 p.
- GARROT (HENRI):
  Histoire général de l'Algérie (Alger 1910) 1189 p.
- HERBILLON (LE GENERAL):
  Insurrection sur venue dans le sud de la Province de Constantine en 1849. Relation du siège de Zaatcha (Paris-1863) 209 p.
- Journal du Blocus de Dra-El-Mizan (19 juin 1871) A.M.G
- JULIEN (C.H.A.):
  Histoire de l'Algérie Contemporaine. La conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871 (Paris, P.U.F. 1964) 613 p.
- LACOSTE (YVES), NOUSCHI (ANDRE), PRENANT (ANDRE): L'Algérie passé et présent. La cadre et les étapes de la colonisation de l'Algérie actuelle (Paris – 1960) 462 p.
- LAMY (A.L.):

Algérie recherche des causes de l'insurrection de 1871.
Le persécutions religieuses y sont-elle pour quelques chose?

(Alger 1781) D.P. 19 A.P 539.

- LE BLANC DE PREBOIS (F.)
  Bilan du régime civil de l'Algérie à la fin de 1871 (Paris – 1872) 16 p.
  Situation de l'Algérie depuis le 4 septembre 1870 (Alger – Octobre 1875) 41 p.
- LE HON (LE COMPTE LEOPOLD):
  Corps legislatif. Discours prononce par le CTE LEOPOLD LE HON.
  Séance du 7 Mars 1870 (Paris – 1870) 89 p.
  Le régime du sabre en Algérie. Extrait de la revue militaire française (Paris – 1869) 48 p.
- LUNEL (EUGENE):
  La question algérienne. Les arabes, l'armée les colons (Paris 1869) 132 p.
- MAC-MAHON (MARECHAL DE FRANCE):
  Mémoires du Maréchal Mac-Mahon duc de Magenta. Souvenir d'Algérie publié par le compte GUY DE MIRIDEL (Paris – 1929) 340 p.
- MARGON (LE COMMANDANT DE):
  Insurrection de la Province de Constantine de 1870 à 1880 – (Paris – 1883) 211 p.
- MARTIN (CLAUDE):
  Histoire de l'Algérie française 1830 - 1962 (Paris – 1963) 508 p.
- MERCIER (ERNEST):
  Le BACHAGA MOKRANI et les causes de l'insurrection de 1871. Extrait du bulletin de la réunion de l'étude algérienne (Paris 19 Août 1900) 32 p.
  L'Algérie en 1880 (Paris – 1880) 280 p.
- NOUSCHI (ANDRE):
  Correspondance du docteur A. VITAL. Avec Ismail URBAN 1845-1874.
  L'opinion et la vie publique constantinoise sous le second Empire et les débuts de la troisième république. Présentation du texte introduction et notes par André Nouschi (Paris – 1959) 432 p.

- PIQUET (VICTOR):
  L'Algérie française. Un siècle de colonisation 1830 - 1930 (Paris 1930) 413 p.
- POSENER (S):
  ADOLPHE CREMIEUX: Grand citoyen français, grand défenseur du judaïsme. Essai biographique (Paris 1939) 38 p.
- RAMBOUD (ALFRED):
  L'insurrection Algérienne de 1871. Etude sociale et religieuse à propos d'une publication récente. Extrait de la nouvelle revue de 1èr et 15 Octobre et 1èr Novembre 1891 (Paris 1891) 63 p.
- RINN (LOUIS):
  Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie (Alger - 1891) 690 p.
  Le grands tournants de l'histoire de l'Algérie. Bulletin de la société de géographie d'Alger (Alger - 1902) 28 p.
  Nos frontières sahariennes. R.A. Nº 117 (Alger Mai 1886) p. 161, 242.
  Deux documents indigènes sur l'histoire de l'insurrection de 1871. R.A (Alger - 1871) p. 21-37.
- ROBIN (LE COLONEL N.):
  L'insurrection de la grande Kabylie en 1871. (Paris - 1901) 579 p.
  Notes et documents concernant l'insurrection de 1856-57. De la grande Kabylie (Alger - 1902) 294 p.
- Histoire du CHERIF BOU BAR'LA. (Alger - 1884) 375 p.
- ROBIN DE LA THEHONNAIS (F):
  L'Algérie en 1871 (Paris - 1871) 44 p.
  Séjour à Tunis du Fils d'Abdelkhader. A.N.P. Craton F. 80 1681.

SIMON (FREDERIC): Les saphis et les smalas. (Tebessa le 2/2/1871) 19 p.
- TAUPIAC (C):
  Les Israelites indigènes. Réponse à la pétition de M. du Bouzet (Paris - 1871) 19 p.

- THOMAS (S): L'insurrection en Algérie 1871 (Paris 1872) p.
- TRUMELET (LE CAPITAINE):
  Histoire de l'insurrection dans le sud de la Province d'Alger en 1864 (Alger - 1897) 250 p.
  Les français dans le désert. Journal d'une Expédition aux limites du sahara Algérien (Paris - 1865) 426 p.
- THUILLIER (EMILE):
  Le royaume arabe devant le jury de Constantine (Paris-Constantine 1873) 55 p.
  Un ancien officier de l'armée d'Afrique3
  L'Algérie devant l'Assemblée Nationale. Causes des insurrections Algériennes (VERSAILLES - 1871) 22 p.
- VOSSION (LOUIS):
  SI EL HADI MOKRANI et la révolte de 1871 (Paris 1905) 18 p.
- WAHL (MAURICE):
  L'Algérie (Paris - 2ème édition - 1889) 442 p.
- WATBLED (ERNEST):
  Souvenir de l'armée d'Afrique (Paris - 1877) 259 p.
- XAVIER (BARDON):
  Histoire nationale de l'Algérie (Paris - 1886).
- YACONO (X):
  Les premiers prisonniers Algériens de l'Ile Saint Marguerite. R.H.M. (Tunis Janvier 1974).
- YVER (GEORGE):
  Correspondance du capitaine DAUMAS, Consul à Mascara (1837 - 1839) (Paris - Alger 1912) 681 p.

- جامعة الجزائر - 1971 - 1980.
- المجلة التاريخية المغربية (تونس 1974 - 1980).
- مجلة تاريخ وحضارة المغرب (الجزائر - 1965 - 1974).

- recueil des notices et mémoires de la société archéologique. Histoire et géographie du département de Constantine (1869-1890).
- Revue Africaine (1856-1950).
- Revue d'histoire maghrebine (1974-1975).
- Les Gaulois (1871) A.N.P.
- La liberté (1871) A.N.P.

مقارنة بين تناول المؤرخين الفرنسيين لبعض قضايا تاريخ الجزائر وتاريخ المغرب الأقصى (الفترة المعاصرة)

محمد العربي معريش

إن الموضوع الذي وقع عليه اختيارنا عند اقتراح ملتقانا هذا عنوانه: «مقارنة بين تناول المؤرخين الفرنسيين لبعض قضايا تاريخ الجزائر وتاريخ المغرب الأقصى» (الفترة المعاصرة). وهو ربما يختلف عن سواه من المواضيع في كونه يتعدى – في أثناء تعرضه للجزائر – إلى المغرب الأقصى الذي تربطنا به روابط حضارية.

أما دواعي طرقنا لهذا الموضوع فهي كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

1) الخروج من تلك الدائرة الضيقة، والخاصة بنا، التي اعتدنا التحرك فيها مع أن ماضينا جزء من ماضي جيراننا وفي موضوع الكتابات الفرنسية بالذات، التي ليست ظاهرة خاصة بنا.

2) فهم النوايا الحقيقية للفرنسيين بالمقارنة والاستنتاج بحكم أن هذه الظاهرة نشأت عن تلك الاقلام الاستعمارية المتعاونة على هدم وتخريب شخصيتنا وتاريخنا المشترك.

3) كون الاستعمار واحدا مهما اختلفت الأسماء التي يمارس في ظلها، الحاقا كان أم حماية. فمن شأن هذه المقارنة أن توقفنا على حسن توظيف الاستعمار للأدوات المحققة لأغراضه وأطماعه، ومن هذه الأغراض الكتابة التاريخية التي تهدف الأقلا

الاستعمارية من ورائها الى تعقيد ابن المستعمرة واذلاله واشعاره بالنقص والمهانة فيقبل الواقع المفروض عليه ويجُد له مبررات فيخضع ويستسلم للغالب منفذا لأوامره ومنتهيا عند نواهيه ومعترفا «بفضله عليه».

4) التحسيس بضرورة اعادة النظر في تاريخنا وفي ميدان هذه الكتابات بالذات والتي ليست ظاهرة خاصة بنا ولكن يمكن تعميمها على باقي الشعوب الاسلامية وشعوب العالم الثالث ككل، الأمر الذي يجعلنا نفكر في تنسيق المواقف والجهود وتبادل التجارب والخبرات لتعديل هذه الرؤية وايقاف هذه الهجمة على تاريخنا والتي لا تزال قائمة الى اليوم.

ومن هنا، ينبغي التفكير في تعميم اعادة النظر في تاريخنا وترجمتها الى حركة يقوم بها مثقفو هذه الشعوب على غرار اتساع رقعة التجارب لحركة التحرير والتحرر بعد الحرب الثانية على سبيل المثال. لا بد اذن من القيام بعملية «تحرير تاريخنا» «Décoloniser notre Histoire» والاستفادة من تجارب بعضنا البعض على غرار استفادة الاستعمار نفسه من بعضه البعض أثناء الحركة التوسعية[1].

ان الاستعمار واحد مهما تعددت صوره وأشكاله والسلطة المنفذة له، فلماذا لا يتعاون مثقفو العالم الثالث على تحرير تاريخهم والدفاع عن شخصياتهم وقضاياهم العادلة، قضايا الانسانية جمعاء لكي تحيا عزيزة مكرمة؟

والحق أن عملية تحرير التاريخ عملية شاقة لأنها تتطلب كفاءات ذات قناعة وادراك عميق بخطورة المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتق هذا الجيل . وهي فضلا عن ذلك تقتضي المرور بمراحل. فأحداث هزة في الأوساط العلمية والثقافية للفت الانتباه الى ما كتب وسيكتب عنا أمر واجب في مثل هذه المناسبة، هذا من جهة ومن جهة ثانية فلا يمكن تصور أن الاستعمار سيسكت عن هذا المسعى ولا أن يقف مكتوف الأيدي ـ وهذا ما يحدث الآن ـ ولا عجب أن يجند أبناء المستعمرات أنفسهم لهذا الغرض.

ان ما نسمعه اليوم عن هذه الأقلام الفرنسية بالذات، أنها صارت تدعو معنا

(1) ج. أ.، هوبسن، **الامبريالية**، ترجمة عبد الكريم محمد، القاهرة، د.ت.، ص: 122.

الى ضرورة أخذ فكرة اعادة كتابة تاريخ هذه المنطقة بعين الاعتبار، ولا تتوقف كعادتها عند هذا الحد ولكنها تبادر بتطبيق الفكرة وبديناميكيتها المعهودة في هذا المجال بالذات، فتجند الجماعات والمراكز العلمية والمؤسسات المتخصصة. وفوق هذا ـ كما أسلفنا ـ فهي تستغل أبناء هذه المنطقة سواء كان منهم المصابون بعقدة الخضوع للغالب أم تلك الجيوش من الطلبة الذين يتوجهون الى الجامعات الفرنسية والى غيرها ليعودوا في النهاية بأطروحات لا تكاد تختلف عن الكتابات الاستعمارية والاستشراقية سوى أنها أكثر حجة علينا بحكم أنها أقلام وطنية[1]. وهكذا، وبمثل هذه الطرق تعاد كتابة تاريخنا وتحت املاء الأوربيين أنفسهم، الذين نشكك في كتاباتهم ونتوقف عند هذا الحد، الا من رحم ربك!

قبل الشروع في مقارنة بعض قضايا تاريخ البلدين في الفترتين الحديثة والمعاصرة وكيف تناولها المؤرخون الفرنسيون ، يليق بنا أن نتفق بادئ ذي بدء على عهود المقارنة . فإذا كان أحد هؤلاء المؤرخين أنفسهم وهو ستيفان غزال، يطلق على مؤرخي الفترة الممتدة بين 1830 و 1880 بالمدرسة الجزائرية القديمة، ويطلق الاستاذ سعد الله على نفس الفترة «عهد المؤرخين العسكريين»[2]. فإننا نطلق في هذا البحث «اسم المدرسة الاستعمارية القديمة» على كل الذين تناولوا تاريخ الجزائر والمغرب الأقصى منذ ما قبل 1830 الى مطلع الثمانينات وهو ما يناسب عهد احتلال تونس والاستعداد للمغرب، هذا فيما أبقينا تسمية «عهد المؤرخين الاختصاصيين»[3] على الفترة الموالية الى الثورة التحريرية في البلدين.

وقد رأينا أن نقف أولا على بعض كتاب كل فترة على حده مع ذكر ابرز المواضيع المعالجة وطرق معالجتها ووجهة نظرهم فيها.

(1) يكفيك ان تقف على المزيد من المعلومات في هذا الشأن بمجالستك لواحد من طلبتنا النزهاء، العائدين من فرنسا لكي تتأكد بنفسك من هذه الحقيقة.

(2) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج 1، الشركة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 1978، ص: 17ـ19.

(3) كما أسماه الدكتور سعد الله.

اما بالنسبة للجزائر، خلال الفترة الاولى، فيمكن تمييز مرحلتين: مرحلة ما قبل الاحتلال (أي العهد العثماني) ومرحلة ما بعد الاحتلال الى غاية الثمانينات.

ففي خلال الفترة الأولى، يمكن حصر المواضيع بصفة عامة في ثلاثة محاور ـ محور مدينة الجزائر، ويشتمل على كل ما يهم الأوروبيين من نشاطها كالتجارة و«القرصنة» فداء الأسرى ودفع الأتاوات والهدايا من طرف الدول وكذلك كل الأعمال العدائية من غارات وهجومات انتقامية وغيرها[1]

ـ المحور الثاني، هو محور حكومة الأيالة الجزائرية، ويشتمل على دراسات تتعلق بجهاز الحكومة ووضعية الأسطول وتنظيات الجيش والعلاقات الخارجية لا سيا مع بقية أقاليم الامبراطورية العثمانية وافريقيا.

أما المحور الثالث فيتعلق بالكتابات التي تتناول أوضاع البلاد لكن من خلال الحملات الانتقامية للحكام الأتراك وكذلك الاعتداءات المتكررة لرجال البايليك فضلا عن الفوضى والاضطرابات التي كانت تعيشها المجموعات القبلية[2].

لم يكن أصحاب هذه الدراسات يعيشون الأحداث ولا هم يتفاعلون معها ولكن كانوا يتفرجون عليها ويسجلون منها ما كان يتماشى مع طباعهم الأوروبية ونظرتهم الخاصة الى الحياة، الأمر الذي ترك هذه الدراسات ـ سواء تعلق الأمر منها بالكتابات الفرنسية أم بغيرها من الكتابات الأوروبية الأخرى ـ لا تعكس بصدق وضعية البلاد وحالة السكان[3]. وأكثر من هذا أن المتتبع لمثل هذه الدراسات يكاد يسلم بأن هذه الحالة لا يمكن أن يوضع لها حد إلا بالتدخل الأوروبي المتمثل في الغزو الفرنسي[4].

(1) ناصر الدين. سعيدوني. الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، **الثقافة**، العدد 45، يوليو 1978، ص: 32.

هناك بحث في هذا المعنى وعن الفترة العثمانية للدكتور مولاي بلحميسي، «موقف المؤرخين الأجانب في تاريخ الجزائر» **الأصالة**، عدد 14ـ15، 1973.

(2) أنظر عن هذه المواضيع قائمة بعناوين الكتب: **سعيدوني**، ص: 30ـ31.

(3) نفس المصدر، ص 31.

(4) نفس المصدر، ص: 30

تلي هذه الفترة، فترة ما بعد 1830 ومن كتابها كاريت، وبيليسي دي رينو، وهانوتو، وديلاما روسلان وبروسلا روفورنيل ولاكروا وبيربروجر وغيرهم. وقد تناولوا تاريخ الجزائر الاقتصادي والسياسي والاداري وبخاصة التاريخ للاحتلال[1].

وفيا يتعلق بالمغرب الأقصى، يذكر «ليي بروفانصال «بأن البلد لفت، خلال العصور الحديثة أنظار أوروبا الغربية أكثر من أي قطر من الأقطار الإسلامية الأخرى. ولم تلبث الطبقة المثقفة الأوروبية أن أخذت منذ القرن 17 م تتوق الى معرفة هذه الأرض القريبة من قارتهم[2].

وهكذا فقد قدر لعدد منهم الاقامة ببعض مدن المغرب وقراه، والتجول في بعض المناطق ومنهم التجار والقساوسة والرهبان وحتى من قدماء الأسرى فحداهم ولع بني قومهم الجديد من المواضيع الى تأليف رحلات وصفوا فيها ما شاهدوه من عادات وتقاليد استغربوها، وسجلوا ما سمعوه من أخبار وما عن لهم من ملاحظات[3]. ومن أمثال هؤلاء نذكر في القرن 16 م و17م و18م: «ديقودوطوريس (1535)، ليون الافريقي ومواط (1683)، وبيدودوسانت أولان (1694)، والقسيس بيسنو (1714) وبرابتويت (1729) وشني (1787)[4] ويكفي القول بأن قسما كبيرا من هذه المؤلفات وأمثالها كثير، موجودة في بيبليوغرافية «بليفار» و«براون» وهي ان دلت على شيء فانما تدل على ما كانت توليه أوروبا من العناية بشؤون المغرب الأقصى[5].

لم يكن المغرب كبلد مستقل عن الدولة العثمانية في نظر الفرنسيين يمتاز بأية

(1) سعد الله، ص: 20ـ21.

(2) ليي، بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، ترجمة عبد القادر الخلادي، دار المغرب، الرباط، 1977، ص: 17.

(3) نفس المصدر، ص، 17.

(4) Diego de Torres, Lon l'Africain, Movette, Pidou de Saint Olon, Le P.Busnot, Braitwait, Chenier

(5) نفس المصدر، ص: 17، وكذلك:

-- **A. LAHJOMRI**, L'image du Maroc dans la litterature Française (de Loti à Mautherlant) SNED, Alger, 1973.

خصائص تميزه عن سواه من الدول المجاورة ، وهو يدخل عادة تحت مصطلح الشرق كما أسلفنا.

لقد كان احتلال مدينة الجزائر التي تتوسط شمال افريقيا دليلا ماديا على ما كانت توليه فرنسا بالخصوص من أهمية تجاه المنطقة ككل.

تبدأ اذن الأبحاث التاريخية ـ التي من شأنها أن تجلي الغموض وتمهد المغرب وتعده. وسيرا في هذا الاتجاه وتبريرا للغزو ، نجد الفرنسيين يصورون شعوب الشرق وضمنها شعوب هذه المنطقة على أنهم بدائيون ، غلظهم الاسلام مما أدى بالغرب الى التفكير في ادخالهم في دائرة الحضارة الغربية والإيمان الصحيح[1].

لقد نادى بالفعل كتاب أمثال «شاطوبريان» و«لامارتين» ، و«فيي» و«هيجو» ـ مع بعض الفروق ـ نادوا بضرورة القيام بعمل حضاري تجاه الشرق ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا يهدفون ـ كغيرهم من كتاب وشعراء ، وفلاسفة ومؤرخين ـ سوى الى جر الرأي العام والضمير الفرنسي نحو أوهام لتبرير عملية الغزو[2].

كان لاصطدام الفرنسيين بالمغرب في حرب «ايسلي» عام 1844 وتحطيم اسطورة الامبراطورية التي لا تغلب ، ازدياد اهتمام أكثر به. وقد راحوا يركزون في كتاباتهم على أسطورة النزاع بين «السلطة المركزية وجهازها : المخزن من جهة ، وبين «الرعية» المؤطرة ضمن قوالب قبلية ودينية : العصبية القبلة والطرق الصوفية من جهة أخرى»[3] . انها بعبارة أخرى كتابات حول «تاريخ انقسام المغرب الى «بلاد المخزن» و«بلاد السيبة» الى مناطق خاضعة للسلطة المركزية ومناطق متمردة ثائرة بزعامة رجال القبائل ومشايخ الطرق الصوفية[4] .

وقد شككوا في شرعية السلطة وفي قدرتها على حكم البلاد فقالوا «بحتمية سقوطها لأن العرب ـ على حد زعمهم ـ كانوا وسيظلون عاجزين عن المحافظة على

(1) LAHJOMRI p. 48.
(2) LAHJOMRI p. 46.
(3) محمد عابد الجابري وآخرون، الانتلجانسيا في المغرب العربي، «تطور الانتلجانسيا المغربية الأصالة والتحديث في المغرب»، دار الحداثة، بيروت، 1984، ص: 9.
(4) نفس المصدر، ص: 9

تنظيم سياسي لان الفوضى تبدو وكأنها عامل طبيعي في حياتهم»[1]. يبقى ما الذي جعل الفرنسيين ينتظرون القرن 19 لاحتلال المنطقة؟ وما الذي أخر احتلال المغرب الى عام 1912 م. ما دام الأمر كذلك في اعتقادهم؟

يبدأ مع الثمانينات اذن، عهد جديد في كتابة تاريخ الجزائر وكذلك المغرب الأقصى لاعتبارات عديدة منها، صدور قانون بانشاء المدارس العليا التي كانت نواة لجامعة الجزائر وكان من بينها، مدرسة الآداب العليا التي فتحت مجال التدريس والبحث في تاريخ المغرب العربي وافريقيا. وقد عرفت هذه الفترة في بدايتها زيادة حدة التنافس على ما تبقى من أقطار شمال افريقيا وبداية الترتيبات لاستكمال احتلالها[2].

وقد امتاز كتاب هذه الفترة بالتخصص ـ كما أسلفنا ـ ولما كانت أبحاثهم تهدف الى خدمة الادارة الاستعمارية وتبرير الوجود الفرنسي في الجزائر ثم في المغرب، فقد قدمت للأساتذة عدة تسهيلات وتشجيعات مادية ومعنوية سواء أكان ذلك أثناء التدريس أم أثناء جمعهم لمادة أبحاثهم[3] .

وهكذا برز عدة أساتذة خلال الفترة ، أمثال مارسي، ورينى باسي، ودوتي، وجورج ايفر، واسكيرا، وماسون، ومارسيل أميريت، وياكونو، فضلا عن عدد آخر من المهتمين بتاريخ شمال افريقية في فرنسا نفسها أمثال جوليان ومانصو وكانياوديل[4].

وكانت المواضيع المعالجة متنوعة فهناك الدراسات اللغوية واللهجات المحلية، وهناك الأبحاث الاجتماعية وتاريخ افريقيا القديم وكذلك النواحي الاجتماعية والاقتصادية للأهالي خلال العهد الفرنسي وقضايا الاستعمار والمكاتب العربية ونشر

(1) LAHJOMRI p. 100
(2) سعد الله، ص: 24.
(3) نفس المصدر، ص: 24.
ساعدهم في هذه المهام انشاء لجان ومصالح مختصة . أنظر : نفس المصدر، ص: 25.
(4) نفس المصدر، ص: 24ـ25.
وكذلك سعيدوني، ص: 35.

المراسلات ومذكرات رجال العهد الفرنسي[1].

وقد تعززت هذه الدراسات باعطاء الاشارة لتشجيع الدراسات الاسلامية في مطلع القرن العشرين[2].

ومع «الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال تجند هؤلاء المؤرخون وقاموا بوضع دراسات تركيبية عن تاريخ الاستعمار في الجزائر وعن جهود فرنسا الحضارية، وهذا في ظل نظرة نقدية شاملة لما تحقق في ميدان الكتابة التاريخية حتى هذا العهد»[3].

وقد صدرت مقالات بين الثلاثينات والخمسينات من القرن العشرين تعبر عن تقييم جهود المؤرخين الفرنسيين وعن مدى تقدم الكتابة التاريخية كمقالة «مارسي»[4] وايفر[5] وياكونو[6].

وإذا كانت الدراسات التي قام بها المؤرخون الفرنسيون تشتمل على تاريخ الحملة والاحتلال والاستعمار فان مايؤاخذون عليه هو عدم تعرضهم لتطور المجتمع الجزائري وسياسة بلادهم نحو الجزائريين[7].

وكان الأمر في الجزائر يختلف عنه في المغرب الأقصى أو يكاد فالمصادر المغربية كانت متوفرة ولم تتعرض لمثل ما تعرضت له الوثائق في الجزائر بعد الاحتلال. كما أن اهتمام المؤرخين الفرنسيين بدأ ينصب على هذه الوثائق ولو بتردد.

وكان للسيد «هوداس» Hodais فضل الاسبقية في التعريف بكتب التاريخ الحديث المغربية لدى المؤرخين الأوروبيين من ذلك أنه قام عام 1886 بنشر

---

(1) أمثال كلوزيل، وروفيقو، وفوارول، وديرلون، وآثار بوتان.

(2) أنظر سعد الله، ص: 25. أثمرت هذه الجهود بصدور مجموعة المائة سنة وهي تشمل ميادين التاريخ والآثار والجغرافية والفنون وغيرها.

(3) نفس المصدر، ص: 25.

(4) W. MARÇAIS, Un siècle de Recherches sur le passé de l'Afrique Musulmane, un Histoire et Historien de l'Algrie, Paris 1931.

(5) G. Yver, La conquête et la Colonisation de l'Algrie, Paris, 1931.

(6) X. YACONO, L'Algrie depuis 1830, in R. LETOURNEAU, vingt cinq ans d'histoire Algrien: Recherche et publication 1931--1856.

(7) سعد الله، ص: 27.

فصول من كتاب الزياني تتعلق بتاريخ الدولة العلوية وألحقها بترجمتها الى اللغة الفرنسية، وفي خلال سنتي 1888 و 1889، نشر تاريخ الدولة السعدية للأفراني مع الترجمة كذلك، ثم كتاب تاريخ السودان وتذكرة النسيان[1].

ولما كان الفرنسيون يمهدون لفرض سيطرتهم على المغرب فقد كانت طائفة من رجالاتهم في المدن الجزائرية ولا سيما في تلمسان على اتصال مستمر بالأوساط الثقافية المغربية وعلى علم بما كان يروج فيها من كتب الشيء الذي يسر لبعض المستشرقين الحصول على نسخ من المصنفات العربية المطبوعة بفاس. ومن هذه الطائفة لاكور « Cour »، الذي كان في طليعة من استفادوا مما كانت تخرجه المطبعة الفاسية من الكتب[2]. الخاصة بتراجم أهل العلم والصلاح[3].

وقد أثمرت جهود «كور» بتأليف كتاب:

«تاريخ استقرار الدولتين التركية بالآيالة الجزائرية وذكر ما كان بينهما وبين الدولة التركية بالآيالة الجزائرية من خلافات»[4]. ويعد الكتاب من بواكير الدراسات المتعلقة بالدولتين الشريفتين المذكورتين التي اعتمد فيها على مصادر أوروبية ومصادر مغربية عربية.

---

(1) مقيداً من ناحية الاتصالات التي كانت بين المغرب والقارة الافريقية. أنظر: بروفنصال. ص: 19.

(2) تعود المطبعة في المغرب الى عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن. ولقد جلبها تركي من القاهرة، ثم اشتراها السلطان وأجرها له مع مجموعة من مساعديه. أنظر:

-- A PERETIE, «Les Madrasas de Fes», Archives Marocaines t. 18, 1912, p. 363.

-- R. LETOURNEAU, La Vie Quotidienne à Fes en 1900, S.L., 1965, p. 170.

ـ عبد الله. كنون. **النبوغ المغربي في الأدب العربي**. ط 2. دار الكتاب اللبناني. بيروت 1961، ص: 280.

(3) انظر بهذا الصدد قائمة ببعض الكتب الصادرة عن المطبعة.

ـ عبد المولى. **مظاهر يقظة المغرب الحديث**. الجزء الأول. مطبعة الرباط. 1973. ص: 220ـ223.

وكذلك عبد الرحمن بن زيدان. **الدار الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**. الرباط. 1937. ص: 105ـ106.

(4) A. COUR, L'tablissement des dynasties de cherif du Maroc et leur rivalite avec les Turcs de la regence d'Alger, 1509--1830.

ولما طبع بمصر كتاب الاستقصاء عام 1895 (1312 هـ) تسنى للمؤرخين الأجانب أن يستفيدوا منه ولا سيما بعد أن ترجم الاستاذ Fumey الى الفرنسية القسم الخاص بالدولة العلوية، وأشرف على نشره بمجلة «المستندات المغربية»(1).

بقي اذن، تاريخ المغرب الحديث كتاريخ الجزائر – الى أواخر القرن 19 م مبنيا على ما ورد في الوثائق الأوروبية. الا أنه في الوقت الذي بدأ محتوى تاريخ المغرب ينمو ويثرى بمعلومات دقيقة وردت في غضون كتب مغربية نقلت الى لغات عربية أو استقاها مؤرخون مستعربون من مؤلفات تم اخراجها في مطابع فاس الحجرية العتيقة(2) بقي تاريخ الجزائر الحديث أوكاد، على ما كان عليه يعتمد فيه على المصادر الأوروبية.

يذكر «ليفي بروفنسال» إنه تجلى بفرنسا، منذ القرن 20 الميلادي، أن كتابة ذلك التاريخ يتوقف على دراسة وثائق جديدة سواء منها الموجودة في المظان المغربية أو المحفوظة ضمن مجموعات المستندات الغربية في مختلف البلدان الأوروبية(3).

وإذا كان بروفنصال صادقا في توفر ارادة الفرنسيين في استغلال الوثائق الأوربية فان اهتمامهم بالمظهان المغربية تكذبه الارادة الفرنسية على أرض الواقع، وخير دليل على ذلك السيد «مارتان» صاحب كتاب:

Quatre siècles d'histoire Marocaine au Sahara de 1504 à 1902 – au Maroc de 1894 à 1912. (4)

المعتمد فيه على وثائق أهلية، مما حمل السلطات الفرنسية على محاكمته وسجنه ثم تبرئته في النهاية وكان ذنبه الوحيد هو اعتماده على وثائق أهلية كان من نتائجها الوصول الى حقائق تاريخية تتناقض تماما مع ما كانت تدعيه فرنسا من حقوق في الصحراء.

وقد أشار بروفنصال الى الصعوبات التي يتلقاها الباحث عن المصادر العربية

---

(1) Les Archives Marocaines.

(2) نفس المصدر، ص: 20.

(3) نفس المصدر، ص: 20.

(4) A.G.P. Martin, Quatre siècle d'Histoire Marocaine au Sahara de 1504 à 1902 au Maroc de 1894 à 1902, d'après archives et document Indigene, Paris, 1923.

في المغرب مذكرا – في نفس الوقت – بأن أرض المغرب – بالنسبة للمولع بالكتب – أرض غنية بالورود ولكنها مفروشة بالحصى»(1). ومع ذلك فقد حث على المضي قدما لتحقيق هذه الغاية قائلا: «كيف ما كان الأمر فلا نرى داعيا للتخلي عن بذل الجهود، وعن التذرع بالصبر لجمع الوثائق، سيما وأننا على يقين أنها موجودة، وجد مفيدة، وان استجلاء ما تشتمل عليه من حقائق عمل ضروري لسد ما يتسم به التاريخ المغربي الحديث من ثغرات»(2).

وفي الوقت الذي نوه فيه بما قام به «هنري دوكاستري» من نشر وتحقيق للوثائق الخاصة بتاريخ المغرب المودعة في دور المحفوظات الأوروبية(3) فانه يرى، بأن هذه الوثائق لم تمدنا الا نادرا بمعلومات أصلية غير معروفة بالنسبة للتاريخ الخاص بالأحداث الداخلية للمغرب الأقصى. ويخلص الى: «أن تاريخ المغرب الحديث المستقاة عناصره من تلك الوثائق – يعني الأوروبية – لن يكون ذا شأن الا اذا استغلت أيضا لبنائه جميع المصادر العربية ولا شك في وجودها»(4). وهذه المصادر هي التي عزم بروفنصال نفسه على دراسة بعض منها في مؤلفه «مؤرخو الشرفاء» والذي اشتمل على التعريف بكتب التراجم، خاصة باعتبار أن أصحابها شاركوا الأخباريين في التعريب بتاريخ الدولتين السعدية والعلوية المغربيتين.

وقد تضافرت جهود المؤرخين الفرنسيين حول كتابة تاريخ شمال افريقيا. فكان بعض التراجمة والباحثين قد تدربوا في الجزائر وأصبحوا عاملين في تونس والمغرب الأقصى. وترجمت هذه الجهود عام 1935 بميلاد اتحادية الجمعيات العلمية لشمال افريقية التي صارت تجتمع كل سنة في احدى مدن المغرب العربي لتنسق جهودها وتتذاكر في خططها وتتبادل الخبرات والمعلومات وتلقي ذلك خلال الأبحاث

---

(1) بروفنصال، ص: 20.

(2) نفس المصدر، ص: 20

(3) HENRY DE CASTRIES, Les Sources indites de l'histoire du Maroc.

(4) بروفنصال، ص: 22.

والدراسات»[1].

بقي لنا، بعد هذا السرد السطحي للتطور التاريخي للكتابات الفرنسية عن تاريخ البلدين، أن نقوم بمقارنة بعض مواقف هؤلاء المؤرخين من بعض قضايا تاريخ البلدين.

وقد رأينا أن نصدّر هذه النقطة من البحث برأيين يلتقيان تقريبا في الحكم على هذه الدراسات بحيث التقائهما في ميدان البحث العلمي.

فهذا السيد ليڤي بروفنصال يقول:

«لا شك أن أغلبية مؤلفي تلك الكتب اتخذوا لها عناوين توهم غلطا أنها تتضمن عروضا لأطوار تاريخ المغرب، ولا شك كذلك أن طائفة منهم استقوا، مدة اقامتهم بالمغرب، معلومات تاريخية عن هذه البلاد أما بطريقة السماع المباشر، وأما بنقل ما ورد في كتب من تقدمهم من الغربيين الا أنه لا يوجد من بينهم فيما نعلم، أحد استفاد من مصادر مغربية مؤلفة باللغة العربية»[2].

وهذا الأستاذ سعد الله يقول:

«... تعكس الدراسات التي ظهرت خلال هذا العهد (أي عهد المؤرخين الاختصاصيين) مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار، أو مدى ذاتية المؤرخ عندما يرتبط بمصلحة وطنه ويضحي في سبيل ذلك بقيم البحث وأخلاق العلم، ذلك أن كتابات هذا العهد كانت تعمل على تبرير الاستعمار والتأريخ له. وتعمل في النهاية على انجاحه واستمراره»[3]. ويضيف قائلا:

«رغم بحث الفرنسيين عن المصادر الأهلية فأنهم كثيرا ما شككوا في قيمتها واتهموها بالتجريدية والمبالغة، بل نادى بعضهم بعدم الاعتماد عليها...»[4]

يتضح ـ مما سبق ـ أن تناول الكتابات الفرنسية لتاريخ البلدين تشترك في موقفها المعادي للمصادر الأهلية، ومن هنا فالمادة التاريخية التي استعملها الكتاب

(1) سعد الله، ص: 24.
(2) بروفنصال، ص: 18.
(3) سعد الله، ص: 23.
(4) نفس المصدر، ص: 27.

الفرنسيون لم تكن تتجاوز في أغلب الأحيان المصادر المغربية والأرشيفات الأوروبية. ففيما ظلت مخطوطات المكتبات المحلية بالجزائر وتركيا مهملة[1] وكذلك الشأن بالنسبة للمخطوطات المغربية المتوزعة بين الخزائن الملكية والاسكريال والخزانة الوطنية بمدريد ودار الكتب الوطنية بتونس ودار الكتب الظاهرة بدمشق[2]. فضلا عن مخطوطات القرويين وغيرها كثير مما هو بحوزة البيوتات والأفراد.

بقيت الدراسات التاريخية الفرنسية عن المنطقة ـ على الأقل الى مطلع القرن 20 ـ تكرر في أحيان كثيرة ما نقل عبر أجيال عن المؤلفين[3].

ولعل من عوامل اهمال المصادر الأهلية، محاولة الحكام العسكريين التعرف على واقع البلاد من خلال المشاهدة والملاحظة ومن خلال عدم تكليف الكتاب ذوي الاختصاص أنفسهم مشقة الترجمة هذا من جهة ومن جهة ثانية لأن اللغة العربية نفسها لم تكن أداة تاريخ عندهم. ولعلنا لا نجد ما يبرر هذا الموقف سوى في معاداتهم للغة العربية منذ بداية الاحتلال لذلك لا نستغرب ان لم يستعمل المؤرخون الفرنسيون في الجزائر اللغة العربية في مصادرهم على حد تعبير الأستاذ سعد الله[4].

وكان الاسلام من المواضيع التي وقفوا منها موقفا مشبوها سواء من خلال نعتهم له «بالاسلام الجزائري» أو «الاسلام المغربي» أو بالتشكيك في عقيدة وممارسة أهله له[5].

أما المقاومة، فهم لا يعيدونها الى الروح الوطنية والنفور من حكم الأجنبي ولكن لضيق الأفق والتعصب الديني على حد زعمهم[6].

ولما كانت جل المواضيع المطروقة ـ الخاصة بالأهالي ـ تهدف الى استئصال كل جذور المقاومة فان زعماء المقاومة نفسها خصوا بدراسات لا تخرج في أغلبها عن

(1) سعيدوني، ص: 28.
(2) الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، **الكتاب المغربي**، **مجلة بيبليوغرافية نقدية**، العدد الأول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، مارس 1983، ص: 114.
(3) LAHJOMRI p, 150.
(4) سعد الله، ص: 32.
(5) نفس المصدر، ص: 29.
(6) نفس المصدر، ص: 29.

الحط من دورهم الوطني كما فعلوا مع أبطال المقاومة الجزائرية وعلى رأسهم الأمير عبد القادر، وزعماء المقاومة المغربية وعلى رأسهم الأمير عبد الكريم الخطابي.

حاول الكتاب الفرنسيون في الجزائر كما في المغرب الأقصى، وفي اطار تفتيت المجتمع وضربه من الداخل ، حاولوا التركيز على أن المجتمع غير منسجم اذ يتشكل من عناصر عربية وأخرى بربرية كما حاولوا أن يصوروا العنصر العربي على أنه متسلط على العنصر البربري وقد ذهبوا في المغرب الى أبعد حد عندما أصدروا عام 1930 ما يسمى بالظهير البربري الذي كان يرمي الى «عزل العنصر البربري في المغرب عن الحقل المعرفي والايديولوجي العربي الاسلامي وربطه بفرنسا ربطا عضويا، لغة وثقافة ولربما دينا أيضا ليضمنوا بذلك بقاء الوجود الفرنسي بالمغرب»[1].

وقد جمع «أحمد بناني» هذه المعاني والصور للكتابات التاريخية الفرنسية حين قال: «ان الباحثين الأوروبيين ابتلينا بهم على عهد الحماية فكان عدد منهم يمتازون باستنتاجات فارغة أثناء أبحاث ظاهرها علمي بيد أنها ترمي في الواقع الى الحط من كرامتنا وماضينا وحاضرنا، وحملنا على الامتعاض من ديننا وتقاليدنا وقوميتنا واحتقار تاريخنا وابرازه في صورة تجعلنا أهلا لأن نستعمر، وتدعي أن الحماية أخرجتنا من العدم الى الوجود»[2].

وفي الأخير ، اذا كان لا جدال حول الأهمية الوثائقية التي تكتسيها المصادر المحلية العربية الاسلامية، فإن هذه بالذات نقطة ضعف كبيرة تسجل للكتابات الفرنسية المتناولة لتاريخ البلدين ، وقد أدى رفضهم لهذه المصادر الى رفض الحقيقة التاريخية ومعاداة الرؤية السليمة للتاريخ وتجاهل الطرف الذي يكتبون عنه.

وقد أدى اقتصارهم ـ في كثير من الأحيان ـ على الوثائق الأوروبية عن المنطقة، إلى وصف العهود التي لا تتوفر لهم عنها وثائقهم «بالعهود الغامضة» وتعود سلبيات التناول في بعض جوانبها الى كونهم يصنعون الفكرة المسبقة ثم يجمعون لها

(1) محمد العابد الجابري وآخرون، الانتلجانسيا في المغرب العربي، «تطور الانتلجانسيا المغربية، الأصالة والتحديث في المغرب ـ دار الحداثة بيروت، 1984، ص 34.

(2) عبد الله الجراري، التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين من 1900 الى 1972، ط 1، مكتبة المعارف، الرباط، 1985، ص: 25.

المادة التاريخية مما أدى الى أن أصبحت نتائج أبحاثهم تقوم على الأحكام المسبقة أحيانا وعلى الأوهام أحيانا أخرى. وهذا ما جعل دراساتهم تنحط في بعض الأحوال الى مستوى الدعاية[1].

لكن هذا لا ينفي وجود بعض الكتابات الموضوعية ، بل هناك أحيانا جهود قام بها علماء احتجاج من أجل تحرير الضمير الفرنسي، واخراج الاستشراق أيضا من حلقته المفرغة، لكن هذه المحاولات الأخيرة عزلت وفشلت أمام الضمير الفرنسي الأعمى عندما يتعلق الأمر بقضايا التاريخ[2].

وقبل أن نختم الموضوع، لا بد أن نشير الى نقطتين:

الأولى: هي أن هذه الكتابات التاريخية مع كونها لا تخلو من تحيز ومن حشو فلا يمكن أن نعتبرها عديمة الفائدة خصوصا في موضوع علاقات البلدين بالدول الأوروبية وفرنسا على وجه التحديد.

الثانية: هي تلمسنا لمدى أهمية الوثائق على العموم والأرشيفات والوثائق المحلية على وجه الخصوص في اعادة النظر في كتابة تاريخ المنطقة ، ومن هنا ضرورة التعريف بها.

وحسبنا أن المغاربة متقدمون عنا في هذا المجال اذ في الوقت الذي طالبوا فيه بإلحاح باستعمال وثائقهم، شرعوا في استغلالها فعلا بفتح المراكز المختلفة التي يتردد عليها البحاثة ويجلب بعض الوثائق الأوروبية أيضا ولو عن طريق تصويرها. ومما لاحظناه خلال زيارتنا في السنتين الماضيتين للمغرب صدور حوالي ستة أعداد بعنوان «الوثائق» كما أن هناك جمعية مغربية نشيطة مهمتها التأليف والترجمة والنشر وهي فضلا عن ذلك تصدر مجلة بيبليوغرافية للكتاب المغربي منذ سنة 1982، تقوم من خلالها بعملية جرد كل ما صدر عن المغرب من مؤلفات ودراسات في مختلف التخصصات سواء كان ذلك في المغرب أم خارجه ـ وتعرف بها.

هذا ولا يفوتنا التذكير بأنه اذا لم نهتم بتاريخنا فليس في وسعنا أن نرغم الغير

(1) سعيدوني، ص: 32.

(2) LAHJOMRI, p. 12

على العزوف عن الكتابة عنا. ونخشى أن يكون هذا الغير هم أبناء أولئك الذين جمعونا حول كتاباتهم في هذا الملتقى.

ان القضية اليوم، قضية عزيمة وإرادة وصبر على الصراع والدفاع عن أنفسنا وفرض وجودنا لا غير.

آراء المؤرخين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر من خلال كتابات جون كلود فاتان

يوسف مناصرية

كثير هم الفرنسيون الذين تناولوا تاريخ الجزائر في جميع عصوره وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية. ويضيق المجال هنا لذكر أسمائهم، وللراغب في التعرف على هذه الكتابات العودة إلى الدراسات البيبليوغرافية التي وضعها بعض الفرنسيين مثل دراسة: كريستيان كورتوا (من روما إلى الإسلام) ووبليام مارسي (مائة سنة من البحث في ماضي افريقيا الإسلامية)، وجورج ايفير (غزو واحتلال الجزائر)، وجزافي ياكونو (الجزائر منذ 1830)، وشارل (تيار الجزائر في الأدب الفرنسي)، والبيبليوغرافية العسكرية، والبيبليوغرافية التي وضعها الكاتب بليفر[1].

ونحن اذ نتناول احدى هذه الكتابات الفرنسية بالدراسة والنقد، فقد سبقنا الى ذلك بعض المؤرخين الجزائريين نذكر من بينهم الدكتور أبو القاسم سعد الله (منهج الفرنسيين)، وناصر الدين سعيدوني (الكتابات التاريخية) ومولاي بلحميسي (موقف المؤرخين الأجانب)، ومحمد الميلي (موقف المؤرخين الأجانب)[2].

غير أن هؤلاء الكتاب قد اقتصرت كتاباتهم على مؤرخي القرن التاسع عشر والفترة العثمانية على الخصوص. أما دراستنا فستقتصر على كاتب واحد وهو الفرنسي جون كلود فاتان الذي يعتبر من الكتاب الفرنسيين المختصين في علم السلالات

(الانتروبولوجيا) ودراسة المجتمعات، والمهتمين خاصة ببلدان المغرب العربي، العهد الحديث والمعاصر. ولفاتان عدة دراسات وكتب عبر فيها عن آرائه وأفكاره التي سنتعرض إليها في هذه الدراسة المتواضعة[3].

اكتشاف الجزائر العلمي:

يزعم فاتان أن اكتشاف الجزائر العلمي قد تم بدون منازع مع احتلال فرنسا لها على يد الكتاب العسكريين. وأقر بأن الكتاب الفرنسيين اليوم ـ ومنهم هو نفسه ـ لا بد لهم من اتباع نفس الخط الذي سار عليه العسكريون، مع ابداء آراء جديدة تقتنيها منهجية الكتابة الحديثة[4].

والحقيقة أن الكتاب الفرنسيين لم يكتشفوا الجزائر اكتشاف اوروبا لأمريكا، وانما كونهم كانوا يجهلون تاريخها وثقافتها وحضارتها فساهموا في الكتابة عن ذلك خدمة لأغراضهم الاستعمارية فأسسوا لذلك المجلات والجمعيات، ساهمت جميعها في البحث عن أسرار هذا المجتمع المجهول بالنسبة اليهم[5]، من أجل ايجاد طرق للسيطرة عليه.

وبما أنهم واجهوا مقاومة عنيفة من الجزائريين منذ 1830، فأن كتابهم العسكريين (قادة الاحتلال) قد أجبروا على البحث عن أماكن قوة وضعف المقاومة وقدرتها المادية والمعنوية وبواعثها الروحية ومعتقداتها الدينية. ولذلك جندوا كل طاقاتهم لجمع كل المعلومات الممكنة لمعرفة ذلك. وقد فسروها بمفاهيم استعمارية مغرضة كانت تهدف أساسا الى ترسيخ الفكر الاستعماري في هذا القطر المغربي[6]، وقد ارتكزت دراساتهم حول الدين الاسلامي ومدى تأثير الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري ذلك أنهم لاحظوا أن المرابطين كانوا وراء جميع الثورات التي قامت ضدهم، فاهتموا بمثل هذه الدراسات وهذه الطرق التي كانت حقيقة هي المحرك الأساسي للمقاومة الجزائرية يبعثها في نفوس الجزائريين الدين الاسلامي واللغة العربية[7].

ولهذا نجد السيد: فاتان يفتخر بأن العلم الفرنسي قد أحدث عدة نماذج للاسلام المغربي. وفعلا فقد حاول الفرنسيون فصل المغرب عن المشرق وتفتيت

المجتمع المغربي وايجاد الفروق بين أجزائه (الجزائر، تونس المغرب الأقصى)، [8]. في العادات والتقاليد، وتعاليم الطرق الصوفية، وسيرة الحكام وأصول السكان (عرب وبربر) والقانون العرفي السائد بينهم. ولم يكتفوا بذلك فحسب وانما وجدوا فرقا أخرى كثيرة داخل المجتمع نفسه (الجزائر مثلا) وشرحوه الى ملل ونحل وديانات ولهجات وغيرها. وحاول الفرنسيون (عسكريون وسياسيون، واداريون، وفنيون، وجامعيون) ايجاد تفاسير عديدة للمفهوم الاسلامي في المغرب العربي عامة والجزائر خاصة، فجاءت دراساتهم مرتكزة على مفاهيم عديدة للاسلام وقسموه أصنافا عديدة منها: اسلام المذهب المالكي، واسلام الطرق الصوفية؛ واسلام العلماء[9]. وكذلك فعلوا أيضا مع اللغة العربية، فأوجدوا لها لهجات تنافسها وعملوا على احياء عصبيات قاتلة كانت الجزائر في غنى عنها، ونموها وطوروها للقضاء على وحدة اللسان والاتصال والتعاون والتماسك بين السكان[10].

والسيد فاتان لم يخرج عن هذا الاطار نفسه ولا عن هذه الرؤية الفرنسية للتاريخ الجزائري والمجتمع الجزائري، بل أنه زادها عمقا نظرا لاهتمامه بعلم السلالات[11] والهدف من ذلك كله هو افراغ هذه الأقطار المغربية الثلاث من محتواها ثم تعويض عناصر وحدتها (الاسلام، والعربية) بعناصر أخرى أساسها الحضارة الغربية واللغة الفرنسية واعتبروها عناصر أساسية لا يمكن للمغرب العربي أن يتوحد الا بها ذلك أنه لم يعرف الحضارة قط الا منذ 1830 عن طريق الفرنسيين، ولذلك فالاستعمار الفرنسي بالنسبة للمغرب العربي هو عامل جديد من الشعور والحضارة والثقافة والانتماء. ولم يستقل الفرنسيون لوحدهم بهذا المفهوم بل هناك بعض المغاربة ممن جرت الثقافة الفرنسية في عروقهم فقالوا بقولهم.

فاتان على الدراسات الجزئية للمجتمع المغربي، والممارسات الدينية وغيرها التي كانت سائدة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وقد اعتبر الدراسات الخاصة بالفقه والفكر الإسلامي خيالية قريبة من الفلسفة وتاريخ الديانات، وبعيدة عن الشرائح الاجتماعية التي كانت تعيش دياناتها منذ قرن تحت السيطرة الفرنسية[12]. وفي هذا الاطار فهو لم يخرج عما ذهب اليه المؤرخون الفرنسيون الذين سبقوه في هذا المجال اذ حاولوا «تجريد الجزائريين من أبطالهم[13]

كما حاولوا تجريدهم من اسلامهم الحق، واتهامهم بالإيمان باسلام جزائري هو أقرب الى الخرافة منه الى العقيدة الراسخة الواعية». كما لاحظ عليهم ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله[44].

رأي فاتان في الكتابات الفرنسية:

يدافع السيد فاتان بقوة عن الكتاب الفرنسيين الذين تناولوا تاريخ الجزائر في مختلف فتراته ـ ومن ذلك أنه اعتبر بيليسي دي رينو[45] أول من وضع تصميمات واحصاءات شاملة عن تاريخ الجزائر[46]، وبالإضافة الى أنه لم يشر ولو اشارة بسيطة الى اهمال بيليسي وغيره الاعتماد على الوثائق التركية والجزائرية في مثل هذه الميادين العلمية، فأنه أهملها هو نفسه[47].

وقد أوجد المبررات لآراء غوتيي في كتابه (العصور المظلمة)[48]، كونه جغرافيا وليس مؤرخا، وأن كتابه كان محددا في فترة معينة (650 ـ 1050) مراجعها محدودة، مما أجبر الكاتب على الاعتماد على ابن خلدون فقط، واستخدم خياله في منهج كتابته، وفهمه للأحداث التاريخية. ولاحظ ان غوتيي، رغم أنه لم يكن في مستوى الأحداث التي تناولها، الا انه لم يستحق كل هذا السخط والانتقاد الذي وجهه ضده بدون تحفظ[49].

ولم يرفض فاتان عيوب الكتابات الفرنسية وانما حاول تبريرها بعدة مبررات منها أن انتماء هؤلاء المؤرخين الى حضارة معينة (لغة، ثقافة، دين) هو الذي ساهم في تحديد مفاهيمهم لتاريخ المغرب العربي. واذا كان هذا المبرر مقبولا، كون الفرنسيين تسيطر على كتاباتهم ايديولوجيات معينة خالية من الروح العلمية المجردة، فإن المبررات الأخرى التي قدمها ليست مقبولة في شيء ذلك أنه يحددها في كون تاريخ المجتمعات المغربية مليئة بالحروب والنزاعات شبه الدائمة بين مختلف الجمعيات والفرق الشيء الذي أدى الى الانفجار ومهد الى التدخل التركي ثم الفرنسي بعد ذلك[50]. وهذا ما يجعلنا نلاحظ أن فاتان لم يخرج اطلاقا عن فلسفة الكتاب الفرنسيين القائلة بأن المجتمع الجزائري يتكون من قبائل متنافرة تتخبط في حروب مستمرة ولا تخضع الا للقوة (مثل الرومان، الأتراك، الفرنسيين)[51]. والمعروف أن

التدخل العثماني في المغرب العربي (الجزائر وتونس) لم تكن أسبابه النزاعات الداخلية كما ادّعى فاتان، وانما كان سببه الرئيسي الزحف الصليبي الاسباني على السواحل المغربية، أما الاحتلال الفرنسي فسببه التوسع الاستعماري العسكري والصليبي والاقتصادي. وقد سهل ضعف الامبراطورية العثمانية خاصة جناحها الأيسر في المغرب العربي (الجزائر، وتونس وليبيا) هذا الاحتلال.

ورغم ميول الكتاب الفرنسيين الواضحة واحتقارهم المصادر المغربية وتأويل التاريخ وتوظيفه حسب ما يخدم مصالحهم الاستعمارية، فان فاتان يدافع عن كتاباتهم بشدة ويلتمس لهم العذر في ذلك كون كل عصر له كتاباته ومصادره التي ليست معصومة من الخطأ وهي قابلة للتعديل حسب تقدم الزمن واكتشاف الوثائق[52]. الا أن فاتان نفسه سار على نفس المنهج واعتمد الحكم المسبق على التاريخ المغربي عامة والجزائري خاصة، وحاول ايجاد المبررات ولم تخرج مصادر كتاباته عن الدراسات السلالية وخصائص المجتمعات ولهجاتها المختلفة، وذلك قصد تفتيتها والقضاء على وحدتها وسلخها من حضارتها.

والحق أنه إذا كان في الكتابات والدراسات الأوروبية منفعة فريدة فهي جمع المادة التاريخية وحفظها من التلف، ولكن ذنبهم الذي قضى على جميع ما بذلوه من جهد تاريخي هو تفسيرهم للأحداث تفسيرا استعماريا بحتا. وتوظيفهم للتاريخ في خدمة مصالحهم العليا والدنيا. ولهذا السبب ومثله حق رفض كتاباتهم رفضا مطلقا من ناحية وإعادة النظر في ما كتبوه وجمعوه للتأكد من صحته من ناحية أخرى.

موقف فاتان من المؤرخين المغاربة:

يعاب على دراسات فاتان ومساهمته في تاريخ المغرب العربي عموما والجزائر خصوصا، تهجمه على المؤرخين المغاربة الذين كتبوا تاريخ بلادهم بلغتهم الخاصة وفسروه تفاسير مغربية خالصة تتماشى ومقومات مجتمعهم الحقيقية وردهم على الكتابات الفرنسية ومراجعتهم لها خاصة وأنها فسرت [illegible]ريخ المغربي حسب مفهومها ووظفته لصالحها خدمة للمدرسة الاستعمارية ويلوم فاتان على المؤرخين المغاربة

تأثرهم بالمشارقة العرب والمسلمين، ورفضهم جميع الدراسات الأجنبية السابقة التي كتبت في تاريخ المغرب العربي واعتبر هذا الموقف ذنبا لا يغتفر وانما كبيرا لا يمحى في حق الكتابات الغربية[23].

وإذا كان للمغاربة مبررات لمواقفهم من الكتابات الفرنسية كونها وظفت التاريخ لصالحها ، ورفضت الاعتماد على الوثائق الأصلية في تاريخ المغرب عامة والجزائر خاصة، واعتبرتها خيالية، ووجودها ضربا من «الخرافة»[24] ، فما هي يا ترى مبررات وحجج السيد فاتان في اتهامه للمغاربة؟ لعل المبرر الوحيد الذي دفع فاتان الى هذا الموقف ، هو تفسيره الايديولوجي لتاريخ المغرب العربي وانطلاقه من نقطة معينة وهي سيادة الحضارة الغربية في هذا القطر.

ويصف فاتان هؤلاء المغاربة (جزائريين وتونسيين ومغاربة) بالانحراف والأعوجاج في أعمالهم التاريخية ، ويرد ذلك الى عدم كفاءتهم العلمية بقوله: «ان هذا الانحراف والاعوجاج ناتج عن الامتلاك المفاجئ للميدان العلمي من طرف هؤلاء المهتدين الجدد للتعبير عن مبدئهم وتنفيذ رأيهم[25]».

ويفسر فاتان اتجاه هؤلاء المغاربة ومفهومهم لتاريخهم مفهوما علميا ومقومات حضارتهم، بأنهم علماء غير ناضجين يريدون استرجاع استقلالية النظام العربي الاسلامي الحديث، ذلك أنهم اعتبروا أنفسهم أدرى بتاريخهم وأحق بتفسيره من غيرهم وأولى بتأويل مفاهيم دينهم. ولم يكتف فاتان بذلك وانما ذهب الى القول بأن الإسلام في المغرب العربي عامة والجزائر خاصة يبقى متباينا في الواقع العلمي على المستوى الفردي والجماعي[26] . وقد سبق وان أشرنا الى تأثره في هذا الرأي بالكتاب الفرنسيين خلال الفترة الاستعمارية الذين كان بعضهم من العسكريين والأكاديميين والمخبرين والمترجمين وأعضاء جمعية اكتشاف الجزائر العلمي[27] .

تصنيف فاتان للمؤرخين والكتاب المغاربة:

صنّف فاتان المغاربة الى اتجاهات ومدارس ، ولم يكتف بالحط من قيمة ثقافة الكتاب المغاربة الذين أنتقدوا الكتابات الفرنسية، وانما نجده يقدم عليهم بعض الكتاب الآخرين تثقفوا ثقافة غربية وآمنوا بالعلم الغربي واللغة الفرنسية والحضارة

الأوروبية الى درجة صاروا معها لا يتصورون تاريخ المغرب العربي الا من خلال المجهر الفرنسي وقد ذكر السيد فاتان ثلاثة نماذج هم في نظره طليعة الكتاب والمثقفين المغاربة. هم محمد آركون (من الجزائر؟) وهشام جعيط من تونس، وعبد الله العروي من المغرب الأقصى، ووصفهم بالمثقفين العالمين الذين فاقت ثقافتهم مستوى بلدانهم، وتعدت حدودها ، واعتبرهم الممثلون الأوائل للنخبة المغربية المثقفة، وأنهم هم الذين فتحوا آفاقا علمية عريضة وعالية لمجتمعاتهم[28] ، ذلك أن عبد الله العروي[29] جاء بآراء جديدة حاول من خلالها وضع ايديولوجية للمغرب العربي، أقامها أساسا على النهج الماركسي. وقد فضله على الاسلام لانه في نظره، أكثر واقعية في تفسير أحداث المنطقة.

ومن تونس هشام جعيط[30] الذي لاحظ الفرق الشاسع بين المشرق والمغرب العربيين، كون الأول متمسك جدا بعروبته واسلامه، ويفسر المفاهيم الأجنبية من خلالها، أما المغرب فهو أكثر تفهما وتفتحا في نظره ، على تقنيات الغرب وحضارته[31]؟.

ومن الجزائر محمد آركون[32] فقد نادى بالتعرف علميا على مستويات العادات الاسلامية وإعادة التعرف عليها من أجل مراقبتها ومجادلتها لبناء التنمية الاقتصادية والثقافية في المغرب العربي. وأكد هو أيضا على فصم العلاقة المتبادلة بين المشرق والمغرب العربيين، وادخال المفاهيم الغربية عليها في تفسير التاريخ المشرقي والمغربي معا[33] .

وهذه النظرة في الواقع هي نظرة قديمة قال بها كل من المؤرخين الأكاديميين الفرنسيين، لفصل المغرب العربي عن المشرق، واعتباره جزءا من أوروبا الغربية دينيا واجتماعيا وحضاريا وحتى جغرافيا[34] .

وقد اختار فاتان هؤلاء المغاربة لأنهم يوافقون وجهة نظره في تفسير الأحداث التاريخية في المنطقة بمفهوم عرقي يقوم على العصبية ، ومادي ماركسي يعتمد على الجدلية التاريخية، ومن ذلك تفكيك أواصر مجتمعه وربطه بالحضارة الأوروبية ولغتها الفرنسية.

وهذا التفسير له ما يبرره ذلك أن هؤلاء (المغاربة)؟ الثلاث قد انسلخوا من

قيمهم وحضارتهم، وتبنوا الأفكار الغربية المادية والعرقية وادّعوا أنها الفكر المعاصر الذي لا غنى للمغاربة عنه في تفسير ظواهر تخلفهم الحضاري. ولنضرب مثلا لذلك محمد آركون الذي كان منذ نشأته الأولى تلميذا في المدارس الفرنسية، وأصبح أستاذا في كليات فرنسا ومعاهدها ابان الثورة التحريرية منذ سنة 1956، ثم صار أستاذا بجامعة السوربون الجديدة بباريس، وقد خول له اخلاصه للحضارة الغربية واللغة الفرنسية، وتفسيره للاسلام طبقا للمادية الماركسية، ونظرية الجنس الفرويدية، ونظرية القيم عند نيتشه خوّلت له هذه المفاهيم الاشراف على الدراسات (الصهيونية) أو ما شابهها، وأصبح لدى الغرب من المفكرين المسلمين الذين لا يشق لهم غبار! ولا يختلف عنه هشام جعيط ولا عبد الله العروي في النظرة التاريخية ولا في المفهوم الحضاري، ولا في محاولة غرس المفاهيم والآراء الغربيه في المغرب العربي!...

وفي الأخير ليس لنا الا أن نهيب بالمسؤولين الغيورين على وطنهم والمخلصين لدينهم وامتهم، ونقترح عليهم اعادة تأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية يجتمع فيها شتات المؤرخين الجزائريين من ذوي التجارب الكبيرة، الذين أثبتوا جدارتهم العلمية وتفانيهم في انشاء نواة المدرسة التاريخية الجزائرية بالتأليف والتدريس، والتصدي لتحديات المدرسة الغربيه، وأن تكون المهمة الأساسية لهذه الجمعية التأليف على منهج علمي صحيح باللغة العربية، والرد على الايديولوجيات الغربية المغرضة بلغاتها. فتتكون عن طريقها المدرسة التاريخية الجزائرية المنشودة.

هوامش الموضوع:

(1) تناول كورتوا الكتابات الفرنسية الخاصة بتاريخ الجزائر القديم السياسي والاقتصادي والاجتماعي خلال الفترة الرومانية الى بداية الفتح الاسلامي، وجاءت دراسة **مارسي** مكملة لها من بداية الفتح الاسلامي الى نهاية العهد العثماني، ثم دراسة اليفير من نهاية العهدالعثماني الى سنة 1930 تاريخ الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، وبدأ ياكونو من حيث انتهى اليفير، من 1930 الى 1956 تاريخ الاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس المجلة الافريقية. أما دراسة تيار، التي هي رسالة جامعية، فقد شملت الكتابات الفرنسية التاريخية والأدبية في القديم والوسيط والحديث حتى سنة 1924 تاريخ مناقشة الأطروحة.

– Christian, Courtois, «De Rome à l'Islam», Revue Africaine, 1942.
– Willam, Marçais, «Un siècle de recherches sur le passé de l'Afrique musulmane» et Georges, Yver, «la conquête et la colonisation de l'Algérie», in Histoire et Historiens de l'Algérie, Paris, 1931.
– Xavier, Yacono, «l'Algérie depuis 1830», Revue Africaine, centenaire de la S.H.A., 1956.
– Charles, Tailliart, *l'Algérie dans la litterature française. Essai de bibliographie méthodique et raisonnée jusqu'a l'année 1924*, Paris, 1925.
– l'Afrique du Nord, *Bibliographie militaire*. Ministère de la guerre, etat-major de l'armée, service historique, Paris, 1930, 2 vol.
– Playfair, *A bibliography of Algeria from the expedition of Charles V* in 1541 to 1887, Londres, 1888, et *supplément to the bibliography of Algerie from* the earliest *times to 1895* Londres, 1898.

(2) أبو القاسم سعدالله، (منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر)، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، الجزائر، ش.و.ن.ت. 1978).
ـ ناصر الدين سعيدوني، (الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر)، **الثقافة** عدد 45، (الجزائر، 1978).
ـ مولاي بلحميسي، (موقف المؤرخين الأجانب في تاريخ الجزائر). ومحمد الميلي، (موقف المؤرخين الأجانب في تاريخ الجزائر) **الأصالة**، عدد 14 ـ 15 (الجزائر، 1973).

(3) J. C. Vatin, «l'Algère en 1830», *Revue Algérienne des Sciences Juridiques, Economiques et Politiques*, Nº 4, 1970.
– *l'Algérie politique*, introduction Jean Leca, Paris, P.F.N.S.P., Armand Cotin, 1974.
– «De quelques aspects juridiques de la dépendence. Le cas de la législation française en Algérie», in *CRESM*, Rapports de dépendance au Maghreb, Paris, CNRS, 1976.
– J. C. Vatin et Jean, Leca, *l'Algérie politique, Institution et Régime, Paris, P.F.N.S.P., 1975.*
– *J. C. Vatin et T. L. Djédidi, A. Kacem, Culture et Société au Maghreb* édition du CNRS, 1975.
(4) J. C. Vatin et Philippe, Lucas, *l'Algérie des antropologues*, Paris, Maspero, 1982, pp. 12-16.
(5) Revue Africaine, Recueil Archeologiques de Constantine, Bulletin de geographie d'Oran, exploration scientifique de l'Algérie.

(6) عن هذه التفاسير والأهداف طالع: سعد الله، نفس المصدر.

(7) عن المقاومة الثقافية والدفاع عن اللغة العربية أنظر: أبو القاسم سعد الله **(قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1843 موقف المفتي الكبابطي من الأوقاف واللغة)**، **مجلة عالم الفكر** مجلد 16، العدد 1، الكويت، أفريل – مايو 1985).

(8) يعتبر القطر الليبي الشقيق الركن الرابع في بناء المغرب العربي الكبير، ولم نذكره هنا لأن الموضوع موجه فقط الى ما كتبه الفرنسيون عن البلدان التي احتلتها فرنسا.

(9) J. C. Vatin, «Religionet Politique au Maghreb: le renversement des perspectives dans l'étude de l'Islam», in *Islam et Politique au Maghreb*, CNRS et CRESM, Paris, 1981, p. 27-32,

– William, Marçais, *le dialecte arabe à Tlemcen, Grammaire textes et glossaire*, Paris, E. Leroux, 1902.

– René, Basset, *Etudes sur les dialectes bèrbères*, Paris, E. Leroux, 1894.

– E. Destaing, *Dictionnaire français-berbère (dialecte des beni-Snous)* Paris, E. Leroux, 1914.

– S. Biarnay, *Etudes sur le dialecte berbère de Ouargla*, Paris, E. Leroux, 1908.

– A. dec. Motylinski, *le dialecte bèrbère de R'edames*, Paris, E. Leroux, 1904.

– S. Biarnay, *Etudes sur les dialectes bèrbères du Rif. Lexiques textes et notes de phonétiques*, Paris, E. Leroux, 1917.

– Gustave, Mércier, *le chaouia de laurès (dialecte de l'Ahmer Khaddou, etude grammaticale. Texte en dialecte chaouia)*, Paris, E. Leroux, 1896.

– Paul, Provotelle, *Etude sur la Tamazir't ou Zenatia de Qaladtes-sened* (Tunisie), Paris, E. Leroux, 1911.

(10) طالع بعض نماذج جهود الفرنسيين في احياء اللهجات للقضاء على وحدة اللسان في المغرب العربي ومن ثم لغة القرآن.

(11) Vatin, *l'Algérie des antropologues*, pp. 12-27.

(12) Vatin, «Religion et Politique» pp. 27-32.

(13) Paul, Azan, *l'Emir Abdelkader 1808-1883, entre le fanatisme musulman et le patriolisme français*, Paris, Hachette, 1925.

(14) سعد الله (منهج الفرنسيين)، ص 31.

(15) Emile-René, (de) Pellissier de Reynaud, *Les Annales Algeriennes* Paris, Duamine, 1854, 3 volumes.

(16) Vatin, *l'Algérie des antropologues, pp. 12-16.*

(17) طالع مثلا مذكرات حمدان خوجه، وأحمد بوضربه، وأحمد باي، حققها الدكتور العربي الزبيري وكذلك كتاب (المرآة) لحمدان خوجه، وكتاب (مذكرات الشريف الزهار) وغيرها كثير.

(18) Emile-Felix, Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs, Paris, Payot, 1937.

(19) Vatin, «Religion et Politique», pp. 33.

(20) نفس المصدر، ص 34.

(21) سعد الله، (منهج الفرنسيين...) ص 36.

(22) Vatin, «Religion et Politique», pp. 34.

(23) Vatin, «Religion et Politique» pp. 15-16.

(24) يجب الملاحظة أن المترجمين العسكريين ورؤساء المكاتب العربية قد اعتمدوا في كتاباتهم عن الطرق الصوفية، على المصادر الأهلية مكتوبة وشفوية من عقود ووثائق ومذكرات ودفاتر وسجلات وأوراق ادارية. مثل ما فعل لويس رين، وبيليسي وغيرهما. أنظر: سعد الله، (منهج الفرنسيين)، ص 17_18.

(25) Vatin, «Religion et Politique», p. 20.

(26) نفس المصدر، ص 21.

(27) نذكر هنا بعض النماذج من كتابات هؤلاء الكتاب للتعرف على ميادين اهتماماتهم التي ارتكزت خاصة على دراسة التاريخ المحلي، والطرق الصوفية والزوايا والمدن والحياة القبلية.

– De Neveu *Lès Khouan, ordres religieux chez les musulmans d'Algérie*, Paris, Guyot, 1845, 2e éd., 1846.

– M. Brosselard, *Les Khouan*, Alger, 1862.

– L. Rinn, *Marabout et Khouan. Etude sur l'Islam en Algérie*, Alger, Jourdan, 1884.

– Corneille, Trumelet, *l'Algérie legendaire. En pélérinage ça et là aux tombeaux des principaux thaumaturges de l'Islam (Tell et Sahara)*, Alger, Jourdan, 1892.

– Edmond, Doutté, *l'Islam Algériene en 1900*, Alger, Giralt, 1900.

– Charles, Feraud, *Histoire des villes de la province de Constantine, Gigelli*, Constantine, 1870.

– Eugène, Daumas, (Colonel), *l'Exposé de l'Etat actuel de la société arabe, du gouvernement et de législation qui la régit*, Alger, 1844.

– *Mœurs et coutumes de l'Algérie, Tell, Kabylie, Sahara*, 4eme édition, Paris, Hachette, 1864.

(28) Vatin, «Religion et Politique», pp. 37.

(29) Abdellah, Laroui, *l'Idéologie arabe contemporaine*, Paris, Maspero, 1973.

(30) Hichem, Djaït, *La personnalité et le devenir arabo-musulman*, Paris, le seuil, 1974.

(31) Vatin, op.cit. pp. 24.

(32) Mohammed, Arkoun, *La pensée arabe*, Paris, PU.F., 1976.

(33) Vatin, op.cit, pp. 24.

(34) طالع عن ذلك آراء مارسي (لمائة سنة)، وايفير (غزو واحتلال الجزائر)، وستيفان غزال (مقدمة) كتاب تاريخ ومؤرخوا الجزائر الذي سبق ذكره.

الوثائق الفرنسية والهجرة الى الديار الإسلامية دراسة ونقد

غالم محمد

شغلت حركات الهجرة الى الديار الاسلامية التي شهدتها الجزائر خلال الفترة 1898 ـ 1911، شغل الادارة الاستعمارية. ويعود ذلك ـ عموما ـ الى اعتبارات ترتبط بما أسمته هذه الادارة «أمن المستعمرة».

أولا: خشيت «الولاية العامة» أن تكون هجرة بعض السكان سببا في انتشار الاضطرابات في مناطق كاملة اذ يؤكد تقرير لها: «بمجرد أن تتجه الأنظار الى الهجرة تفقد الادارة ثقة الأهالي ويتحول الغضب في بعض المقاطعات الى اضطرابات ثورية لا تحمد عقباها»[1].

ثانيا: تركت حركات الهجرة، انطباعا سيئا على الدوائر الحاكمة الفرنسية التي كانت تخشى أن يتحول «المهاجرون في الديار الاسلامية الى دعاة معادين للوجود الفرنسي وأعداء ناقمين يسعون الى تشويه سمعة السياسة الفرنسية»[2].

لقد كانت السلطة الفرنسية تتخذ الاجراءات الادارية والعسكرية لتوا هجرة الجزائريين الى البلاد الاسلامية كلما اتضح خطرها. فقد كانت ترفض تسليم جوازات السفر للمهاجرين وتراقب الحدود وتجند الفرق العسكرية والشرطة لمتابعة من يغادر المستعمرة سرا.

ولم تكن الادارة الاستعمارية ـ وحدها ـ لتنظر بعين الحذر والتخوف الى الهجرة. فالمعمرون، بل أوساط هامة منهم ـ كانوا يعلنون عن غضبهم في الصحف والمجالس كلما ظهر خطر الهجرة جليا. وترتبط أسباب هذا الغضب، بمصالحهم الاقتصادية لأنهم كانوا يخشون فقدان اليد العاملة التي يحتاجون لها في تسيير مزارعهم ومؤسساتهم الاقتصادية الأخرى.

ونحن نعتقد أن هذه العوامل هي التي دفعت الادارة الى الاهتمام بظاهرة الهجرة إذ خصّصتها بمجموعة كبيرة من التقارير والدراسات التي يعتبرها جل المؤرخين الفرنسيين مصدرا تاريخيا رئيسيا ويعتمدون عليها في بناء تحاليلهم المختلفة لظاهرة الهجرة الى الديار الاسلامية.

نريد في هذه المداخلة، أن نركز اهتمامنا على الوثائق التي خصصتها الادارة الاستعمارية لثلاث هجرات شهدتها الجزائر خلال الفترة المذكورة سابقا: وهي هجرة «المدية والشلف» سنتي 1898 و 1899 وهجرة «بوعريريج» سنة 1910 ثم هجرة «تلمسان» سنة 1911. ولعلم الباحثين والمهتمين بهذا الجانب من حركتنا الوطنية، نشير الى أن هذه الوثائق توجد ـ حاليا ـ بمركز أرشيف ما وراء البحر «أكس» الفرنسية في علب تحمل الأرقام التالية: 3H63 ـ 9H61 ـ 9H103 ـ 9H104 ثم 9H105.

لا شك أن هذه التقارير تحتوي على معلومات هامة لأن أصحابها قد انتقلوا الى المناطق التي وقعت بها حركات الهجرة وعاينوا أوضاع سكانها الى أن النتائج التي توصلّوا اليها كانت. في الواقع ـ مغرضة. وفي نظرنا، يمكن تصنيف هذه الوثائق ـ حسب طبيعة نتائجها ـ الى صنفين:

ـ التقارير التي تعتمد التفسير الاستعماري التقليدي

ـ التقارير التي تعتمد التفسير الاستعماري الحديث.

1 ـ التقارير التي تعتمد التفسير الاستعماري التقليدي:

لأصحاب هذه التقارير قاسم مشترك. فانهم يرجعون الهجرة الى أسباب وعوامل لا ترتبط ـ في نظرهم ـ بواقع النظام الاستعماري كما أنهم ينفون مسؤولية

الادارة في وقوع حركات الهجرة. ويمكن تقسيمها الى ثلاثة أنواع.

أ ـ التقارير التي تعزو الهجرة الى «الدعاية العثمانية»

نجد هذه النظرية في عدد من التقارير والدراسات أهمها التقرير الذي كتبه مدير مصلحة «الشؤون الأهلية» السيد «لوساني»[٥]، عقب الهجرة التي مسّت في البداية الجالية الجزائرية المقيمة بالقطر التونسي ثم انتشرت الى مقاطعتي «المدية والشلف» سنتي 1898 ـ 1899.

يعتبر السيد «لوساني» ما أسماه بالدعاية العثمانية تارة و«التحريض الخارجي» تارة أخرى، السبب الرئيسي في هجرة الجزائريين الى بلاد الشام، فهو يقول: «هدفت الدعاية العثمانية الى إثارة الشعور الديني لدى مسلمي المستعمرات الفرنسية خاصة»[٥].

وفي نظره، فعلت هذه الدعاية فعلها لأنها كانت تنتقل عبر قنوات مختلفة، هي: الصحف التي تصدر في الأقاليم العثمانية كالملاءمة (الآستانة) و«ثمرة الفنون» (بيروت) و«الاسلام» (الاسكندرية). ووصلت هذه الصحف الى الجزائر بسهولة تامة إذ أنه حصل على عدد كبير منها دون صعوبة تذكر»[٥].

ويزعم السيد «لوساني» أن هذه الصحف كانت تدعو المسلمين في الجزائر والمستعمرات الأخرى الى مغادرة أوطانهم والى الهجرة بهدف الاستقرار في الأقاليم العثمانية. وإضافة الى ذلك، كانت تنشر ـ من حين لآخر ـ رسائل المهاجرين يناشدون إخوتهم في المستعمرات ويدعونهم الى الهجرة للتخلص من قيود الحكم الأوروبي المسيحي والاقامة في ظل الحكم العثماني الإسلامي»[٥].

وإلى جانب الصحف، انتشرت الدعاية العثمانية على يد جواسيس وتجار يعملون لصالح الدولة العثمانية، وتحدث هؤلاء كثيرا خلال إقامتهم بالجزائر «عن الحفاوة والمساعدات المختلفة التي كان يتلقاها المهاجرون من قبل المصالح الادارية العثمانية: أراض، مساكن وأموال»[٥].

وفي الأخير يخلص مدير «الشؤون الأهلية» الى النتيجة التي توقعها منذ البداية، وهي «ان الدعاية العثمانية وحدها، هي التي كانت وراء حركات الهجرة التي شهدتها الجزائر» ولا يجوز في اعتقاده أن نبحث عن أسباب أخرى، ولا يعقل أن نحمّل

في الواقع، يضخم السيد «لوساني» دور «الدعاية العثمانية». فالمؤرخ يعلم أن العوامل الخارجية، مهما كانت أهميتها ـ لا تؤثر الا اذا استندت على العوامل الداخلية التي تشكل الأرضية الفعالة في الأحداث التاريخية. إنه يرتكب خطأ كبيرا حين يفصل عامل «الدعاية» عن الواقع الاستعماري الذي كان يشكل مصدر غضب الجزائريين. أضف الى ذلك أن الجواسيس الذين شغلوا شغل هذا الموظف السامي لم يعثر عليهم.

ولا يعني قولنا هذا أننا ننفي وجود روابط روحية قوية تدفع الجزائريين الى التعلق بالدولة العثمانية. وقد تعود هذه الروابط الى العامل الديني الذي يجمع بين المسلمين في الشرق والغرب، غير أننا لا نشاطر السيد لوساني رأيه حين «يعتبر الشعور الاسلامي مجرد عامل نفسي لا يحتوي على أبعاد سياسية [illegible]»[٥].

وفي الحقيقة، اتجه الرأي العام الجزائري خلال هذه الفترة [illegible] الدولة العثمانية لاعتبارات سياسية واضحة هي:

أولا: كانت الدولة العثمانية من الدول الإسلامية القليلة التي استطاعت [illegible] تحمي استقلالها وتقف وقفة قوية في وجه النوايا الاستعمارية الأوروبية. ومن [illegible] لآخر، كانت هذه الدولة تظهر ـ في نظر الجزائريين ـ بمظهر النظام الاسلا[illegible] على تحرير المستعمرات.

ثانيا: كان النظام العثماني باعتباره نظاما اسلاميا مستقلا، [illegible] النقيض الوطني للنظام الرأسمالي الاستعماري الذي كان يخضع [illegible]

ب ـ التقارير التي تعزو الهجرة الى أسباب عرقية:

في 28 أكتوبر 1911، كتب السيد «هاباتي» العضو في المجلس العام لعمالة وهران تقريرا عن هجرة تلمسان أخلص فيه الى أن غالبية العائلات التي هاجرت، كانت تنتمي الى الطائفة الكرغلية. فهو يقول: «تمكنت مصالح البلدية من وضع قائمة بأسماء المهاجرين. وما يلفت الانتباه في هذه القائمة هي أنها تتكون من 508 أسم من أصل تركي»[٥].

وفي اعتقاده، يقود هجرة هذه الطائفة الى اعتزازها بأصلها التركي ومكانتها الاجتماعية السابقة. فهي تعيش في أحياء خاصة من المدينة (تلمسان) لا تريد الاختلاط بالحضر الذين ينتمون الى أصل عربي أو بربري كما أنها تتباهى بعاداتها وتقاليدها.

وذهب الأمر بالسيد «هاباتي» الى القول التالي «ان الكراغلة يعتبرون تركيا وطنهم الحقيقي.. أما الجزائر فهي – في نظرهم – أرض هجرة لا غير..»[40] ويتابع « تقيم العائلات الكرغلية – منذ زمن بعيد – علاقات قوية مع الوطن الأم ، فهي تتابع عن كثب أحداث الدولة العثمانية وتتأثر لها. وحين قامت الحرب بين الباب العالي واليونان، تابع الكراغلة في تلمسان وقائعها باهتمام متزايد»[41].

ينكر السيد «هاباتي» في تقريره أن حركة الهجرة قد مست الفئات الأخرى.. لكنه يؤكد أنها «كانت هجرة الكراغلة بالدرجة الأولى.» أما انتشارها الى هذه الفئات، فيعود في نظره، الى اصرار حكومة باريس – رغم معارضة المعمرين. على تطبيق قانون الخدمة العسكرية الاجبارية على الأهالي.

وفي نفس السياق ، نشير الى أن اللجنة التي عينتها الولاية العامة للتحقيق في أسباب هجرة تلمسان، تعتبر، هي كذلك، قانون التجنيد الاجباري سببا رئيسيا للهجرة، اذ تفي تقريرها وجود علاقة سببية بين النظام الاستعماري وهجرة الجزائريين: «لا يمكن أن يكون قانون الأهالي وقانون الغابات والمنافسة التجارية والصناعية وحالة الفقر، وتصرفات الادارة أسبابا للهجرة»[42].

من السهل على الباحث أن يفكك مواطن الضعف والتشويه التي يتضمنها التحليل وتصرفات الادارة أسبابا للهجرة»[42].

من السهل على الباحث أن يفكك مواطن الضعف والتشويه التي يتضمنها التحليل العرقي. وقد تكفينا الاشارة الى أهمها.

«لم يتوجه مهاجرو سنة 1911 الى تركيا بل ساروا الى الشام باعتباره اقليما عثمانيا لا تركيا. وفي دمشق ، استقر المهاجرون في «حارة المغاربة» بجوار من سبقهم من المهاجرين المغاربة.

«شهدت مدينة تلمسان هجرات سابقة (هجرة 1891 – 1901 – 1904)

مست هي كذلك العائلات الكرغلية. وتوجه المهاجرون خلال هذه الفترة الى المغرب الأقصى وليبيا ومصر باعتبارها دولا اسلامية مستقلة.

«لا يستند السيد «هاباتي» على أدلة تاريخية واضحة تثبت فعلا أن الكراغلة كانوا يعتبرون أنفسهم مواطنين أتراكا.

جـ – الهجرة : ثورة الماضي على الحاضر:

يحتوي التقرير الذي تقدم به «وليام مارسي» المدير السابق لمدرسة تلمسان العربية – الفرنسية الى لجنة التحقيق، على نظرية تسعى – هي كذلك – الى توضيح «الأسباب العميقة للهجرة» يرى «مارسي»، في تقريره أن الهجرة «حركة تميّز المجتمع الحضري التقليدي»[43] فالمهاجرون كانوا «من أشد الناس تمسكا بالماضي وأكثرهم محافظة على تقاليد الحياة التي تعود الى القرن الخامس عشر: عمر ازدهار المدينة التلمسانية»[44].

ان الحنين الى هذا الماضي والتغني بالسلف خلق في نفوس سكان المدينة ومسلمي شمّال افريقية – عامة – روحا تتميز بالعداء الشديد للتقدم والتجديد»[45] ويؤكد صاحب التقرير قائلا: «ان الهجرة الى الديار الاسلامية هي – في الواقع – انطواء يائس على النفس وسعي فاشل وراء الماضي المجيد»[46] بل هو ثورة الماضي على الحاضر والمستقبل.

يعزو مارسي» هذه «النزعة الماضوية» الى العقلية الاسلامية التي تعتبر كل جديد بدعة ينفر منها المؤمن. فهو يرى أن التعصب الديني يلعب دورا بارزا في حركات الهجرة اذ كان جلّ المهاجرين (526 مهاجر من أصل 637) ينتمون الى الطريقة الدرقاوية التي يشرف عليها الشيخ ابن يلس[47].

ما من شك أن تقرير السيد «مارسي» قد يحتوي على معلومات قيّمة لكن نتائجه في مجملها خاطئة اذ يعتبر الهجرة ثورة الماضي الذي ترمز له الحضارة العربية الاسلامية. على الحاضر والمستقبل الذي يرمز لها النظام الاستعماري الفرنسي في الجزائر. وأبعد من ذلك ، يعتقد «مارسي» أن الهجرة هي . في الواقع . ردة يائسة ضد زحف ... ، والحضارة الغربية.

في الحقيقة لا يمكننا أن نساند التفسير الماضوي لان صاحبه أغفل ادراج حقائق هامة، كانت تميز المجتمع الجزائري خلال الفترة 1900 ـ 1914. وقد أشار اليها بعض الكتاب والمؤرخين.

كان المجتمع الجزائري ـ في المدن خاصة ـ خلال هذه الفترة، يشهد تحولا هاما يدل دلالة قاطعة على أن سكان المدن لم يكونوا ينفرون من التجديد والتقدم، بل من الواقع الاستعماري المرير. في هذا الصدد كتب المثقف الجزائري «ابن علي فخار» مقالا سنة 1908 يصف فيه هذا التحول: «منذ عشرين سنة خلت، بدأ الوسط الجزائري في مدينة تلمسان، يتأثر للحياة العصرية. فهو ينتقل بوضوح من نمط الحياة التقليدي الى نمط الحياة الحديث»[18] وترسم صحيفة «الحق الوهراني» التي كانت تصدر سنة 1911، صورة تختلف تماما عن الصورة التي جاء بها «مارسي» في تقريره اذ «تعتبر المثقف التلمساني نموذجا حيا لحركة النهضة التي يشهدها الوسط الجزائري في المستعمرة واذا كان الشاب المسلم يضطر الى مغادرة الوطن فذلك بفعل القوانين الاستعمارية الجائرة»[19].

وإذا كان المجال لا يتسع لذكر شهادات أخرى، فإننا نشير بشكل خاص الى رأي المؤرخ آجرون «تضم مدينة تلمسان عددا هاما من الشباب المتطور يقرأون ويكتبون بلغتنا الفرنسية ومنهم من يحمل شهادات عليا»[20].

وأخيرا، إذا كان المهاجرون يتوجهون الى الشام، فلم يكن ذلك، بدافع الهروب من آثار حركة التقدم والتجديد لان المدن السورية كانت ـ آنذاك ـ تشهد نهضة ثقافية واقتصادية كلها دعوة الى التمدن والأخذ بأسباب التطور والاصلاح.

2 ـ التقارير التي تعتمد التفسير الاستعماري الحديث:

تعزو هذه التقارير الهجرة الى عامل الفقر الذي كانت تعانيه الجماهير الجزائرية في المدن والأرياف.. وقد تبنى غالبية المؤرخين الفرنسيين المعاصرين هذا التفسير، [illegible] غالبيتهم نقدا عنيفا لأعمال الادارة الاستعمارية وتصرفات المعمرين التي تسببت في إلحاق الخراب بالجزائريين.

[illegible] أن الادارة الاستعمارية كانت، في نظرهم، ترفض العمل على تخفيف حالة الفقر وإزالة أسباب الحرمان الاقتصادي الذي كان يميّز المستعمرة. فلو انتهجت هذه الادارة سياسة اقتصادية اسلامية لما ظهر الغضب في أوساط «الأهالي» اذ أن هؤلاء لا يقاومون الوجود الفرنسي بل تصرفات، الموظفين وكبار المعمرين الذين كانوا يستغلونهم.

توجد بوادر هذه «النظرية الاقتصادية» في التقرير الذي كتبه السيد «فارنيي»، الأمين العام للولاية، العامة، سنة 1910 على إثر هجرة سكان مقاطعة «بوعريرج» في ناحية سطيف. فهو يقول: «ان هجرة الأهالي تعود ـ جملة وتفصيلا ـ الى الأزمة الاقتصادية التي شهدتها منطقة سطيف»[21] ثم يذكر عواملها:

ـ اجتياح الجراد الذي أتلف المحصول الزراعي لسنوات 1908 ـ 1909 ـ 1910.

ـ الضرائب الثقيلة التي كان يدفعها «الأهالي» الى الادارة.

ـ اضطرار الفلاحين الى بيع أملاكهم وماشيتهم للمعمرين والتجار الجشعين[22].

ثم ينتقل السيد «فارنيه» الى قرار التجنيد الاجباري فيصفه «بقطرة الماء التي أطفحت الاناء»[23] وكانت النتيجة، في نظره ـ أن ساد جو من اليأس والغضب دفع سكان المقاطعة الى الهجرة.

في هذا السياق، نريد أن نشير الى أن المؤرخ الفرنسي آجرون، يتبنى نفس التحليل في دراسته لحركات الهجرة. ويستند في ذلك على الشهادات التي وردت في بعض الوثائق الادارية (تقرير «فارنيه» وتقرير «باربودات») ومقالات بعض الصحف مثل «لادبياش دي كانستنتين» و«إيكو دوران» وغيرهما.

لا يستطيع الباحث المهتم بدراسة المقاومة الوطنية المناهضة للاستعمار، أن ينفي أثر العوامل الاقتصادية لكنه لا يجوز له ـ كذلك ـ أن يعتبر هذه العوامل كافية لأن دعاة «التفسير الاقتصادي» يهدفون الى انكار الطابع الوطني لهذه المقاومة.

وفي اعتقادنا أن الأسباب الاقتصادية جزء من كل يتمثل في الوجود الفرنسي باعتباره وجودا استعماريا شاملا ينكر حق الشعب الجزائري في تأسيس دولته الوطنية وفي هذا الصدد، يقول مؤرخ فرنسي: «لا يوجد هناك ثوابت تاريخية تدفع الأهالي

الى تأسيس دولة وطنية. أبدا، لم تكن الجزائر أرضا تكونت فيها شخصية وطنية لها لغتها المشتركة وثقافتها الجماعية. فقد كانت دائما بلدا معرّضا للغزو والفتوحات، يخضع لمختلف التيارات الفكرية والدينية. فهي ـ حتما ـ أرض مهيأة لأن تكون فرنسية»[24].

في الختام، نريد الوصول الى النتائج التالية:

أولا: ان عددا معينا من المؤرخين الفرنسيين الذين درسوا حركات الهجرة، بنوا تحاليلهم على أساس نتائج هذه الوثائق الادارية. فالمؤرخ «ج.ج راجي»[25] اعتمد في أطروحته على «العامل النفسي» لتحليل هجرة الجزائريين الى البلاد الاسلامية. وقد تأثر في ذلك، بالوثائق التي تعزو الهجرة الى «الدعاية العثمانية» مثل تقرير السيد «لوسياني». ويرجع المؤرخ «ب. باردين» سببها لاى «العامل العرقي» لانه اعتمد في كتابه[26] على تقرير السيد «هاباتي». أما ش.ر. آجرون، فانه يعزو الهجرة الى عامل الفقر اذ يستشهد بفقرات طويلة من تقرير «فارنيه» وغيره.

يكفينا ذكر أسماء هؤلاء لأن القائمة قد تطول، غير أنه لا يجوز أن نعتبر كل المؤرخين الفرنسيين ينتمون الى المدرسة الاستعمارية التقليدية أو الحديثة لأن منهم من يبحث في تاريخنا بمناهج علمية وروح موضوعية[27].

ثانيا: لا يتم تجديد الدراسة التاريخية في بلادنا إلا اذا اعتمدنا على مصادر أخرى غير المصادر الفرنسية. وبشأن الهجرة، يجب علينا، أن نرجع كذلك الى أرشيف القضاء الشرعي في البلاد الإسلامية (المغرب الأقصى، الشام ومصر خاصة) وأن نجْمَع الشهادات من العائلات المهاجرة التي عادت الى أرض الوطن قبل أو بعد الاستقلال.

ومن المؤكد أن هذه المصادر الجديدة ستساعدنا على كتابة تاريخ الهجرة كتابة علمية قائمة على أشكاليات وطنية لا استعمارية.

الهوامش:

(1) إكس: أرشيف ما وراء البحر: 9H98: رسالة الوالي العام رقم 705.
(2) إكس: المصدر نفسه: تقرير رقم 38.
(3) إكس: أرشيف ما وراء البحر: 9H103: تقرير «لوسياني»
(4) إكس: المصدر نفسه: تقرير لوساني.
(5) إكس: المصدر نفسه: تقرير لوسياني
(6) أرشيف ولاية وهران: المجلس العام لعمالة وهران سنة 1911: تقرير هاباتي.
(7) إكس: المرجع السابق: تقرير لوسياني.
(8) إكس: تقرير «لوسياني».
(9) أرشيف ولاية وهران: تقرير ماباتي.
(10) المصدر نفسه: تقرير ماباتي.
(11) المصدر نفسه: تقرير ماباتي.
(12) الولاية العامة: هجرة تلمسان: الجزائر 1914 ص 30.
(13) إكس: أرشيف ما وراء البحر 9H105: تقرير مارسي.
(14) المصدر نفسه: تقرير مارسي.
(15) المصدر نفسه: تقرير مارسي.
(16) المصدر نفسه: تقرير مارسي.
(17) الولاية العامة: المرجع السابق ص 32.
(18) «مجلة العالم الإسلامي»: العدد رقم 6 السنة 1908.
(19) صحيفة «الحق الوهراني» رقم 2.
(20) ش ر. آجرون: «المسلمون الجزائريون وفرنسا» باريس 1968 ـ المجلد الثاني ص 1086.
(21) إكس: أرشيف ما وراء البحر 9H104: تقرير «فارنيه»
(22) المصدر نفسه: تقرير «فارنيه»
(23) المصدر نفسه: تقرير فارنيه.
(24) ج. ميليا: الجزائر وفرنسا: باريس 1919 ص. 46.
(25) ج.ج راجي: المسلمون الجزائريون في فرنسا والبلاد الاسلامية. باريس 1950.
(26) ب. باردين: الجزائريون والتونسيون في الامبراطورية العثمانية 1848 ـ 1914. باريس 1979.
(27) نشير بشكل خاص الى أطروحة ج. ميني L'Algérie Revelée تيس 1979.

دور الأرشيفات والوثائق التاريخية في كتابة تاريخ المقاومة الجزائرية (الربع الأخير من القرن التاسع عشر)

ابراهيم مياسي

لقد عرفت الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عدة مقاومات شعبية مسلحة، انتقلت من المدن الى الأرياف والجبال والصحاري، تزعمها المرابطون ورجال الدين (العلماء)، ذلك أن الاحتلال الفرنسي بعد أن ثبت أقدامه على السواحل والمدن، أصدرت حكومة الجمهورية الفرنسية الثانية قراراً، في شهر مارس 1848، ينص على أن الجزائر جزء من التراب الفرنسي[1]، ولهذا عزمت فرنسا على التوسع لاحتلال كامل التراب الجزائري، فاتجهت نحو المناطق الداخلية والنائية من البلاد، واصطدمت في طريقها بمقاومات شعبية عنيفة مثل ثورة واحة الزعاطشة بقيادة الشيخ بوزيان عام 1848[2]. ومقاومة جبال جرجرة خلال الخمسينات تحت زعامة محمد الشريف بوبغلة، وفاطمة نسومر[3]. وفي الصحاري تعرض الفرنسيون لمقاومة شعبية شديدة من قبل أهل الأغواط وأهالي وادي سوف وتوقرت بوادي ريغ وأهالي وادي ميزاب وغيرهم.

أما الستينات فقد تميزت بانتفاضات عنيفة ومريرة لأولاد سيدي الشيخ في الجنوب الوهراني ثم مقاومة الشريف بوشوشة (1874/1869)، وواكبتها ثورة 1871 لعائلتي المقراني والحداد[4] بمنطقة القبائل الصغرى ثم جاءت ثورة واحة

العمري بنواحي بسكرة (1876) وثورة الأوراس سنة 1879[5]، ثم ثورة الشيخ بوعمامة لتصدي التوسع الاستعماري في الجنوب الغربي الجزائري، وهي في الحقيقة استمرار وامتداد لانتفاضات أولاد سيدي الشيخ العديدة منذ 1864، ثم مقاومة أهالي تديكلت وقورارة وتوات وغيرها من المقاومات الكبرى التي لا يمكن حصرها في هذه العجالة.

ذلك أن معظم هذه المقاومات لم تدرس حتى الآن بكيفية موضوعية وعلمية، وشاملة. لأن معظم وثائقها ما زالت جاثمة ومكدسة في دور المحفوظات بدون تفحص ودراسة والتاريخ كما هو معروف يصنع من الوثائق[6].

أهمية وثائق المقاومة الجزائرية

ان المصدر الأساسي والمباشر لكتابة تاريخ المقاومة الجزائرية هو الأرشيفات والوثائق التاريخية التي تستسقى منها المعلومات الصحيحة والدقيقة حسبما تقتضيه النظرة الموضوعية والعلمية، وتتطلبه الحقيقة التاريخية. ذلك ان هذه الوثائق تعد الأصول الضرورية لإعادة بعث وتسق الأحداث التاريخية. لذلك فلا بد على كل باحث تاريخي أن يرجع اليها.

وتكونت وثائق هذه المقاومة من الكتابات الرسمية أو شبه الرسمية ـ مثل المراسلات السياسية والأوامر والقرارات والحالات والمعاهدات والاتفاقيات وغيرها. كذلك تكونت من المذكرات الشخصية أو اليوميات ومن الاشعار وخاصة الشعر الشعبي ومن الخطب أو المقالات. والندوات. والروايات. والآثار المادية.

هذا مع العلم أنه لا بد من فحص هذه الأصول والتأكد من صحتها. وتثبيت خلوها من الدس أو التزوير. وسأحاول أن أسلط الضوء على عينة بسيطة من هذه الوثائق لمقاومة الجنوب الغربي الجزائري بزعامة الشيخ بوعمامة في الربع الأخير من القرن الماضي.

أولا: أرشيف وزارة الحرب بفنسان (فرنسا)

يحتوي هذا الأرشيف على عدة مجموعات أهمها:

أ ـ سلسلة (G) التي تضم وثائق تخص التنظيمات الادارية للجزائر من 1883 الى 1902 .

ب ـ سلسلة (H) وتشتمل على الوثائق التي تختص بالأوضاع السياسية في الجزائر.

وأهم صندوق يخص هذه المقاومة هو H. 376 الذي يحتوي على عدة وثائق نأخذ منها بعض النماذج التالية:

2 ـ رسالة من الوالي العام المدني للجزائر الى وزير الحرب بباريس، بتاريخ 15 أفريل 1881. موضوعها، الأوضاع السياسية بالناحية الوهرانية، ومنها احتمال اشتراك أولاد سيدي الشيخ في القضاء على بعثة فلاترس، ثم تقييم نفوذ بوعمامة في المنطقة.

1 ـ رسالة من والي وهران الى الوالي العام المدني للجزائر بتاريخ 09 أفريل 1881، وموضوعها هو تقديم بعض المعلومات والأخبار عن بوعمامة، ومدى تأثيره على القبائل الصحراوية وخاصة بعد أن وعدهم بأنه سيخلصهم من الاحتلال الفرنسي وهذا قبل حلول فصل الصيف القادم.

3 ـ قرار عام من مركز القيادة بالجزائر، في 24 ماي 1881 وهو قرار لتحرك القوات الفرنسية لمواجهة قوات بوعمامة بعد معركة 19 ماي.

4 ـ رسالة من الجنرال سوسيه (Saussier) قائد الفيلق التاسع عشر الى وزير الحرب، صادرة من وهران بتاريخ 18 جويلية 1881 وموضوعها اعلام الوزير بالخطط العسكرية لمواجهة مقاومة بوعمامة.

5 ـ رسالة من الجنرال سوسيه قائد الفيلق التاسع عشر الى الجنرال دليبـاك (Delebecque) قائد الناحية العسكرية بوهران، الجزائر في 02 سبتمبر 1881 وهي خاصة بالتعليمات والتحضيرات لهجوم على بوعمامة، بعد انخفاض درجة الحرارة خلال فصل الخريف القادم.

6 ـ تقرير أجمالي حول العمليات التي انجزت من 08 الى 16 نوفمبر 1881.

ثانيا : أرشيف ما وراء البحار، أكس آن بروفانس (فرنسا):

وهو من أهم الأرشيفات التي تحتوي على عدة وثائق خاصة بالمقاومة منها:

ـ صندوق F.80.1683b .

ويحتوي على عدة وثائق تتعلق بالخسائر البشرية والمادية التي ألحقها الثوار بالشركة الجزائرية الفرنسية لاستغلال الحلفاء ومنها ما يلي:

1 ـ تقرير متعلق بالهجوم والتقتيل الذي حصل أيام 11، 12 و13 جوان على ورشات الحلفاء بدائرة سعيدة وهو تقرير من قائد ناحية سعيدة بتاريخ 23 جوان 1881 تحدث فيه خاصة عن خسائر حظائر الحلفاء للمقاولين الاسبانيين مانويل فيونتاس (Manuel Fuentés) ومارينو كامبيو (Mariano Campillo) والذين يعملان ضمن الشركة الفرنسية ـ الجزائرية ، وبين التقرير عدد القتلى والجرحى والمفقودين، وكذا المقادير المالية التي خسرتها الشركة من جراء هجوم ثوار بوعمامة عليها. كما تحدث التقرير أيضا عن حرق ورشة حداد لمعمر يقطن بخلف الله، واتلاف مزرعة المعمر مانويل جان الموجودة على بعد 6 كلم من عين الحجار، وبذلك تكون الحوصلة العامة للخساء المنجرة عن الثورة بـ 649.401،50 فرنك.

ونستشف من هذا التقرير أن الثورة قد ضربت بشدة مصالح الاستعمار واستغلاله حتى تقوض أركانه في المنطقة، وتخلص البلاد والعباد من استغلاله البشع.

2 ـ رسالة من العقيد «دوفوكيرسون (De Vaucresson) القائد الأعلى الى الجنرال قائد الفرع العسكري بسعيدة في 26 سبتمبر 1881 تحدث فيها بالتفصيل عن القتلى والمفقودين والخسائر المالية للشركة من جراء ثورة 1881 ثم اتبعها بحالات مفصلة هي :

ـ الحالة رقم 1 = وبها أسماء الاسبان القتلى بورشات الحلفاء وعددهم 52 قتيلا.

ـ الحالة رقم 2 = وبها أسماء المفقودين من الاسبان وعددهم 85 مفقودا.

ـ الحالة رقم 3 = وبها قيمة الخسائر التي تقدر بـ 828.453،50 فرنك.

3 ـ رسالة من الشركة الفرنسية ـ الجزائرية الى رئيس لجنة سعيدة ـ باريس في 02 فيفري 1882.

وهي من ضمن الرسائل المتبادلة ما بين الشركة والوالي العام المدني الجزائري وهي رد على رسالة الوالي العام بتاريخ 30 أكتوبر الماضي متبوعة بتقرير من سبع صفحات تحت عنوان: «حالة الخسائر التي أحدثت للشركة الفرنسية ـ الجزائرية من جراء الثورة التي انفجرت بالهضاب العليا لاقليم وهران في أفريل 1881. ذلك أن هذه الخسائر قد قدرت حسب السنوات التالية:

ـ 1881 قدرت بـ 3.518.800 فرنك.

ـ 1882 قدرت بـ 3.587.200 فرنك.

ـ 1883 قدرت بـ 2.500.000 فرنك.

ـ 1884 قدرت بـ 688.000.

وبذلك فإن مجمل الخسائر هذه الشركة تقدر بأكثر من 10 ملايين فرنك .

4 ـ رسالة من الوالي العام للجزائر الى وزير الداخلية بباريس الجزائر في 30 سبتمبر 1883.

وهي خاصة باعلام الوزير عن الترتيبات والاجراءات المتخذة لدفع التعويضات للمتضررين الاسبان وغيرهم من الثورة.

5 ـ رسالة من وزير الشؤون الخارجية الى وزير الداخلية باريس 2 أكتوبر 1884.

وهي من أجل ابلاغ وزير الداخلية عن التعويضات التي قدمت للرعايا الاسبان ضحايا ثورة 1881.

صندوق 30H 79

1 ـ برقية من الناحية العسكرية بوهران بتاريخ 10 أوت 1883 موجهة الى الولاية العامة للجزائر ـ المصلحة العامة للشؤون الأهلية وفحواها اختفاء بوعمامة بواحات فيقيق.

2 ـ برقية من الجنرال سوسيه، قائد الفيلق التاسع عشر الى تيرمان، 15 شارع بروكسال ـ باريس.

وهي صادرة من الجزائر بتاريخ 08 سبتمبر 1883 ويطالب فيها من تيرمان بأن يبلغ الحكومة الفرنسية بأن بوعمامة ما زال معتصما بفقيق، وهذا يشكل خطر على أمننا وكرامتنا لهذا يجب ارغام السلطان المغربي على أن يعطي أوامره لطرد بوعمامة من فيقيق.

3 ـ رسالة من قياد متليلي الى حاكم غرداية بتاريخ 29 ماي 1888 ليقدموا فيها أخبار تحركات بوعمامة للسلطات الفرنسية.

4 ـ رسالة من بوعمامة الى القائد محمد بن فرج الله والقايد قويدر بن التكار والقائد علي بن حروز بدون تاريخ وموضوعها هو التصالح ما بين بوعمامة وهؤلاء القياد.. وجلبهم في صفّه.

5 ـ رسالة من الجنرال «ديتري» Détrie قائد الناحية العسكرية بوهران الى الوالي العام للجزائر، تاريخها 15 ديسمبر 1888 وهي تدور حول أخبار بوعمامة واستقراره بدلدول وحالة القافلة الآتية من تمبوكتو.

6 ـ رسالة من بوعمامة الى الوالي العام بتاريخ 27 جمادي الأول 1318 هـ (الموافق لشهر سبتمبر 1900 م).

وموضوعها طلب الأمان لبعض القبائل لكي تستطيع العودة من المغرب الى ديارهم.

7 ـ مخطط تخيم بوعمامة بتاريخ 26 ماي 1896 من تصميم الملازم رئيس مركز جنان بورزق.

هذا بالإضافة الى الصناديق التالية:

30 H 80 ـ 30 H 81 و 30 H 51 إلى 30 H 53 كذلك 22 H 1 الى 22 H 9 وغيرها من الصناديق العديدة أما التقرير العسكرية الاسبوعية والشهرية التي تبين ما يحدث في الجنوب الوهراني فهي ضمن مجموعة ـ J ـ ومجموعة ـ JJ ـ 1 JJ 1 à 465 فهي تحتوي على سجلات المراسلات العسكرية بوهران :

ـ من 1 الى 3 مراسلات عامة من 1885 الى 1908.

ـ من 10 الى 67 مراسلات مع السلطات العليا (الولاية العامة الفيلق التاسع عشر) من 1853 الى 1913 ـ من 205 الى 319 مراسلات مدنية ومتنوعة من 1841 ـ 1913.

ـ من 325 الى 340 برقيات من 1873 ـ 1912.. الخ.

كما توجد وثائق عديدة في أرض الوطن، ولكنها غير مرتبة ومندثرة، كما أيضا لبوعمامة كتابات ويوميات وآثار مختلفة ولكنها ضاعت بين أفراد أسرته. وهي ليست في متناول الجميع.

أما ما وجدناه من آثار لهذه المقاومة هو بعض القصائد الشعبية للشاعر محمد بلخير نذكر منها:

ـ قصيدة «واحنا بنا الناس التهرف والتهريف».

حاجة علم النفس الاجتماعي للبحوث التاريخية

ضغط المدرسة الاستعمارية على تطور البحث العلمي في ميدان علم النفس الاجتماعي

سليمان مظهر

ليس في وسع الباحث الجامعي أن يستغني عن المراجع التي ألفت في تخصصه لانه لا ينتظر من البحث الجامعي اعادة ما أنجز بل تجديد وتدعيم المعلومات على أن توفير هذا الشرط يصطدم بالنسبة الينا مباشرة بعرقلة عامة تعود في أساسها الى المراجع التابعة للمدرسة الاستعمارية في بلادنا.

وللوقوف على هذه العرقلة وكيف يمكن أن نتجاوزها يجب أولا أن نبرهن على وجود هذه المدرسة نفسها.

يمكن اثبات وجود هذه المدرسة، من خلال ضرب أمثلة موضوعية. فإذا انتقلنا مثلا من 1986 إلى 1830 نجد أن عدد المراجع المؤلفة باللغة العربية، ومن طرف جزائريين، يتناقص تدريجيا. وإن عدد المراجع المؤلفة باللغة الفرنسية ومن طرف فرنسيين في تزايد.

وإذا تصفحنا المراجع المؤلفة بالفرنسية، ومن طرف فرنسيين، ندرك أنها تخلو من مواضيع: كالدين وانماط القيم والنظام العائلي ودور المرأة... أي المواضيع ذات الجوانب النفسية والاجتماعية التي يصعب وقوفهم عليها. وهذا هو تعريف البحث العلمي: لا يوجد بحث علمي الا وقام حول قضية تجسد مشاكل. إذن على أساس

ميزات هذه الظاهرة نستطيع أن نثبت أن المدرسة الاستعمارية تشكل قضية موضوعية بالنسبة الينا.

ويمكن كذلك أن نبرهن وجود عرقلة ناتجة عن هذه المدرسة فيما يخص البحث العلمي، تبرز من خلال ظاهرة موضوعية ذات وجهين مختلفين نظرا لاستعمال المصادر العربية والفرنسية

تعود هذه الظاهرة المزدوجة الى العرقلة العامة المتكونة من مراجع المختصين الأجانب في الجزائر والتي تجعل البحث المستمد من الواقع منعدما في كلتا الحالتين بحكم الخضوع للمراجع. وفي هذا الأساس تكمن توابع العرقلة ، اذ ندرك ان الاعتماد على هذه المراجع لا يؤدي الى تعميق أو تجديد المعلومات بل الى صب العمل الجديد في قالب المراجع السابقة باستعمال نفس المناهج والمفاهيم وطرق التحقيق وهذا بدون نقد أو تمحيص.

وهكذا تشكل المدرسة الاستعمارية عائقا في وجه البحوث الجديدة ، اذ يبقى الباحث متمسكا بالمراجع التي تحتوي عليها أوفارا منها، وتحته ، إما على الخضوع والتبعية أو سرد القديم والانفتاح، وبكلمة أخرى فإن المدرسة الاستعمارية عرقلة في طريق التحليل والانتاج المبدع.

وعلى هذا الأساس تكون هذه العرقلة مشكلة من بين المشاكل التي يهتم بها علم النفس الاجتماعي، اذ تحتوي على تصورات ومواقف واتجاهات وسلوكات وتدخل هذه العناصر ضمن موضوع علم النفس الاجتماعي بحيث يهتم هذا التخصص بدراسة وتحليل الحياة الاجتماعية للأفراد والجماعات والمجتمع. وتنحصر الحياة الاجتماعية اليومية في الساحة العامة والأوساط المهنية والعائلية على الأخص وتجري بواسطة السلوك الاجتماعي والعلاقات والتفاعل المتبادل بين الأفراد، في اطار الجمعيات التي يكونونها من جهة، وبين الجماعات من جهة أخرى. وهذا في المجتمع الذي تستمد منه كل هذه العناصر.

فالسلوك والتفاعل الاجتماعي يكونان محرك الحياة الاجتماعية وموضوع علم النفس الاجتماعي في آن واحد، وتقتضي دراستها مراعاة عناصر مختلفة:

أ ـ العناصر الفردية ـ الوجدان ـ الحاجة ـ المصلحة ـ الرغبة ـ الطموح ـ المواقف ـ التصور...

ب ـ العناصر الاجتماعية على مستوى الجماعة: التربية، انماط القيم، العادات، التقاليد، المصالح المشتركة، المراقبة العامة، انماط السلوك، الامكانيات العادية، الصراع...

جـ ـ العناصر الاجتماعية على مستوى المجتمع: البنية الاقتصادية، البنية الثقافية، الهوية، التاريخ، المشاريع، القوانين والأنظمة، الوسائل المادية (مؤسسات...).

رغم ان ذكر العناصر التي تؤدي الى السلوك غير شامل فالمهم هو الإشارة الى أن السلوك تابع الى عوامل مختلفة البعض منها داخلي والبعض خارجي وأن حدوث السلوك يؤثر في نفس الوقت على من يقوم به وعلى المحيط الذي يقع فيه.

هذا يعني أن ميدان علم النفس الاجتماعي معقد اذ العناصر التي يتكون منها تابعة الى تخصصات مختلفة نذكر من بينها التاريخ. فالاعتماد على نتائج البحوث التاريخية شرط أساسي من بين الشروط التي يجب أن تتوفر لدى المختص في علم النفس الاجتماعي خصوصا اذا زعم الانتقال من الحالات الاجتماعية الى تحليلها وشرحها ولكن بمجرد الشروع في هذه العلمية أي في الانتقال من الوصف الى التحليل، يتعرض الباحث الى العرقلة العامة التابعة للمدرسة الاستعمارية كما أشرنا اليها.

وحتى نستطيع أن نحصر مضمون هذه العرقلة بالنسبة لعلم النفس الاجتماعي ونحدد حاجة هذا التخصص للبحوث التاريخية نذكر حالات اجتماعية ، البعض منها عام والبعض متعلق بقطاعنا.

أ ـ الحالات العامة: كلنا يعلم أن نظرة أعضاء مجتمعنا للانتاج الوطني نظرة احتقار وان معظم المواطنين يفضلون استهلاك ما يمكن استيراده. وكلنا يعلم كذلك ان مواقفنا الاجتماعية تجاه ما نعيشه قائمة على المقارنة بين ما لدينا وما هو موجود في البلدان المصنعة وان هذه المقارنة كانت نتيجتها سلبية بالنسبة لمضمون محيطنا الاجتماعي.

وعلى سبيل المثال نشير إلى الحالات النفسية الاجتماعية التي ظهرت اثر اتخاذ قرار الانتقال من الأحد الى الجمعة كيوم عطلة أسبوعية. جسدت هذه الحالات على

مستوى الساحة العامة جميع المشاكل التابعة للمدرسة الاستعمارية.

ب ـ الحالات الخاصة: نذكر من بين هاته الحالات ثلاثة أنواع:

يشمل النوع الأول قطاع الدراسات بصفة عامة. فإننا نعجز على تحليل ما نعيشه يوميا وان (اجبرنا) على ذلك فاننا نفضل الانغماس فيما أتى به غيرنا ان لم نكلفه بمهمة التحليل مباشرة وكلنا يعلم أنه يمكن لأجنبي أن يحصل على معلومات متعلقة بمجتمعنا قد تخفى على مواطن.

يعود النوع الثاني للعلاقات مع التعاون: بصفة عامة فانه قد وظف متعاونون بشهادات أقل من شهادات جزائريين وفي مناصب أعلى منهم. وبصفة خاصة فقد وقعت زوبعة في كأس، لما أبدى جزائري في اجتماع ضم أجانب أن تنظيم وتسيير البحث العلمي مهمتان من اختصاص الجزائريين فحسب، كما استغرب زملاؤه اقتراح الاستغناء عن التعاون في التكوين ما بعد التدرج اذ كانوا يعتبرون أنفسهم غير أكفاء على الاشراف في الدراسات العليا.

يتعلق النوع الثالث بالصراع اللغوي، الذي يدور بين اللغة الوطنية واللغة الفرنسية والذي عاش وما زال يعيشه مجتمعنا وقطاعنا.

لدينا اذا حالات مختلفة تقوم على السلوك والتفاعل والتصور والمواقف في ميادين مختلفة من مجتمعنا وكلها عائدة لعلم النفس الاجتماعي، فإن سهل حصرها فتحليلها جد صعب اذ يتعرض مباشرة للعرقلة التابعة للمدرسة الاستعمارية لأن تحليلها في حاجة الى نتائج بحوث في تخصصات عديدة وعند محاولة سد هذه الحاجة يجد المختص نفسه أمام ثلاثة أنواع من المراجع ـ هذا بقطع النظر عن اللغة المستعملة ضمنها. أما مراجع تقتصر على الرأي الشخصي المجرد من كل المعايير العلمية وأما مراجع مثالية تهتم بعرض الأوضاع التي يجب أن يسير عليها المجتمع حتى يتفادى كل المشاكل واما مراجع تقترح على الباحث مناهج ومفاهيم وتقنيات يستحيل بواسطتها تحليل واقعنا الاجتماعي تحليلا علميا وبكلمة أدق تضع وسائل التحليل ـ المتوفرة في المراجع ـ الباحث أمام خيارين أحلاهما مر: فإما الابتعاد عن الحالات الموضوعية واما تحريفها وتشويهها.

من بين وسائل التحليل التي تدفع الباحث نحو الاختيار الثاني نذكر مفهوم (المحور الثاني المستعمل من طرف الباحثين بصفة آلية. ولما شاع استعمال هذا المفهوم

ويمكن تقديم الاثبات الآتي: ان معظم المحللين متفقون على أن الاستعمار قد قضى على الثقافة الوطنية، ولكن كيف استطاع أن يقضي على هذه الثقافة بدون أن يقضي على ممثليها كمواطنين متشبثين بهويتهم وعاداتهم وتقاليدهم؟ وكيف يمكن تصور وجود مجتمع قد قضي على بنيته الثقافية؟ وإلى أي محتوى تعود جميع الحالات التي ذكرناها من قبل؟

يستحيل الجواب عن أي سؤال من هذه الاسئلة اذا صممنا على استعمال مفهوم محور الثقافة كما يستحيل تحليل أي قضية موضوعية تحليلا علميا وعمليا بواسطة هذا المفهوم. وتتعقد القضية اذا زعمنا اجتناب هذا المفهوم واستعمال مفهوم آخر ولو كان متلائما مع الواقع لان هذه العلمية الجدية تصطدم بالمواقف العامة التي تهمل كل عمل لم ينصب رأسا في القالب المعتاد أي ضمن المدرسة الاستعمارية. وهنا تكمن حاجة علم النفس الاجتماعي للبحوث التاريخية بحيث تصطدم بهذه العرقلة التابعة للمدرسة الاستعمارية أثناء البحث! وعند تقديمه في محيطنا. فيجب اقتحام هذه العرقلة بصفة مباشرة أي يجب علينا أن ننتقدها نقدا دقيقا حتى نستطيع به أن نبرهن على عواقبها السلبية على مستوى التحليلي والتفكيري ولا يمكن لهذا النقد البناء أن يقوم الا على بحوث تاريخية مستمدة من الواقع. حينئذ يمكن أن نقارن ميزات واقعنا والامكانيات التحليلية الناجمة عن المفاهيم المفروضة علينا.

هذه هي العملية المعقدة والصعبة التي نحاول ابرازها في علم النفس الاجتماعي، وهنا نحن مقتنعون بأنه يستحيل على المدارس الجزائرية أن تبرز في تخصصات مختلفة قبل تحطيم المدرسة الاستعمارية لأنه يصعب علينا أن ندرس مجتمـ بأدوات قد تعجزنا على ذلك.

فبحكم العرقلة التابعة للمدرسة الاستعمارية يجب على البحوث أن تـ ثلاثة مراحل متكاملة. تتضمن المرحلة الأولى التطلع الدقيق على الحياة الاجتـ انطلاقا من مجال اختصاصنا وتقتضي المرحلة الثانية نقد كل الادوات التحليـ تتوفر لدينا، أي أننا لا نستعمل أي أداة الا بعد اختبار مدى فعاليتها وعلميتها. يمـ بعد هاتين المرحلتين أن ننتقل الى المرحلة الثالثة أي الى الانتاج والاختراع. و هذه المرحلة الثالثة من التحكم في حياتنا الاجتماعية ومن تبادل الأفكار والأ ممثلي جامعات أخرى. □

**Achevé d'imprimé
sur les presses
d'I.A.I.G. Tél : 65.07.78**

1er trimestre 1991

Ministère de l'Enseignement Supérieur

Université d'Alger

Institut d'Histoire

Revue des Etudes Historiques



– Périodique de l'Institut d'Histoire –

N° 5